موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

السيرة النبوية

سيرة الخلفاء الراشدين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا أبو بكر الصديق - الدرس (1-5) : فطرته السليمة وأخلاقه في الجاهلية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-03-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرجة أو المرتبة التي احتلها أبو بكر في الإسلام

أيها الأخوة، مع الدرس الأول من سيرة سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، هذا الصحابي الجليل بلغ مرتبة الصديقية، وهي المرتبة الأولى بعد النبوات والرسالات، والسيدة مريم أيضًا صديقة، فقد بلغ من قربه من النبي مبلغاً أن كل شيء رآه النبي وتكلم به إلاّ قال فيه الصدِّيق: صدقت يا رسول الله، لأن الرؤية تشابهت، أقرب مقام من رسول الله مقام سيدنا الصديق، الآثار التي تتحدث عن مقامه الرفيع كثيرة جداً،

((ما طلعت شمس على رجل أفضل من أبي بكر))

(ورد في الأثر)

((تسابقت أنا وأبو بكر فكنا كهاتين))

(ورد في الأثر)

فأشار بإصبعه الوسطى والتي تليها، وهذا الصحابي الجليل ما عبد صنماً، ولا شرب خمراً في الجاهلية.

العقل منحة ربانية كبرى للإنسان يعرف من خلاله الحق والبحث عنه :

درسنا اليوم مِن سيرة هذا الصحابي الجليل يتعلق بحياته قبل الإسلام، وها نحن مع الفصل الأول، ونبدأ بالآية الكريمة، وفيها يقول الله عز وجل:

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

(سورة الإسراء الآية : 15)

من معاني هذه الآية، ومما فسرها بها المفسرون أنّ الرسول هو العقل، ومن أوتي عقلاً راجحاً فهذا العقل من دون رسالة السماء، ومن دون أن يتبلغ ببلاغ عن الله عز وجل، فإنه يهدي صاحبه إلى الحق، لذلك عندما سيدنا خالد بن الوليد أسلم، وكان قد تأخر في إسلامه، قال عليه الصلاة والسلام :

((عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً))

(ورد في الأثر)

نعيش في هذا الفصل، وفي هذا الدرس بالذات مع المرحلة التي سبقت ظهور الإسلام، كيف تعامل هذا الصديق مع عبادة الأصنام في الجاهلية؟ كيف تلقى عقائدهم؟ هل قبلها؟ هل رضيها؟ هل تلمس الحق؟ هل تراءى له الحق؟ هذا موضوع فصلنا اليوم .

أيها الأخوة، اللات والعزة، ومناة، ونائلة، وهبل، هذه هي الأصنام التي كانت تعبد من دون الله في الجاهلية، لكن أقول لكم دائماً: إنّ الإنسان أكرمه الله سبحانه بنعمة العقل، والعقل الراجح في هؤلاء الذين عاشوا قبل الإسلام هداهم إلى أن ينشؤوا حلف الفضول، وهذا الحلف يقفون به مع المظلوم أمام الظالم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**((مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ قَالَ أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا))**

(أخرجهما البخاري ومسلم عن أبي هريرة في صحيحهما)

الإنسان إذا كان يتمتّع بعقل راجح وفطرة سليمة فإنه يهتدي إلى ملامح الحق، أو إلى خطوطه العريضة، أو إلى مبادئه الكبرى بعقله، وما انتفع أحد بعقله كالمؤمن، فالمؤمن ينتفع بعقله كل حين .

نظام الحياة في الجاهلية الأولى :

أخواننا الكرام، العطاء الذي لا يوصف ولا يقدر بثمن هو العقل الذي أودعه الله فيك، نحن الآن في هذا الفصل سوف نرى قيمة العقل من دون هداية السماء، جاهلية جهلاء، عبادة الأصنام لا تنفع ولا تضر، ربا الجاهلية كان يجمع الأموال في أيد قليلة، ظلم ما بعده ظلم، سخف ما بعده سخف، حروب طاحنة تطحن الناس لأسباب تافهة بل أقل من تافهة، هذه هي الجاهلية، ولا أبالغ إذا قلت: هذه الجاهلية الأولى التي سبقت الإسلام وصفها الله بأنها أولى، وعندما وصفها بأنها أولى فلا بد من جاهلية ثانية، ولا أبالغ إذا قلت: إن جاهلية القرن العشرين أشد هولاً وانحرافاً من الجاهلية الأولى، لكن لكل عصر جاهليته، سيدنا الصديق عاش في الجاهلية الجهلاء ، عاش في فترة عبادة الأوثان، عاش في فترة عانى المجتمع فيها من مآسي الفرق الطبقي الكبير ، عاش مع اضطراب نظام الأسرة .

إنسان يرسل امرأته لرجل لتستبضع منه، أي ليجامعها وتنجب ولداً من رجل آخر، ثم يدعيه زوجها لنفسه، عشر رجال على امرأة واحدة، نظام الزواج في الجاهلية لا يصدق من شدة انحرافه وانحلاله، هذه هي الجاهلية .

عقل أبو بكر إلى أين هداه ؟

هذا الصحابي الجليل سيدنا الصديق الذي أكرمه الله بنعمة العقل الراجح إلى أين هداه عقله؟ أشخاص معددون في الجاهلية تمتعوا بعقل راجح وفطرة سليمة أنشؤوا هذا الحلف حلف الفضول، وهذا الحلف في الأصل من أجل أن يقف مع المظلوم تجاه الظالم، وقد حضره النبي صلى الله عليه وسلم، وكان صغيرًا، ولم يبلغ الحلم، فيما تروي الروايات، وأثنى على أصحابه، العمل الطيب طيب في كل عصر، العمل الخيِّر خير، البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، والإنسان هو الإنسان في أي زمان ومكان، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

(سورة النساء الآية : 1)

النفس لها بنية واحدة، الظلم مؤلم والعدل مريح، والإحسان يرفع قدر صاحبه، والتواضع يعلي شأنه، ثم إن الأشهر الحرم التي كانت متبعة ومعمول بها في الجاهلية، هذه أيضاً لا تقل عن حلف الفضول، لأن الحرب تطحن الناس طحناً، وقد يكبر على المتحارب أن يلقي السلاح، فتأتي هذه الأشهر الحرم كي تحفظ للمتحاربين ماء وجوههم، كان محرماً أن يقتتل الناس في هذه الأشهر، فالطرفان المتحاربان حفاظاً على ماء الوجه يوقفان الحرب من دون أن يكون هناك غالب أو مغلوب، وحينما يتوقف إطلاق النار كما يقال اليوم، فربما تعود الأمور إلى مجاريها .

من ملامح الجاهلية العقلاء الذين يتسامرون الشعر والكلمة :

من منجزات العقل الراجح في الجاهلية موضوع الأشهر الحرم، الجاهلية كان فيها بعض الفضائل، منها السخاء والكرم، وحاتم الطائي معروف بسخائه، والنجدة والشجاعة، والحلم والتواضع، والبيان .

كان الجاهليون يقولون: موت ألف من العلية خير من ارتقاء واحد من السفلة، لذلك عندما سئل سيدنا علي كرم الله وجهه فقال: واللهِ واللهِ مرتين، لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز بريشتين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين أهون علي من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين .

السافل إذا ارتقى فارتقاؤه شيء لا يحتمل، سوق عكاظ مَعْلَمة من معالم الجاهلية، ماذا كان في هذه السوق؟ النوابغ والعباقرة والحكماء، كانوا يتبارون في إلقاء الأشعار والكلمات، يعني ملتقى فكري، ملتقى أدبي، النوابغ الذين يعنون بشؤون الفكر كانوا يأتون إلى سوق عكاظ ليتناشدوا الأشعار وليتبادلوا الآراء .

العقائد السائدة في الجاهلية وتمسك البقية فيها بدين إبراهيم :

لكن كلكم يعلم أن هناك من يعبد الشمس، وهناك من يعبد الملائكة، وهناك من يعبد الجن ، وهناك من يعبد الكواكب، وهناك من يعبد الدهر، هذه هي العقائد الوثنية التي كانت سائدة في الجاهلية، والأدلة هي قوله تعالى:

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ)

(سورة يونس الآية : 28)

وقال تعالى:

(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)

(سورة النجم الآية : 49)

هذا النجم الذين تعبدونه من دون الله سبحانه وتعالى الله ربه، وهناك الدهريون، قال تعالى:

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

(سورة الجاثية الآية : 24)

وسط هذه العقائد الوثنية، ووسط هذا الاضطراب الفكري والاجتماعي والاقتصادي، كان أناس قلة على دين إبراهيم .

الإنسان مكلف بأصول الدين وفروعه إذا بلغ أما إذا لم يبلغ فقط مكلف بالأصول :

أخوانا الكرام، هناك من يتوهم أن الإنسان إن لم يبلغه الشرع لا يحاسب، لكني أقول لكم ، وأنا أعني ما أقول: الإنسان محاسب دائماً على ما أودعه الله فيه قبل التبليغ، ألم يمنحك الله عقلاً؟ إذاً: العقل مناط التكليف، أليس لك فطرة عالية؟ ستحاسب على العقل الذي أودعه الله فيك، وعلى الفطرة التي فطرك الله عليها، إذاً: بالعقل تتعرف إلى الله، وبالفطرة تتعرف إلى الخطأ قبل أن تنطمس، فالإنسان إذا انحرف، وإذا كذب، وإذا اعتدى، وإذا أساء، وإذا أخذ ما ليس له، فالفطرة السليمة تشعره بخطئه، فهل في القرآن الكريم آية تؤكد هذا المعنى؟ قال تعالى:

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الروم الآية : 30)

هناك آية أقوى وأوضَح، قال تعالى:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس الآية : 8)

معنى ألهمها فجورها، أي أنها إذا فجرت تعرف أنها فجرت، والإنسان إذا لم يبلغه الإسلام أو لم يبلغه الشرع أو التكليف ربما كان معفى من تفاصيل التكليف، فإذا اهتديت بأنّ لهذا الكون إلهاً عظيماً، وإذا حرصت ألا تسيء لهذه المخلوقات، فهذا هو جوهر الدين، إذاً: بالعقل والفطرة يمكن أن تصل إلى كليات الدين، إلى مقاصد الدين الحنيف، بالتكليف والتبليغ عليك أن تنفذ تفاصيل الشرع، الصلوات الخمس، الزكاة، أحكام البيع، أحكام المضاربة، أحكام الإيجار، أحكام الإحالة، نحن إذا بلغنا الشرع مطالبون بتفاصيل الشريعة، أما إذا لم يبلغنا الشرع مطالبون بكليات الدين .

سيدنا إبراهيم من خلال تفكره بالكون، مرة قال: الشمس ربي، مرة قال: القمر ربي، مرة قال: هذا النجم ربي، ثم قال تعالى:

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام الآية : 79)

هذا هو دين إبراهيم، أن تتوجه لا إلى المخلوقين بل إلى خالق المخلوقين، الآن في العالم هناك من يعبد البقر، هناك من يعبد الشمس، هناك من يعبد المرأة، هناك من يعبد الحيوانات، في جنوب شرق آسيا يعبدون التنين الثعبان الكبير في احتفالاتهم وفي أعيادهم، الإنسان لا يرقى إلا إذا وجّه وجهه للذي فطر السموات والأرض .

أمثلة من واقع الجاهلية لأناس عرفوا الله قبل النبوة :

أضع بين أيديكم أقوالاً لأناس جاهليين، والدرس محوره قوله تعالى:

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

(سورة الإسراء الآية : 15)

وأنا أميل إلى أن أفهم هذه الآية على أن الرسول هو العقل، فهذا عامر ابن الظرب العدواني يقول لقومه مفصِحًا لسانه عما يدركه عقله: **" إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً، ولو كان الذي يميت الناس داء لكان الذي يحييهم الدواء"** إذاً: هناك قوة كبيرة جداً بيدها الأمر .

المتلمس بن أمية الكناني يقول عند الكعبة في الجاهلية:**" أطيعوني ترشدوا، لقد اتخذتم آلهة شتى، وإن الله ربكم ورب ما تعبدون "** فلا رسالة، ولا وحيًا، ولا قرآنًا، ولا نبوة كان لها وجود، لكن هذا العقل السليم يدرك أن للناس ربًّا، وهو خالقهم .

زهير بن أبي سلمى يمسك أوراق الأشجار التي اهتزت خضراء بعد أن كانت يابسة، ويقول: **" لولا أن يسبني العرب لآمنت بالذي أحياك بعد جفاف سيحيي العظام وهي رميم "** وله هذا البيت الشهير :

فلا تكتمن الله في نفوسكم ليخفى فمهما يكتم الله يعلم

أبو قيس بن أنس اعتزل قريشاً وأصنامها، واتخذ في بيته مسجداً لا تدخله امرأة طامث ولا جنب، وقال**:" أنا أعبد رب إبراهيم"** الإنسان في لحظات تأمل مع نفسه، لحظات تفكير عميق، يجد أنّ كل شيء ينطق بوحدانية الله، وكل شيء ينطق بأن هذا الكون إلهاً حكيماً، رباً رحيماً، كريماً، وهناك أشخاص ثلاثة: هم قس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، هؤلاء انعقدت قلوبهم على دين إبراهيم عليه السلام .

نموذج آخر من الباحثين إلى الحقيقة :

إنّ سيدنا الصديق الذي نتحدث عنه، والذي هو موضوع هذا الدرس، والذي عاش في الجاهلية، ولم يعبد صنماً، ولم يشرب خمراً، ما الذي حمله على ذلك؟ عقله الراجح، وكان صديقًا للنبي عليه الصلاة والسلام، يعني نشأا معاً، وألِفا بعضهما، قال ذات يوم بعد أن تلقى محمد رسالة ربه وآمن معه أبو بكر: كان عليه الصلاة والسلام جالساً بين أصحابه يستعيد ذكرى أيام شبابه، فقال عليه الصلاة والسلام: لست أنسى قس بن ساعدة ممتطيًا جمل أورق في سوق عكاظ، وهو يتحدث حديثاً ما أحسبني أحفظه! فقال سيدنا أبو بكر: إني أحفظه يا رسول الله، كنت حاضراً هذا اليوم في سوق عكاظ، ومن فوق جمله الأورق وقف قس يقول:

" أيها الناس اسمعوا وعوا وإذا وعيتم فانتفعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لن تغور، ليل داج، وسماء ذات أبراج، يقسم قس قسماً حقاً، إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا"، ثم أنشد فقال:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصـــائر

لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصـــــادر

ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر

أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائـــر

هذا كلام قس بن ساعدة الإيادي في الجاهلية دون أن يتلقى رسالة ولا دعوة، وقبل أن تأتي النبوة ، وقبل أن يتنزل الوحي على النبي عليه الصلاة والسلام، هذا من إنجاز العقل البشري، العقل يا أيها الأخوة يتوافق مع النقل، وما جاء به النقل يتوافق مع العقل الصريح .

أما زيد بن عمرو بن نفيل يقول وقد أسند ظهره إلى الكعبة منادياً الناس: **" يا معشر قريش، والذي نفسي بيده ما أصبح أحد على دين إبراهيم غيري، إني اتبعت ملة إبراهيم وإسماعيل من بعدهما، وإني لأنتظر نبياً من ولد إسماعيل، ما أراني أدركه، ثم تقع عينه على عامر بن ربيعة فيناديه يا عامر بن ربيعة إن طالت بك الحياة فأقرئه مني السلام "** سيدنا الصديق إذا استمع إلى قس بن سعد الإيادي يتفاعل معه، إن استمع إلى عامر بن ربيعة يتفاعل معه، فقال سيدنا الصديق عندما سمع هذا الكلام: هذا ورب إبراهيم هو الحق، ولكن كيف، ومتى نصبح منه على يقين؟

ممكن أن نسمي هذه الأشياء تلمسات، هؤلاء الرجال الكبار الجاهليون الذين استعملوا عقولهم الراجحة، فعرفوا أن لهذا الكون إلهاً عظيماً، وأن هذا الدين الذي عليه الناس اليوم في الجاهلية ليس دين الله عز وجل، وإنما ظلم، وسخف، وخرافة، و دجل .

أما ورقة بن نوفل فكان عاكفاً على الأناجيل يتلوها ويدرسها عساها تدله على دين إبراهيم، أما زيد فكان هائماً مع أشواقه المؤمنة منطلقاً في بطاح مكة لائذاً بالكعبة تارة، مناجياً ربه تارة أخرى، يقول زيد: **" اللهم لو أني أعرف أي الوجوه أحب إليك لعبدتك به، ولكني لا أعلمه "**

صار لديهم الشوق إلى الحقيقة .

موقف العلماء من هذه الأحداث التي جرت قبل النبوة :

العلماء قالوا: هذه إرهاصات، معنى الإرهاصات جمع إرهاص، يعني دلائل قرب مجيء النبي عليه الصلاة والسلام، وكان سيدنا الصديق يزداد طمأنينة وأمناً، كلما رأى زيد بن عمرو يشق صفوف الناس المتحلقين حول الكعبة، ويرفع عقيرته في غير تهيب قائلاً: "لبيك حقاً حقاً تعبداً ورقاً " أحياناً بعض العلماء في الحج يلبون بهذه التلبية، والتلبية المعروفة،" لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، هذه تلبية أخرى ويقول هذا الرجل الذي هداه الله بعقله إلى الحق والهدى، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت   له الأرض تحمل صخراً ثقالا
دحاها فلما رآها استـوت   على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت   له المزن تحمل عذبـاً زلالا

من طلب الحقيقة وجدها :

أقول لكم هذا الكلام: كلكم إن شاء الله تعالى من طلاب العلم الشرعي، وكلكم فيما يبدو تبحثون عن الحقيقة، والله الذي لا إله إلا هو ما هدى الله شاباً إلى الحقيقة إلا بعد أن طلبها، لا ترى مؤمنًا يهتدي إلى الحقيقة إلا إذا كان طالباً لها، كل إنسان يستعرض حياته السابقة، يقول لك: أبحث عن شيء لا أعرف أين هو، ما هو هذا الشيء؟ الحقيقة، الحقيقة الكلية، الحقيقة الكبرى أن تعرف أين أنت موجود؟ أين كنت وأين المصير؟ ما فلسفة الوجود؟ ما فلسفة الحياة؟ طلب الإنسان إلى الحقيقة، هو الذي هداه إليها، وما من آية أصدق على هذا الموضوع من قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت الآية : 69)

أيها الأخوة، إذا طلبت الحق بصدق، واللهِ الذي لا إله هو لزوال الكون أهون عند الله من ألا تصل إليك، في أي عصر، وفي أي مصر، في عصر الفتن، في عصر الضلالات، اطلُب الحق تجده، الحقيقة ثمنها أن تطلبها صادقاً، أمية بن أبي الصلت كان يقول:

ألا نبي لنا منا فيخبرنـــا   ما بعد غايتنا من رأس مجرانا

إني أعوذ بمن حج الحجيج له   و الرافعون لدين الله أركــانا

سيدنا الصديق يقول: أليس فينا من يجمعنا على الحق بعد أن يدلنا عليه، صار هناك بحث عن الحقيقة، أما ذو العقل كما قال المتنبِّي، وقد صدق فيما قال:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

هذا إنسان العصر والصديق إنسان عصره فانظر إلى المفارقة بينهما ؟

الذين عطلوا عقولهم، واتبعوا أهواءهم، هؤلاء لا يعرفون أين هم من الحياة، أفي المقدمة ، أم في المؤخرة، أم على هامش الحياة؟ أنا أذكر بيتًا من الشِّعر هو أهجى بيت قالته العرب، ودخل الشاعر من أجله السجن في عهد عمر رضي الله عنه، وهو قول الحطيئة:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

هذا البيت ربما صار في زمن الجاهلية الثانية شعار كل إنسان، بما أن دخلك كبير، وبيتك مريح، تجارتك رابحة، أولادك في عافية تامة، ما لك وللحق، ما لك ولهذه الأمور المتعبة؟ الناس ينصحون بعضهم بعضاً، اجلسْ في بيتك أفضل لك، إذا طلب رجل العلم، وأحب أن يعرف دينه، أحب أن يكون

مع جماعة صادقة طاهرة يجد عشرات الأشخاص يحذِرونه، ويقولون له: دعك من هذا، هذا الذي يعد أهجى بيت قالته العرب، هو ديدن الإنسان المعاصر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

نحن في هذا الفصل نضع أنفسنا في الأجواء التي عاشها الصديق، إنسان عاش في الجاهلية ما شرب الخمر، ولا عبد الصنم، وهؤلاء الذين يقولون: الإنسان ابن بيئته، معطيات قاسية، بيئة فاسدة، هذا الكلام كله باطل .

الإنسان ابن نفسه :

ذات مرة قال لنا أستاذ في الجامعة: يقولون عن إنسان إنه ابن وراثته، فقال: صحيح، الإنسان ابن محيطه، صحيح، الإنسان ابن أمه وأبيه صحيح، تكلم عشرات العبارات، ولكنه بعد هذا قال: ولكن الأصح من ذلك أن الإنسان ابن نفسه، المعنى أن الإنسان يختار أحياناً، فمثلاً في بيت كله فسق وفجور يتواجد إنسان صالح، هذا الشاب الصالح الذي نشأ في بيئة فاسدة حجة على من يدعي أن الإنسان ابن بيئته، تجد أحياناً ابنًا في بيت مال لا في بيت علم، لكنه يطلب العلم، أيضاً هذا الشاب حجة على من يعتقد أن الإنسان ابن محيطه، أنت ابن نفسك يعني لك استقلالية، ولك اختيارك، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت الآية : 69)

الهم الذي كان في داخل الصديق لمعرفة الحق دليل ذلك موقفه من النبي يوم الكعبة

أيها الأخوة، كلكم يعلم في الجاهلية أن هذه الكعبة كانت قامة، كما قال الله عز وجل:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران الآية : 96)

سيدنا إبراهيم لا أقول: هو الذي أنشأها، أما أول بيت وضع للناس قاطبةً هي الكعبة، لذلك الكعبة مكان مقدس حتى في الجاهلية، فلما أرادوا إعادة بناءها اختلفت القبائل في موضوع الحجر الأسود من يحمله، ويضعه في مكانه الصحيح، ولا يغيب عن أذهانكم أن العرب في الجاهلية كانت تنشب بينهم الحروب الطاحنة التي تدوم عشرات السنين من أجل عمل تافه، ذات مرة رجل في سوق عكاظ مد رجله، وقال: مَن كان أشرف مني فليضربها، فقام إنسان وضربها، يعني قطعها، فنشأت حرب طحنت الناس عشر سنين، هنا قضية كبيرة جداً، الخلاف بين بطون قريش قد ذر قرنه، وأمية بن المغيرة، أكبر قريش حكمة وسناً، يشير على الناس أن يحكّموا أول قادم، وعليهم أن يرتضوا حكمه، سيدنا الصديق يذكر من

الذي كان أول قادم؟ قال: كان محمد الأمين عليه الصلاة والسلام هو أول من قدم على هؤلاء، وهم في زحمة خلافاتهم، قالوا: هذا الأمين محمد، نعم الحكم هو، فالنبي عليه الصلاة والسلام لو أن الناس الذين عاشوا معه وعاصروه، والله لو أنهم رأوا في سلوكه، وفي تعامله مأخذاً يسيراً لصرحوا به بعد البعثة، لكن هؤلاء ما رأوا منه إلا عفة، وطهراً ، واستقامة، وأمانة، وهكذا يجب أن يكون المؤمن، وكان الصديق يقول: نعم الحكم محمد عليه الصلاة والسلام، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان فتى شاباً، فلما رآهم مختلفين ومحتدمين وعلى وشك أن تقع فتنة بينهم عمياء، قال: هلمّوا إليّ ثوباً، فجاؤوا بثوب، فوضع الحجر به، ونادى لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ثم ارفعوه جميعاً، فاستجابوا له حتى اقترب الحجر من موضعه فأخذهُ محمد صلى الله عليه وسلم بيده، ووضعه مكانه، قال: وانتهت هذه الفتنة أسعد نهاية، فكان من الممكن أن تنذر بشر وبيل .

سيدنا الصديق لما رأى هذا الشاب الفتى، العفيف، الطاهر، الصادق، الأمين، حسم الخلاف بهذه الطريقة البسيطة فكان له قول شهير: لعل أول رجل يجيء فيحسم الخلاف مرة أخرى، ويبين للناس ما اختلفوا فيه من الحق، مرة ثانية وثالثة ورابعة .

(سيرة ابن هشام)

كان هناك تشوق وتطلُّع وترقُّب للحق، والإنسان لما ينتظر الحل يأتي الحل، إذا انتظر الفرج يأتي الفرج .

محرك الإنسان هو قناعاته التي ترسبت في كيانه وتفعلت :

لا تظنوا أن الإيمان يأتي فجأة، فهناك شيء يسمى تراكمات، تراكم قناعات، فالإنسان يتأمل، ويراقب الأحداث، ويستمع إلى الأقوال، كلما تلقى الإنسان شيئًا،خزنه في العقل الباطن، فالإنسان مثلاً عندما يحضر مجلس علم، ولا أحد يطالبه بالاستقامة، لكنه ارتاح لهذا المجلس فحضره، هذا الدرس أدّى إلى تراكمات عنده تختزن في العقل الباطن، هذه الحقائق، وهذه الأفكار الصحيحة، وتلك الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، والتعليلات، والتوجيهات، ووضع النقاط على الحروف، هذه كلها تترسب في العقل الباطن، إلى أن يكون هذا العقل الباطن إن صح التعبير أو تلك العقيدة هي الموجّه لهذا الإنسان، ويجب أن تعلم أن كل المخزون الثقافي في النهاية يتفاعل معك و يوجِّه سلوكك، هذه أخطر فكرة أذكرها لكم .

كنت مرة أضرب مثلاً طريقًا، الماء الذي يستخدمه الناس في النزهات له فتحة علوية وله صنبور سفلي، فالذي تضعه في الفتحة العلوية هو الذي تأخذه من الصنبور السفلي، فالإنسان أخطر شيء في حياته مصادر التغذية الثقافية، طالب علم يسمع يوم الاثنين، يوم الأحد، يوم السبت، يوم الجمعة في الخطبة، ببيته يقرأ كتابًا، كل مصادره الثقافية عن الحق، وعن الدين، وعن السنة، وعن الصحابة، إذا

أحب أن يتكلم، فماذا يقول؟ يتكلم الحق، أما إذا أحضرت إنسانًا آخر تغذيتُه الثقافية أخبار الفنانين والفنانات مثلاً، والمسلسلات والأعمال الفنية الرخيصة والساقطة، والمجلات التي تغذي عقول الناس، هذا الإنسان الذي تلقى هذه الثقافة لو أحب أن يتكلم، فماذا يقول؟ كما لو أنك وضعت في فتحة هذا الوعاء صنبورًا لم يعطِكَ إلا الذي وضعت فيه .

ينبغي على الإنسان أن يتزود بمعين صافي نقي لا تعكره الشوائب :

كنت أقول لكم دائماً: أنت في حياتك شئت أم أبيت ثلاثة أشخاص، واحد منهم هو أنت، شخصية تكونها، وشخصية تتمنى أن تكونها، وشخصية تكره أن تكونها، قل لي: ما الشخصية التي تتمنى أن تكونها؟ أقل لك: من أنت؟ لا يوجد إنسان قبل أن ينام إلاّ ويتصور شخصًا ما، فالباعة يتصورون أنهم تجار كبار، والمحامي الناشئ يتصور محاميًا قديم، والطبيب الناشئ يتصور نفسه طبيبًا قديمًا، كل واحد بحسب حرفته، وبحسب منبته الطبقي يتصور شخصًا أعلى منه .

أما المؤمن فليس في ذهنه إلاّ النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام، دائماً له حساب مع نفسه، لذلك أيها الأخوة، الإنسان عندما يغذي نفسه بالفكر الديني والبطولات الإسلامية، لن ينطق ولن يتكلم إلا بالحق، وتصوراته مبنية على ما سمع، يحب أن ينجد الفقير والملهوف، وأن يكون كريماً، أخلاقياً، موضوعياً، كل الفضائل أساسها هذه التغذيات الثقافية، أما خطورة الأعمال الفنية الرخيصة أن تعيش الفتاة أو هذا الفتى في أجواء الانحراف الأخلاقي، أجواء الشهوة الجسدية، فإذا أُحيط الإنسان بهذه المغذيات الهابطة فأمره كما يقول أحد الأدباء: إذا قرأت قصة أو قصيدةً، وشعرتَ أنها حركت المشاعر السفلية فأنت أمام فن رخيص، وإن مجتمعًا بأكمله يمكن أن يدمر عن طريق هذا الفن الرخيص .

نحن قبل كل شيء يجب أن نختار الزاد الثقافي، فالمساجد والحمد لله الزاد الثقافي، فيها القرآن والسنة وسيرة الصحابة الكرام، فإذا حرص الإنسان على أن يغذي نفسه بهذه الأفكار الرائعة وتلك القيم، وهذه المثل، فالكلام والسلوك يقوده إلى ما كان قد غذي به من قبل .

مقام أبي بكر بين أمته :

فهذا الفصل الأول أمضيناه في الحديث عن هذا الصحابي الجليل الذي هو أول الصحابة قاطبة، وهو الصدِّيق الذي قال عنه عليه الصلاة والسلام:

((ما ساءني أبو بكر قط))

(ورد في الأثر)

والله هذه الكلمة حينما أرددها أشعر برعشة تهزني هزًّا دون أن أتكلم أبدًا، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا وكانت له كبوة إلا أخي أبا بكر))

(ورد في الأثر)

لذلك قرأت سيرة هذا الصحابي الجليل، وهذا يقع في قمة الصحابة، أعلى درجة بالصدق والإخلاص والتفاني في حب الله عز وجل، والتفاني في خدمة رسول الله عليه الصلاة والسلام، لذلك مقامه عند رسول الله عظيم .

أخواننا الذين يذهبون إلى العمرة يقفون وقفة أما النبي ويناجونه، ثم يتنحون قليلاً، ويقفون تجاه قبر الصديق رضي الله عنه، وهناك كلام طيب يقال في حق هذا الصحابي الجليل، تشعر بسعادة لا توصف، أنت أمام الشخص الأول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال:

((سدوا كل خوخة إلا خوخة أبي بكر))

(أخرجهما البخاري ومسلم واللفظ لمسلم في الصحيح)

في الحرم المكي الشريف في جانب باب السلام لوحة في الأخضر مكتوب عليها، هذه خوخة أبي بكر، أي هنا كان بيته .

خلاصة القول :

أحاديث كثيرة جداً عن هذا الصحابي الجليل، لكن ما يعنينا أن نقف عند دقائق سيرته، وسوف نمضي معه أسبوعين أو أكثر إن شاء الله تعالى، لكن اليوم آثرت أن نبقى مع ملامح الحياة الجاهلية التي عاش بها هذا الصحابي الجليل، وكيف أنه بعقله الراجح وفطرته السليمة ما عبد صنماً ولا شرب خمراً؟ وكان ينتظر هذه البعثة على أحرَّ من الجمر، وكان صديقاً وفياً للنبي عليه الصلاة والسلام، وبينت لكم كيف كان في الجاهلية بعض الرجال على دين إبراهيم، وكيف أن العقل يهديك لله عز وجل وأن الفطرة تحجزك عن المعصية والسقوط .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا أبو بكر الصديق - الدرس (2-5) : دخوله في الإسلام ومصداقيته مع النبي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-03-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

المعدن الذي انطوى عليه الصديق في الجاهلية وسما فيه في الدين الحنيف :

أيها الأخوة، مع الدرس الثاني من سيرة سيدنا الصديق رضي الله عنه وأرضاه، هذا الصحابي الجليل هو الصحابي الأول، لذلك إذا قرأتم سيرته يمكن أن يكون قدوة لأي مؤمن في طريق الإيمان، فكان في نفسه تساؤل مستمر، تساؤل عن الحق، تساؤل عن الهدى، فكان هذا الصحابي الجليل صديق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعنى ذلك أنه قريب جداً منه، كلما ارتفع مستوى الرجل إلى مستوى صنوه صار صديقاً له، النبي عليه الصلاة والسلام في حديث صحيح عَنْ عَمَّارٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

" خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا "

(أخرجهما البخاري ومسلم عن أبي هريرة في الصحيح)

مكارم الأخلاق في الجاهلية :

هذه الأمة العربية التي اختارها الله لتكون أمة وسطاً، هذه الأمة وهي في جاهليتها تنطوي على مكارم للأخلاق، فقد كان حاتم الطائي وهو من سادة العرب في الجاهلية يقول لغلامه :

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قـرٌّ والرِّيحَ يَا مُوقِدُ رِيحٌ صِرُّ

عَسَى يَرَى نَارَكَ مَنْ يَمُـرُّ إِنْ جَلَبْتَ ضَيْفًا فَأَنْتَ حُـرُّ

أي إن جئتني بضيف، ومكنتني من إكرامه، فأنت حر، فبعضهم يوقد النيران الشاهقة في الليل كي يستدل بها الضيوف على مكان القِرى والإكرام، والعرب في الجاهلية كانوا يكرمون الضيف ، وينصرون المظلوم، ويعينون على نوائب الدهر فلديهم مكارم أخلاقية حقاً .

أيها الأخوة، العرب في الجاهلية كانت لهم أشهر حرم، أنا لا أنسى أنه كانت لهم نواقض كثيرة، لكن هناك مكارم أخلاق رغم الجاهلية التي كانوا يعانون منها

" خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا " .

(أخرجهما البخاري ومسلم عن أبي هريرة في الصحيح)

ففي هذه الأشهر الحرم تتحوّل السيوف إلى أغصان، وتتوقف الحروب، ويتوقف سفك الدماء، هذه ميزة كانت عندهم، بينما نسمع الآن أن الحرب دامت ثلاثة عشر عامًا، وحروب أهلية لا تبقِي ولا تذر .

موقف العلماء من الرؤيا التي رآها الصديق في منامه :

كان الصدِّيق عليه رضوان الله في قِمَّة هذه النماذج التي عاشت في الجاهلية، والتي جاءها الإسلام، وهي على نقاء فطري، هذا الصحابي الجليل كما قلت لكم: لم يشرب خمراً، ولم يعبد صنماً، وكان في مخيلته تساؤل كبير عن الحق الذي يعد شفاء للنفوس، كان مرة في بلاد الشام في عمل تجاري، وقبل أن يغادر الشام إلى بلده مكة رأى رؤيا، رأى قمراً قد غادر مكانه في الأفق الأعلى، ونزل على مكة حيث تجزأ إلى قطع وأجزاء، تفرقت في جميع منازل مكة وبيوتها، ثم تضامنت هذه الأجزاء مرة أخرى، وعاد القمر إلى كيانه الأول، واستقر في حجر أبي بكر، صحا هذا الصديق من نومه، وقد رأى هذه الرؤيا، فسار إلى أحد الرهبان المتقين الذين ألفهم، وعقد معهم صلات بالشام، وقص عليه الرؤيا، فتهلل وجه الراهب الصالح، وقال لأبي بكر : لقد أهلَّتْ أيامُه، قال: من تعني؟ قال: النبي الذي يُنتَظَر، ويجيبه الراهب: نعم، وستؤمن معه، وستكون أسعد الناس به .

هذه يسميها علماء السيرة إرهاصات، والأشياء الجليلة العظيمة لا بد لها من إشارات تؤكد قدومها، وتبشر بها، سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كلم الله في المهد قال: إني عبد الله، فلما كبر، وأرسله الله رسولاً لقومه، تذكروا أن هذا الغلام هو الذي تكلم في مهده، فالمعجزات التي تظهر على أيدي الأنبياء في وقت مبكر جداً من إرسالهم للناس ليست معجزات بالمعنى الدقيق، ولكنها كما يقولون علماء السيرة: إرهاصات، وحينما يبعث النبي برسالته إلى أمته يذكر الناس أن لهذا الإنسان وضعاً خاصاً حينما كان صغيراً، فيربطون بين الحدث القديم وبين البعثة الجديدة، وهذا الربط لديهم مما يؤكد أن العناية الإلهية اختارت هذا الرجل ليكون نبياً، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

(سورة طه الآية : 39)

هذه الإرهاصات تؤكد للناس صدق بعثة الأنبياء .

فسيدنا الصديق يحتل مرتبة الصديقية، حينما تقرؤون سيرته ستجدون فيها ما لا يصدق ، الحب الذي ينطوي عليه هذا الصحابي الجليل للنبي يكاد لا يصدق، المؤاثرة، التضحية، الولاء ، الفهم، الإدراك في أعلى مستوى، وهذه القدرات الفذّة التي يمنحها الله للمؤمنين تقابل صدقهم في طلب الحقيقة .

كلما اشتد صدقك في طلب الحقيقة منحك الله قدرات استثنائية تعينك على تحقيق مطلبك في الحياة، إذاً: هذه كانت بالمعنى الدقيق إرهاصات لظهور النبي عليه الصلاة والسلام .

الخبر الذي ضج به أهل مكة وتصديق الصديق له :

سيدنا الصديق كان مسافراً، وعاد إلى مكة المكرمة، لكن هذه المرة عاد إلى مكة المكرمة، وفيها حدث جلل، وفيها أمر عظيم، وفيها خبر يدوي الأرجاء، ما هذا الخبر؟ اقترب أبو بكر من مكة المكرمة فشعر أن فيها حدثًا لم يكن حينما غادرها، فلما دخل مكة، وقابل أصدقاءه تقدمهم أبو جهل وتعانقا، وبدأ أبو جهل يقول: أو حدَّثوك عن صاحبك يا عتيق، سيدنا الصديق كان اسمه في الجاهلية عتيقًا، فأجابه أبو بكر: ماذا تعني؟ فقال أبو جهل: أعني يتيم بني هاشم، قال أبو بكر: تعني محمداً الأمين، ودار حوار سريع بين أبي جهل وبين الصديق، قال: سمعت أنت ما يقول يا عمرو بن هشام؟ قال : نعم سمعته، وسمعه الناس جميعاً، قال: وماذا يقول ؟ قال: يقول إن في السماء إلهاً، أرسله إلينا لنعبده، ونترك ما كان يعبد آباؤنا، ثم إنّ سيدنا الصديق سأل أو قال: إن الله أوحى إليه؟ قال أبو جهل: أجل، قال الصديق: ألم يقل كيف كلمه ربُّه؟ قال أبو جهل: إن جبريل أتاه في غار حراء، وتألق وجه أبي بكر كأنه الشمس، قال في هدوء وسكينة: إن كان قال هذا: فقد صدق .

الأسباب التي دعت الصديق إلى تصديق خبر السماء :

1- شكه في طلب الحقيقة الذي وصل به إلى اليقين خلال البحث عنها :

الفصل كله حول هذه الكلمة، إن كان قال هذا: فقد صدق، ولهذه الأسباب سمي الصديق، لأن يقينه بصدق محمد عليه الصلاة والسلام فوق الشك، إنسان عاش أربعين سنة ما جرب الناس عليه كذبة قط، إنسان عاش أربعين سنة ما جرب الناس عليه خيانة قط، مثل هذا الإنسان يصدق إذا قال، طبعاً أبو جهل ما توقع هذا الموقف الهادئ، ولا هذا التصديق، هو يظن أنه سيلقي على أذني أبي بكر خبراً صاعقاً، يظن أنه سيفصم عرا المودة بينه وبين النبي، وإذ بهذا الصديق يصدق النبي عليه الصلاة والسلام، إن قال هذا: فقد صدق .

قصد أبو بكر داره ليرى أهله، وينفض عنه تعب السفر، وبعدها يقضي الله أمراً كان مفعولا، ثم إنّ سيدنا الصديق أراد أن يتصل بالنبي عليه الصلاة والسلام اتصالاً مباشراً، وهو يعرفه معرفة جيدة، حينما كان النبي عليه الصلاة والسلام طفلاً صغيراً، وقد دعاه أصدقاؤه للعب كما يلعب الأطفال عادة،

كان يقول عليه الصلاة والسلام وهو طفل صغير: أنا لم أُخلَق لهذا، وهو في سنِّ حياته الأولى كان واعياً للمهمة الكبرى التي تنتظره .

التلازم الحتمي بين المبدأ والسلوك ينتج عنهما حركة صحيحة في الحياة :

أقول لكم هذه الحقيقة: أنّ الإنسان المستقيم الشريف، الطاهر الصادق، الأمين، من كانت أخلاقه هكذا، إذا تكلم فحري به أن يكون صادقاً، والانحراف السلوكي دائمًا يقابله انحراف عقائدي، هذه حقيقة مقطوع بها، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

(سورة الماعون الآية : 1)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص الآية : 50)

هناك تلازم ضروري حتمي بين التدين الصحيح وبين الخلق الكريم، فإن رأيت فكراً نيراً، وعقلاً راجحاً، وكلاماً سديداً، ورأياً صحيحاً، فظن بغلبة الظن أن صاحب هذا الكلام السديد وذاك العقل الراجح إنسان مستقيم، وإن رأيت استقامة وورعاً، وطهراً، وصدقاً، وأمانة، فظن بغلبة الظن أن صاحب هذه الأخلاق الرفيعة إنسان مبادئه صحيحة، اعتقدْ هذا الاعتقاد، هناك تلازم ضروري وحتمي بين سلامة السلوك وسلامة الفكر، بين سلامة العقيدة والمبدأ .

2- معرفة هذا النبي العدنان عليه الصلاة والسلام لخبرته فيه :

سيدنا الصديق عاش مع النبي عمراً مديداً، جاءته الرسالة في الأربعين، وكان هو في الثامنة والثلاثين، متقارب في سنه مع سن النبي، عاش معه ردحاً من الزمن ، الذي لا يكذب لا يخون، هذا الإنسان إذا قال: فقد صدق، وفي القرآن الكريم هناك بعض الإشارات، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

(سورة العلق الآية : 9-10)

الآية انتهت، كيف تنتهي الآية، ولم يأت الجواب؟ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى، الجواب: أي انظر إلى أخلاقه، انظر إلى دناءته، انظر إلى اقترافه الآثام، انظر إلى انحرافه السلوكي قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

(سورة العلق الآية :11-12)

انظر إلى استقامته، هذا التلازم مهم جداً، لعل هذا التلازم هو موضوع هذا الفصل .

سيدنا الصديق لم يبادر متعجلاً، وقال: لقد صدق، إلا لأنه خبير بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لذلك اعتقدوا أيها الأخوة، وهذا من عقيدة المسلم، إن الأنبياء معصومون قبل الرسالة ، ولو لم يكونوا معصومين قبل الرسالة لشَكَّ الناس في دعوتهم، لأنهم صنعوا على عين الله عز وجل، ولأنهم هيؤوا لهذه المهمة العظيمة .

العبرة التي استعبر بها النبي من موقف الصديق من الرسالة :

سيدنا الصديق انتقل من بيته بعد أن نفض عنه وعثاء السفر، وتوجه إلى بيت النبي عليه الصلاة والسلام، وجرى حديث بينهما في سرعة الضوء وصفائه، قال أبو بكر: أصحيح ما أنبأني به القوم يا أخا العرب، ولم يكن رسولَ الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ماذا أنبؤوك؟ قالوا: إن الله أرسلك إلينا لنعبده ولا نشرك به شيئا، قال: وما كان جوابك لهم يا عتيق؟ قلت لهم: إن قال هذا: فقد صدق، يروي كتاب السيرة أنه فاضت عينا رسول الله من الدمع غبطةً وشكراً، لأنه هو يظن أن هذا الإنسان هو أول من يصدقه، وقد تحقق ظنه، لما فاضت عينا النبي بالدموع غبطةً وشكراً عانق صاحبه، وقبل جبينه، ومضى يحدثه كيف جاءه الوحي في غار حراء؟ قال تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

(سورة العلق الآية : 1-5)

ما كان من هذا الصحابي الجليل بعد أن قبله النبي وبكى إلا أن شد بكلتا يديه على يد صاحبه، وصافح بهما النبي عليه الصلاة والسلام وقال: أشهد أنك صادق أمين، وأشهد أنه لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

ما دعوت أحداً إلى الإسلام قط إلا كانت له كبوة إلا أخي أبا بكر .

(ورد في الأثر)

المؤمن عضده أخيه في نشر الحق :

أيها الأخ الكريم عندما تصدق الحق، وعندما تعين على نشر الحق، وعندما توظف إمكاناتك في نشر الحق فهذا عمل عظيم، الداعية إنسان ضعيف، لكنه قوي بأخوانه، قوي بمَن يأخذ بيد الآخرين معه إلى الله ورسوله، فعندما يلتف الإنسانُ حوله، ويجد رجالاً بكل معنى الكلمة، أشداء، ورعين، متحفزين، مضحين، مستعدين أن يقدموا الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، من أجل هذه العقيدة السمحاء، هذا

شيء يثلج صدر أي داعية، طبعاً النبي عليه الصلاة والسلام هو سيد الخلق وحبيب الحق، يعني إن لم تكن داعية، فكن معيناً ونصيراً للدعاة، لا تكن في خندق معاد لأهل الحق، كن مع أهل الحق، دائماً الجماعة المؤمنة كلها مرحومة، وكل واحد له دور، ما قيمة الزوج، وماله الوفير من دون زوجة تربي، وتنجب، وتطبخ، وتقدم المعونات والخدمات لأفراد الأسرة؟ الابن له دور، والزوج له دور، فهذه أسرة، وجماعة المؤمنين أسرة، لا أحد أفضل من أحد في الأسرة الواحدة، أسرة بمعنى الكلمة، كلهم متعاونون على تحقيق الهدف الكبير الذي من أجله جاءت هذه الرسالة .

موقف السيدة خديجة زوجة النبي من الرسالة :

هناك شاهد آخر، يؤكد مدى الترابط بين صدق الدعوة وبين الأخلاق العالية، وهذا الشاهد الفطرة، السيدة خديجة من علّمها؟ ما درستْ في الجامعة، ولا تخرجتْ مِن كلية شرعية في العالم الإسلامي؟ حينما أنبأها النبي عليه الصلاة والسلام بأن الوحي قد جاءه، بماذا أخبرته؟

قالت: " والله لن يخزيك الله أبداً، إنك تقري الضيف، وتحمل الكل، وتعين على نوائب الدهر"

(أخرجه البخاري عن عائشة في الصحيح)

ربطت بين صدقه وبين أخلاقه، وهذا هو الشاهد الفطري من دون تعقيدات، فالإنسان الصادق، الورع، الأمين، المتواضع، أغلب الظن أنّ كلامه حق، والذي كلامه يغذي العقل أغلب الظن يكون مستقيمًا، فهناك تلازم .

انظر إلى أخلاق النبي اتجاه الصديق لم ينس فضله والأحاديث التي وردت في حقه :

استمعوا أيها الأخوة إلى بعض ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام في حق هذا الصحابي:

" ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه بها ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً أرجو الله أن يكافئه بها يوم القيامة " .

(ورد في الأثر)

قال عليه الصلاة والسلام:

" ما نفعني مال قط مثل ما نفعني مال أبي بكر " .

(ورد في الأثر)

قال:

" وما عرضت الإسلام على أحد إلا وكانت له كبوة عدا أبي بكر فإنه لم يتلعثم ".

(ورد في الأثر)

فعَن ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:

" خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِبًا رَأْسَهُ فِي خِرْقَةٍ فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ خُلَّةُ الإِسْلامِ أَفْضَلُ سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ "

(أخرجه البخاري عن ابن عباس في الصحيح)

" ما ساءني قط فاعرفوا له ذلك "

(ورد في الأثر)

فهذه أقوال صحيحة قالها النبي عليه الصلاة والسلام عن سيدنا الصديق، وهناك أقوال أخرى .

وموقفه أيضاً من الأنصار لم ينس فضلهم وإليكم حديثه إليهم :

والنبي عليه الصلاة والسلام عندما انتهى من وقعة حنين، وكان عليه الصلاة والسلام في أوجّ قوته، بلغه أن بعض الأنصار قد وجدوا عليه في أنفسهم، يعني في منطق العصر ممكن القوي يلغي وجود المنتقدين إلغاء، ويمكن للقوي أن يهدر كرامتهم، فلو أن النبي قال في حقهم: إنهم منافقون لا نتهوا، ومن الممكن أن يهملهم، ومن الممكن أن يعاتبهم، ماذا فعل عليه الصلاة والسلام وهو في أوج قوته؟ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:

" لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ قَالَ فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي وَمَا أَنَا قَالَ فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ قَالَ فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ قَالَ فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ قَالَ فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ قَالُوا بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ قَالَ أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ قَالُوا وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ قَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ

وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا "

(أخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري في مسنده)

ذكرهم بفضلهم عليه .

من مقام النبوة الإنصاف :

قال لسيدنا معاذ: واللهِ يا معاذ إني لأحبك، أحد أخوانا العلماء يعد كتيبًا لطيفًا عن أقوال النبي في أصحابه، وهذه الأقوال من كتب السيرة كلها .

أبو عبيدة أمين هذه الأمة، خالد سيف من سيوف الله، ارمِ سعد فداك أبي وأمي، لو كان نبي من بعدي لكان عمر، فما من صحابي إلا ذكره عنه النبي بكلامٍ أنصفه، وأعطاه حقه، هذه من عظمة النبي، مع أنه هو أعظمهم، وأرقاهم عند الله، وهو البطل الأوحد، ومع ذلك ما نسي مَن حوله، وما نسي البطولات التي حوله، مع أنها إذا قيست إليه فلا تعدل شيئًا، ومع ذلك أبرَزَها، وهذا من الإنصاف .

ينبغي على المسلم أن لا ينسى فضل أخيه عليه متأسياً بالنبي بهذا الخلق :

أيها الأخ الكريم، خدمك أخ، أكرمك، أعطاك، دلك على الله، زوجك، قدم لك شيئًا ثمينًا، فإياك أن تنسى فضله، فمن لؤم الأصل أن تنسى فضله، أما إذا صنعت معروفاً فعليك أن تنسى ما صنعتَ، فالكلمة الطيبة صدقة، أحدهم قدم لك خدمة، وشاهدته بعد أسبوع، فقل له: جزاك الله الخير، أنا والله لا أنسى فضلك، شجِّعه، هناك شخص يتلقى خدمات الآخرين، ويتلقى المعروف وهو ساكت، وكأن هذه الخدمات ضريبة عليهم أن يؤدوها له .

يا أيها الأخوة، من فظاظة الإنسان ومِن ضحالته، يقول لك: أنا لا أحد له فضل عليّ إلا الله، وهذه كلمة حق أريد بها باطل، صحيح أنّ لله المنة والفضل، ولكن لا تنسَ قول النبي عليه الصلاة والسلام:

" مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ "

(أخرجه الترمذي عَنْ أبي هُرَيْرَةَ في سننه)

وكذلك اللؤم والجحود ونكران الجميل هذا من طبع اللئام، قال الشاعر:

حر ومذهب كل حر مذهبـي ما كنت بالغاوي ولا المتعصب

يأبى فؤادي أن يميل إلى الأذى حب الأذية من طباع العقـرب

لي أن أرد مساءة بمســاءة لو أنني أرضى ببرق خـلب

حسب المسيء شعوره ومقـاله في سره يا ليتني لم أذ نــب

إذا لم ير الإنسان فضلَ أبيه عليه، وفضلَ أمه، وفضلَ أصدقائه الذين قدّموا له المعونة يوم العسرة، وفضل الذي دلّه على الله، وفضلَ الذي أكرمه، وفضل الذي زوجه فهو جاحد، بعض الناس قد يتطاول على عمه، هذا عمك الذي ربا لك زوجتك، فهل هو مِن سنك؟ هذا أب لك، والآباء ثلاثة: أب أنجبك، وأب زوّجك، وأب دلّك على الله، وفارقُ السنِّ مهم جداً .

انظر المفارقة بين أخلاق النبوة وأخلاق العظماء في الحياة ؟

ليس مِن صحابي من أصحاب رسول الله من دون استثناء إلا وذكره النبي بما يستحق، هذه من عظمة النبي عليه الصلاة والسلام، فأخلاقه وعظمته، وبطولته كالشمس في رابعة النهار ، لكن شأن العظماء في الحياة غير الأنبياء والمؤمنين، من عادتهم أنهم إذا ظهروا، أي تألقوا ووصلوا إلى قمة النجاح، لا يسمحون لأحد معهم أن يظهر، لكن النبي عليه الصلاة والسلام هو الذي أظهر أصحابه .

انظر إلى الحب العجيب الغريب الذي توقد في قلب الصديق اتجاه النبي ؟

يقول عليه الصلاة والسلام:

"ما نفعني مال قط مثل ما نفعني مال أبي بكر ".

(ورد في الأثر)

سيدنا الصديق أعطاه كل ماله، وما قبل النبي مال أحد كله إلا مال الصديق، من سيدنا عمر لم يقبل إلا نصف ماله، قد تنشأ علاقة بين شخصين يتحابان في الله، نابعة مِن علاقة إيمانية، صدقوا أيها الأخوة، إنّ الفوارق تتلاشى، المال واحد، والهموم واحدة، والفرح واحد، والحزن واحد، أحياناً تشتد العلاقة بين المؤمنين لدرجة أن الملكية تتلاشى، يقول: مالي ومالك واحد.

سيدنا الصديق بلغ من حبه للنبي عليه الصلاة والسلام حداً لم يعُدْ يرى أنّ له مالاً إطلاقاً، قال له: يا أبا بكر، ماذا أبقيت لنفسك؟ قال: أبْقيتُ لها الله ورسوله، هذا هو الإيمان العالي ، كلما ارتقى إيمانكم أحببْتم

بعضكم بعضاً، وإنّ الحسد من ضعف الإيمان، وتراشق التهم من ضعف الإيمان، وأن تتمنى أن تزول عن أخيك النعمة من ضعف الإيمان .

شعار المؤمن الواحد للجميع والمجموع لواحد :

أقدِم لك مقياسًا دقيقًا جداً ، يوجد بين المؤمنين أخ قريبًا منك دائما ولا ينافسك، إذا كنت طالبَ علم فلا ينافسك تاجر، أنت في حقل، وهو في حقل آخر، أما تاجران في مصلحة واحدة، وطالبان في مدرسة واحدة، إذا كان بينهما تماثل وجدتَ تنافسًا، فانظر إلى نفسك إن جاء لأخيك خير وفرحتَ له، وكأن هذا الخير جاء إليك، فأنت مؤمن وربِّ الكعبة، أمّا إذا حسدته وتمنيت زوالَ النعمة عنه، فاعلمْ أنك منافق قطعاً ويقيناً، لقول الله عز وجل:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

(سورة التوبة الآية : 50)

وكلما فرحت لأخيك إذا تسلَّم منصبًا رفيعًا، أو نال شهادة عالية، أو تزوج، أو اشترى بيتًا، أو اشترى مركبة صغيرة، افرح له، هذا أخوك، وقد صار أقوى منك، وقوته لكل المؤمنين، وشعار المؤمنين، الواحد للجميع، والمجموع للواحد، كلنا لواحد منكم، وأنت أيها الأخ لنا جميعاً، أنت وإمكانياتك وقدرتك وعضلاتك ومالك للجماعة كلها .

ما عرف الصديق أنه أساء إلى النبي ولو بكلمة :

على مدى سنوات هذه الصحبة ما وردت منه كلمة تسيء للنبي عليه الصلاة والسلام، وما زال أهل مكة يكذبون النبيَّ، ويبخسون دعوته، ويتهمونه بالكذب تارة، وبالجنون تارة أخرى ويتهمونه بأنه كاهن وأنه شاعر، وفي زحمة هذه الاتهامات، وفي زحمة هذه المعارضات أسرى الله به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء، أنا أظن أن النبي عليه الصلاة والسلام لو كان الأمر باختياره لتمنى ألف مرة أن يسكت عن إسرائه ومعراجه لأنه من دون أن يسري به إلى بيت المقدس، ومن دون أن يعرج به إلى السماء الناس يكذبونه، فكيف إذا حدثهم بالإسراء والمعراج؟ .

دليل ذلك يوم حادثة الإسراء والمعراج :

دققوا في هذه القصة، كان أبو جهل ذاهباً لبعض شأنه حين مر بالكعبة، فأبصر النبي صلى الله عليه وسلم جالساً وحده في المسجد الحرام، صامتاً مفكراً، وأراد أبو جهل أن يؤذي النبي عليه الصلاة

والسلام ببعض سخرياته، فاقترب منه وسأله، أولم يأتك الليلة شيء جديد؟ فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه، وأجاب في جد: نَعَم، أُسري بي الليلة إلى بيت المقدس في الشام، فقال أبو جهل مستنكراً: وأصبحتَ بين أظهرنا، طبعاً كل عصر له معطياته، الآن مثلاً سهل جداً أن تركب الطائرة من جدة الساعة التاسعة، وتكون الساعة العاشرة في الشام، لكن تصوروا العصر الذي عاش فيه النبي بين مكة وبيت المقدس، أعتقد أنّ المسافة كانت شهرًا أو شهرين مِن ركوب الناقة، وهنا صاح أبو جهل في جنون: يا بني كعب هلموا، وأقبلت قريش ينادي بعضها بعضاً، فماذا حل بالنبي؟ وهو مأمور أن يبلغ الناس أنه أسري به، من دون إسراء لم ينته منهم، وهو مكذَّب، فكيف بالإسراء والمعراج؟ ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر أحداً من أصحابه بنبأ الإسراء بعدُ، فتجمع الناس عند الكعبة، ومضى أبو جهل يحدثهم في حبور بما سمع، وقد ظنها الفرصة المواتية التي عندها سينفض الناس عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأنّ أمْر النبي انتهى إلى الأبد، لكن الذي انتهى وصار في مزبلة التاريخ أبو جهل وأبو لهبٍ وأمثالهما، قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد الآية : 1)

هؤلاء الذين عارضوا النبي أين هم الآن؟ وتقدم واحد من المسلمين وسأل النبي:

يا رسول الله أحقاً أسري بك الليلة؟ فقال النبي: نعم، وصليت بأخواني الأنبياء هناك، وهذه أفظع أيضاً، وسرى في الجمع المحتشد خليط متنافر من المشاعر المهتاجة، ورحب المشركون بما سمعوا أشد الترحيب، ثم وصل هذا الجمع الغفير إلى دار أبي بكر، وقالوا له: هذا صاحبك، وهذا الذي تقول عنه: الصادق الأمين، والذي تظن به خيراً، تعال واسمع هذا الخبر يا عتيق، وخرج أبو بكر دهشاً تجمله السكينة والوقار، وسألهم: ماذا وراءكم؟ قالوا: صاحبك، قال: ويحكم هل أصابه سوء؟ مِن شدَّة حبه له، وتراجع القوم، وقالوا: لا، إنه هناك عند الكعبة يحدث الناس أن ربه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس، وتقدّم آخر يكمل الحديث ساخراً، ذهب ليلاً وعاد ليلاً وأصبح بين أظهرنا، فأجابهم أبو بكر، وقد تهلل وجهه: أي بأس في هذا؟ إني لأصدقه فيما أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء يأتيه في غدوة أو روحة، إن كان قال هذا: فقد صدق .

(أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح)

هو الصديق أدرك إدراكًا عظيمًا، هذا الذي خلق السموات والأرض، وأنزل عليه جبريل من فوق سبع سموات، الذي فعل هذا بإمكانه أن يأخذه إلى بيت المقدس، وأن يعيده في ليلة واحدة، ما هذا اليقين؟ هذا يقين الصدِّيقية، سيدنا علي، يقول: والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، المؤمن كلما ارتقى إيمانه يصبح هو والحقائق وجهاً لوجه، يعني يقينه بالحق الذي يؤمن به أقوى من وجوده .

سيدنا الصديق ليس عنده مشكلة، كيف ذهب؟ وكيف عاد؟ عقله الراجح، وخبرته بالنبي عليه الصلاة والسلام يقينية، ويبدو أن نظره في هذا الكون العظيم، والذي خلق هذا الكون قادر على أن يأخذه، ويعيده في ليلة واحدة، وهرول أبو بكر إلى الكعبة حيث الرسول صلى الله عليه وسلم، وعند الكعبة رأى الجمع الشامت المرتاب متحلقين، ورأى نور الله هناك في جلسته الخاشعة مستقبلاً الكعبة لا يحس بهذا اللغط من حوله، ولا يسمع للقوم ركزا، وانطرح أبو بكر عليه يعانقه، ويقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، والله إنك لصادق، والله إنك لصادق، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام من تكريم الله له أنه أحاطه بهؤلاء الأصحاب .

فكلما كان أصحابك من علية القوم صدقاً، وأمانة، وورعاً، ووفاءً، وبذلاً، وتضحية، فأنت عند الله في مكان رفيع، و كلما كان الذين من حولك مقصرين مترددين متشككين متخاذلين أحياناً ، فهذه علامة ضعف إيمانك .

للصديق مواقف أيضاً كثيرة يشهدها الإسلام وأهله في مواطن المحن و الأزمات :

الحقيقة هذا الصحابي الجليل له مواقف، فربنا يبتلي المؤمنين، وأحياناً بعض الشدائد لا يصمد لها إلا من كان في القمة، فالدعوة الإسلامية مرت بمحن وأزمات لم يصمد لها إلا الصديق وحده، ففي الحديبية رأى سيدنا عمر في هذا الاتفاق، وهذا الصلح مهانة للمسلمين بعد أن ذهب المشركون، ومعهم هديهم معلنين أنهم لا يبتغون حرباً، وافق النبي مع سهيل بن عمرو أن يرجع هذا العام عند عزمه دخول مكة معتمرا، ووافق النبي على أن الذي يأتيهم من قريش مسلماً يجب أن يرد إليهم، أما الذي يرتد من المسلمين ينبغي ألا يعود إليهم، إذًا: فهو اتفاق مهين في نظر سيدنا عمر، فذهب إليه و قال:

يا رسول الله، يا نبي الله، ألستَ نبي الله حقاً؟ قال: بلى يا عمر، قال: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا؟ فقال عليه الصلاة و السلام: يا عمر إني رسول الله، و لست أعصيه، وهو ناصري، أي الذي فعلته ليس من اجتهادي، بل هو تنفيذ لأمر الله، قال عمر: أو لمْ تَعِدْنا يا رسول الله بأننا سنأتي البيت، ونطوف به، فقال النبي: أو قلت لكم هذا العام يا عمر؟ أقلت لكم هذا العام تحديداً؟ قال عمر: لا، قال النبي عليه الصلاة والسلام: فإنك آتيه ومطوِّف به ، لكن سيدنا عمر لا يزال يغلي، اتفاق مهين، نحن أعزة و مسلمون، والنبي عليه الصلاة والسلام نبي مرسل، فلماذا هذا الاتفاق المهين؟ فذهب إلى سيدنا الصديق، وألقى عليه الأسئلة نفسها، قال : فأخذ أبو بكر بيدي، و جذبها في قوة، وقال لي: أيها الرجل إنه رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولن يعصيه، وإن الله ناصره، فاستمسك بغرزه، فو الله إنه على حق، فأنزل الله السكينة على قلبي، و علمت أنه الحق .

(متفق عليه ، البخاري ومسلم في الصحيح)

عملاق الإسلام عندما يتزلزل كان ملاذه الصديق، إذاً: هناك امتحانات صعبة، كبار الصحابة اهتزوا لها، لكن الصديق بقي ثابتا، و هناك امتحان صعب آخر هزّ سيدنا الصديق، لكن النبي بقي ثابتاً، أين هذا؟ في الغار، فالنبي قمة المجتمع الإسلامي، قال له: لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا، قال: يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا، ثقة النبي بنصر الله شيء لا يصدق، وهو على وشك أن يقضي عليه الكفار كما في ظاهر الأمر، وهناك شيء أدق من ذلك، عندما كان في الهجرة، ولحقه سراقة، والنبي مهدور الدم وملاحق، ومع ذلك يقول له: يا سراقة كيف بك إذا لبست سواريْ كسرى؟ أي إنّ النبي سيصل إلى المدينة سالماً، و سينشئ دولة، وسيحارب الفرس، وسينتصر عليهم، وسيأتي بغنائم كسرى، وسوف يلبسها سراقة ، وهذه ثقة النبي بنصر الله عز وجل .

موقفه أيضاً الخطير والأعظم يوم وفاة الرسول :

لكن الموقف الذي لا ينسى، والذي عصم الله به المسلمين من الشتات يوم توفي النبي عليه الصلاة و السلام، أنا أعتقد أنه ما من أحد على وجه الأرض يحب النبي عليه الصلاة و السلام كما يحبه الصديق، و مع ذلك فإنّ هذا الخبر، خبر موت النبي عليه الصلاة و السلام لم يحتمله أحد من أصحاب رسول الله، فسيدنا عمر كذبه، وسيدنا الصديق كان في بعض شأنه في طرف المدينة يوم توفي النبي عليه الصلاة والسلام، سيدنا عمر حينما علِم بنبأ الوفاة، قال كلاماً اختل توازنه: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات، وإنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، والله ليرجعنَّ رسول الله فليقطعنّ أيدي رجال زعموا أنه مات، ألا لا أسمع أحداً، من يقول: إنه مات إلا فلقت هامته بسيفي هذا، هذا موقف سيدنا عمر ، شيء غير معقول، أيموت رسول الله؟

أما سيدنا الصديق وهو في طريق العودة إلى مسجد النبي عليه الصلاة والسلام سمع النبأ في الطريق،

فقال: لا حول و لا قوة إلا بالله، ولم يكلم الناس، ودخل على النبي عليه السلام، وهو مسجى في ناحية البيت عليه بردة حبرة، فكشف عن وجهه ، ثم قبَّله، وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، طبتَ حياً وميتاً، إن الموتة التي كتبها الله عليك قد متها (1) .

(أخرجهما البخاري ومسلم واللفظ للبخاري)

ثم خرج وعمر يكلم الناس، فدعاه للسكوت فأبى أن يسكت، وتابع عمرُ كلامه، فقال الصدِّيق: أيها الناس، فلما رأى الناس الصدِّيق يتكلم أنصتوا، وأقبل على الناس يكلمهم، فحمد الله، وأثنى عليه، فأنْ تحب إنساناً إلى درجة تفوق حدَّ الخيال، وتوحد الله إلى درجة تفوق حد الخيال، الجمع بين التوحيد و بين الحب، ليس أمرًا سهلاً، فأكثر الناس إذا أحب يشرك، وإذا وقع في الحب، وقع في الشرك، و إذا وقع في التوحيد، وقع في الجفوة، وأحياناً شخص عادي، داعية يزداد الحبّ له لدرجة أن أتباعه ينسون

الله عز وجل من أجله، وقعوا في الشرك، و هم لا يشعرون، و إذا تعلم الشخصُ التوحيد بشكل فيه جفاء، تجده فظًّا غليظًا، وكلاهما غلط، لكن سيدنا الصديق وهو في أعلى درجات الحب ما غابت عنه حقائق التوحيد، قال أيها الناس: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، فهو واقعي وعاقل ومتماسك القلب والنفس، ومَن كان يعبد اللهَ فإن الله حي لا يموت، والأصل هو الله، الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

(سورة آل عمران الآية : 144)

قال:

فو الله لكأن الناس يسمعون هذه الآية أول مرة في حياتهم، أما عمر فقد وقع على الأرض حين علم أن كلمات أبي بكر تؤكد أنه قد مات (2).

(رواه ابن اسحاق وغيره ، كما روى البخاري نحوه بألفاظ مختلفة)

هذا الموقف الذي لا يُنسى لأبي بكر، وهو يجمع قمة التوحيد مع قمة الوفاء، فلذلك يجب أن توحدوا، وأن تكونوا أوفياء في الوقت نفسه، وإذا حملكم التوحيد على الجفوة، فليس هذا هو التوحيد الذي أراده الله، و إذا حملتكم المحبة و الوفاء على الشرك، فليست هذه المحبة التي أرادها الله عز وجل، اجعلوا من هذا الصحابي الجليل الصديق العظيم قدوة، كان في أعلى درجات الحب و الوفاء للنبي، وفي أعلى درجات التوحيد، فما عبده من دون الله، ولا أشركه مع الله، لكنه أحبه حباً ما أحبه أحد من العالمين، لا تنس أن الله هو كل شيء .

قال الصديق للسيدة عائشة: قومي إلى رسول الله، بعد التبرئة من الإفك، فقالت: والله لا أقوم إلا لله، فتبسَّم النبي، وقال: عرفت الحق لأهله، لم ينزعج إطلاقاً، فيجب أن تجمع بين الوفاء و التوحيد، و ألاّ يحملك الوفاء على الشرك، و ألا يحملك التوحيد على إنكار الجميل .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا أبو بكر الصديق - الدرس (3-5) : خلافته وإخلاصه في الخلافة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-04-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

ينبغي على المسلم أن يكون بين محتوياته سيرة الصحابة الذي نص عليهم الكتاب :

أيها الأخوة، مع الدرس الثالث من سيرة سيدنا الصديق رضي الله عنه وأرضاه، تعلمون أن النبي عليه الصلاة و السلام، قال:

" ربوا أولادكم أو أدبوا أولادكم على حب نبيكم، و حب آل بيته و تلاوة القرآن "

(ورد في الأثر)

كيف يترجم هذا الحديث؟ ترجمه سيدنا سعد بن أبي وقاص، حينما قال: كنا نعلم أبناءنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلمهم السور من القرآن، فإذا أردت أن تنشئ أولادك على حب رسول الله عليه الصلاة والسلام ينبغي أن تبصرهم بكمالاته، بأخلاقه، برحمته، بعلمه، هذا هو العمل الإيجابي لتنشئة أولادك على حب رسول الله عليه الصلاة والسلام، و نحن الكبار من باب أولى أننا إذا أردنا أن نعرف النبي عليه الصلاة والسلام فلا بد أن نقرأ سيرته، و إذا أردنا أن نعرف هؤلاء الذين رضي الله عنهم بنص القرآن الكريم فلا بد كذلك من قراءة سيرتهم، ولا تنسوا أيها الأخوة حديث عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ:

" خَيْرُ النَّاسِ قرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ "

(أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن عبد الله)

فأنت إذا قرأت سير صحابة رسول الله فأنت مع النخبة الممتازة من البشرية .

بلغ الناس ولو آية :

قد نعيش في زمن الناس فيه حثالة، وفيه من اللؤم، ومن الخسة، ومن الدناءة، ومن الأنانية، ومن القسوة، ومن السقوط، ومن الانحطاط ما لا سبيل إلى وصفه .

أوضح لكم هذا بمثال: أنت في أشد حالات الجوع، وعندك قطعة لحم من الطراز الأول مشوية بطريقة رائعة، وإلى جانبك أطباق من المقبلات، أليس هذا الطبق من اللحم أنفس طعام تأكله؟ فقطعة اللحم نفسها لو تركتها في جو حار سبعة أيام لظهرتْ منها رائحة لا تطاق، هي نفسها، فالإنسان إذا اتصل

بالله عز وجل صار كاملاً، فإذا أعرض عنه صار فاسداً منحرفاً، فمشكلة الناس اليوم أنهم إذا جلسوا في بيوتهم مع أصدقائهم، في ندواتهم، في سهراتهم، في لقاءاتهم، في احتفالاتهم، في أحزانهم، في سفرهم، في حضرهم، في لقاء عابر، في لقاء مبرمج، في لقاء مدروس، يتحدثون عن بعضهم بعضاً، وقد يقعون في غيبة و نميمة أو نحوهما، فيكونون في سخط الله سبحانه، والناس كما نرى قد انحرفوا وقصروا، فالحديث عن القبائح يشيع في المجلس الشعور بالكآبة و الانقباض، لكن الحديث عن الكمال الإنساني، عن نماذج بشرية رائعة جداً، عن نماذج بشرية متفوقة، هذا يدفع إلى الكمال .

فأنا أنصح أخوتنا كمقدمة لهذا الدرس، فهل بيننا أحد من أخواننا الكرام ليس له أهل، ليس له بيت، ليس له أولاد، ليس له أخوات، ليس له أقارب، هل هناك إنسان ليس له لقاءان أو ثلاثة في الأسبوع، لا يسهر مع أخوانه، لا أحد ليس له نشاط اجتماعي، في هذه اللقاءات عن أي شيء تتكلم؟ عن الأسعار أو غيرها، شيء يدعو للانقباض، فوطّن نفسك أن تبلغ عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ولو آية، وطّن نفسك أن تحدث الناس عن سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وعليك أنْ تتعلم وتعلم، فإذا تعلمت وعلمت أؤكد لك أنك أفضل مخلوق على الإطلاق، من أين جئت بهذا الكلام؟ طالبني بالدليل، عن عُثْمَانَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

"خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ "

(أخرجه البخاري في الصحيح عن عثمان)

تجاوز ذاتك، تجاوز مصالحك، تجاوز الظروف التي يعاني منها الناس جميعاً، انطلق إلى خدمة الآخرين، انطلق إلى تعليمهم، انطلق إلى الأخذ بيدهم، فهذه الدروس التي من هذا القبيل هي ثمار يانعة.

إليكم مثال من إحدى الشخصيات البشرية الفذة التي ينبغي الاقتداء بها :

نحن الآن مع صحابي جليل، يعد من قمم صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، بل أعلاهم قدراً على الإطلاق، صحابي جليل والله لو وزن إيمان الخلق مع إيمانه لرجح، صحابي جليل ما ساء رسول الله عليه الصلاة والسلام قط، يعني هذا النموذج الفذ الرائع ألا ينبغي أن نقتدي به، أن نتمثله ولا سيما وأنتم تعلمون أن لكل واحد منا شخصية يتمنى أن يكونها، وشخصية يكره أن يكونها، فإذا سألت عن الشخصية التي تتمنى أن تكونها، فلا بد من شخصية فاضلة تستقي منها، وترتوي مِن معينها، فالمؤمن يتمنى أن يكون من الذين رضي الله عنهم و رضوا عنه، من الذين أحبوا الله و أحبهم الله، من الذين أخلصوا دينهم لله فأخلصهم الله بخالصة التقوى .

هذا الصحابي الجليل أؤمن واللهِ ولا أبالغ أنّه يعد بحق، كما قال المؤرخون: المؤسس الثاني للإسلام، لأنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الذين دخلوا في دينه أفواجاً قد خرجوا منه أفواجاً، فالشيء الذي تصله بسرعة تفقده بسرعة، من أخذ البلاد بغير حرب، يهون عليه تسليم البلاد .

من المواطن الذي يشهد للصديق صلابته في أخطر الساعات يوم وفاة الرسول:

هؤلاء الذين آمنوا بالتقليد وبالعفوية، آمنوا لأن الناس جميعاً آمنوا، دخلوا في هذا الدين لأن الناس جميعاً دخلوا فيه، هؤلاء سريعاً ما خرجوا من هذا الدين، لذلك ظهرت الردة، بعد وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام تضعضع الصحابة أيضًا، وذلك لأن أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم ما كانت نفوسهم مهيَّأةً لتلقي نبأ وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام، شيء فوق الحسبان، فوق أن يتوهموا هذا الشيء، فضلاً عن أن يعاينوه، أيموت محمد عليه الصلاة والسلام ؟ أعوذ بالله، فلذلك هزَّ هذا النبأ أركان عملاق الإسلام، حتى قال: " واللهِ من يقل إن محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام قد مات لأضربن عنقه، إنه لم يمت، ذهب إلى ربه وسيعود"، كل أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام مادت بهم الأرض وتزلزلت، ولم يكن إلا هذا الصحابي الجليل الذي بقي كالجبل الأشم، على الرغم من شدة حبه للنبي وتعلقه به ووفائه له بقي صامداً كالجبل، قال: من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت .

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن لهذا الصدِّيق إلا هذه الكلمة لكفت، احتفظ برباطة جأشه في أحلك الساعات، بقي واقفاً على قدميه، وقد تزلزلت من تحت أصحاب رسول الله الأرض .

شهادة النبي للصديق بأن يؤم بالناس دليل على أنه أعلى صحابته قدراً وعلماً وإيمانا :

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ:

" مَرِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاشْتَدَّ مَرَضُهُ فَقَالَ : مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ، قَالَ : مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَعَادَتْ ، فَقَالَ : مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَصَلَّى بِالنَّاسِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "

(أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي موسى الأشعري)

إشارة إلى أنه الخليفة .

السيدة عائشة ابنته تعرف أن أباها رقيق القلب، كثير البكاء، لا يحتمل أن يقف مكان رسول الله عليه الصلاة والسلام، هذا من شدة الوفاء، فقالت:

" يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب، وأنه إذا قام مقامك غلبه البكاء، فمر عمر أن يصلي بالناس"، وحين روجع النبي عليه الصلاة والسلام غضب أشد الغضب، وقال: " مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، قَالَ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَعَادَتْ، فَقَالَ : مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَصَلَّى بِالنَّاسِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "

(أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي موسى الأشعري)

إنه إصرار على أن يصلي مكانه الصديق، وهذه شهادة من النبي عليه الصلاة والسلام لهذا الصحابي الجليل، بأنه أول أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام قدراً، وعلماً، وإيماناً .

انظر إلى موقفه الحكيم في إصلاح الخلاف الذي نشب بين المسلمين يوم السقيفة:

صلى الصديق مكان رسول الله عليه الصلاة والسلام وامتثل الأمر، وهو لا يدري أو لعله كان يدري أنه في تلك اللحظة كان يتسلم الراية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملها من بعده، لكن هذا الصحابي الجليل حينما توفى الله رسوله، و قبضه إليه، و اختار النبيُّ الرفيق الأعلى، وانتقل إلى الدار الآخرة، فوجئ أن فتنة كادت أن تقع بين أصحاب رسول الله عيه الصلاة والسلام، فيهم المهاجرون و فيهم الأنصار، المهاجرون أصحاب السبق في الإسلام، و الأنصار هم الذين آووا و نصروا، فمن أيّهم يكون خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ أمن المهاجرين، أم من الأنصار؟ لذلك واجه هذا الصحابي مشكلة وفتنة ليست في صالح المسلمين، مع أن علماء السيرة يؤكدون تأكيداً شديداً أنّ هذا الصحابي الجليل كان أبعد الناس عن أن يتمنى أن يكون مكان رسول الله عليه الصلاة والسلام، كان عازفاً عن الخلافة، والنبي عليه الصلاة والسلام أعطانا قاعدة ذهبية، هي:**" طالب الولاية لا يُوَلَّى "** لأنه يرغب في مغانمها، والولاية ليست مغانم بل مغارم، أعباء، كما قال سيدنا عمر: لست بأفضل من أحدكم ولكنني أثقلكم حملاً .

لكن هذا الصحابي الجليل لا يحتمل أن يرى فتنة تنشب بين أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولا يحتمل ذلك، وهذا شأن المؤمن، المؤمن يعنيه أمر المؤمنين، من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

كيف عالج الصديق هذا الأمر ؟

سيدنا الصديق وضع ميزانًا تطمئن نفوسهم إليه، الميزان أخذه من القرآن، ماذا قال الله عز وجل؟ قال:

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة التوبة الآية: 100)

المهاجرون قبل الأنصار منزلة، وقدموا في الآية، والسابقون منهم لهم شأن آخر، ولهم مكانة علية، فسيدنا الصديق استناداً لهذا التقييم القرآني أراد أن يجعل الخلافة في المهاجرين، و فيمن هم قمم الصحابة الذين شهد لهم النبي عليه الصلاة والسلام،

" لو كان نبي بعدي لكان عمر"

(ورد في الأثر)

وقال أيضًا:

" أبو عبيدة الجراح أمين هذه الأمة " .

(ورد في الأثر)

فقال: " يا عمر، مدّ يدك لأبايعك، فسيدنا عمر قال: أنت أفضل مني، فقال الصديق: بل أنت أقوى مني، فقال عمر: قوتي إلى فضلك، وأنا خادم لك "، فسيدنا عمر في هذه الأزمة، وتلك الفتنة همّ أن يتكلم، لكن سيدنا الصديق أشار إليه أن اسكت، وتولى هو الكلام، وقال: " يا معشر الأنصار، إنكم لا تذكرون فضلاً إلا وأنتم له أهل"، فالكلام الحكيم، الكلام الذي يطيِّب القلب، الكلام الذي يثلج الصدر، هكذا بدأ الصديق قوله، ثم راح يتحدث عن وحدة المسلمين، وعن فضل الأنصار، وعن فضل المهاجرين، وعن وصية النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: " إني أرشح للخلافة أحد اثنين: عمر بن الخطاب الرجل الذي أعز الله الإسلام به، وأبا عبيدة بن الجراح الذي وصفه النبي الأمين أنه أمين هذه الأمة، واقترب منهما أبو بكر وتوسطهما، ورفع ذراعيهما بكلتا يديه، وقال للناس: لقد رضيت أحد هذين الرجلين عمر وأبي عبيدة، وارتعدت يد عمر كأنما سقطت عليها جمرة ملتهبة، وغطى أبو عبيدة عينيه الباكيتين في حياء شديد، وصاح عمر: لا بل أنت " .

أخواننا الكرام، الصحابة الكرام كانوا يعرفون أقدار بعضهم بعضاً، قال سيدنا عمر: **" والله لئن أقدّم فيضرب عنقي في غير إثم، أحبّ إلي من أن أؤمر على قوم فيهم أبو بكر، هذا مشهد مسجل له"**، قال تعالى:

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

(سورة آل عمران الآية : 181)

الحقيقة ما غربت شمس ذلك اليوم إلا وانتهت هذه الفتنة بحكمة هذا الصحابي الجليل وموقفه الحازم، كان في الظل فإذا هو في وضح النهار يتحرك كأنه الفارس، كان يؤثر أن يكون مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم شعر أن واجبه اتجاه الإسلام كبير جداً لذلك شمر و أقدم، أي هناك أشخاص يتدخلون في الوقت المناسب فيفعلون المعجزات .

طالب الولاية لا يولى :

سيدنا الصديق يذكر قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما يذهب إليه العباس يسأله أن يوليه الولاية، فأجابه عليه الصلاة والسلام:

" إنا والله لا نولي هذا الأمر أحداً يسأله، أو أحداً يحرص عليه " .

(ورد في الأثر)

الولاية عبء، أي مغرم وليست مغنم، ألم يقل سيدنا عمر لأحد ولاته: **" ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، فقال عمر: إذاً: فإنْ جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، ثم قال له مستدركًا: إن الله قد استخلفنا على خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً، التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية " .**

دققوا، فهذه قاعدة حكيمة، فالذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام وحي يوحى، قال تعالى :

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم الآية: 1-4)

إذاً: لو أن إنساناً عرض نفسه على الخلافة، بحسب هذه القاعدة، لا يجوز أن نوليه إياه

سبب الاضطراب بين المهاجرين والأنصار يوم السقيفة كان سبباً غريباً عنهم:

في الحقيقة أنَّ الصحابة الكرام عاشوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى درجات التعاون والتكاتف، فالأصل ما كان بين الصحابة إلاَّ الود، والوفاء، والحب، لكن هذا الموقف الذي جرى يوم السقيفة كما يقول علماء السيرة: كان هجيناً عليهم، ليس من عادتهم، ليس من طباعهم، ليس من

سجيتهم، ليس من شأنهم، ليس من أخلاقهم، ليس من أخلاق المؤمنين التنافس، لكن حصل هذا الاضطراب عقب وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ألم أذكر لكم من قبل، أن بين الأوس والخزرج في المدينة لما دخلوا في دين الله أفواجاً وأسلموا وحسن إسلامهم، واتصلوا بربهم، صاروا من الأخوة، والمحبة، والوفاء ما لا يوصف، أحد اليهود آلمه أن يكون هذا الوئام بينهم، فأرسل غلامه بقصيدة قيلت مِن قبل في هجاء بعضهم ، وجعل هذا الغلام يتلو على أسماعهم هذه القصيدة، يعني في ساعة غفلة بعضهم تحمس ورد آخر عليه بقصيدة أخرى، إلى أن نشب خلاف بين أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، أي بين الأنصار بالذات، فخرج عليهم النبي عليه الصلاة والسلام مسرعًا، وقال: أتختصمون وأنا بين أظهركم؟ فهذا موقف ليس أصيلاً فيهم، بل هو هجين بالنسبة لهم، هذا الموقف دخيل عليهم، فنزل قوله تعالى:

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة آل عمران الآية : 101)

فالله عز وجل سمى هذه الفرقة كفراً، وهذا الشقاق كفراً .

من علامة صدق إيمان المؤمن أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه :

تقول: لا دخل لي، أنا مشكلتي محلولة، والمسلمون لهم الله عز وجل، هذا كلام ضعاف الإيمان، المؤمن الصادق يشعر أن كل مؤمن أخوه في الإنسانية و الإيمان، يعنيه ما يعنيه، يؤلمه ما يؤلمه، يفرحه ما يفرحه، إن أصاب مسلماً مكروه أصابه، و إن أصاب مسلماً خير أصابه، فهذه علامة صدق الإيمان .

أيها الأخوة، أسألك بالله، هل تفرح لأخيك إذا تفوق، أو إذا ارتقى، أو إذا اغتنى، أو إذا تسلم منصباً رفيعاً، أو إذا تزوج، أو إذا اشترى منزلاً، أو إذا اشترى مركبة، أو إذا لمع اسمه أم تحسده؟ هنا تظهر علامة إيمانك .

البطولة تكمن في تحمل المسؤولية أثناء المحن والأزمات :

أحد الأدباء وصف إنساناً، وأنا أرى أن هذا الوصف ينطبق على سيدنا الصديق، قال: " كان يُرى ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً " رقيق، نحيل، يحب الظل، لا يحب الظهور، لا يحب الاستعراض ولا التبجح، ولا عرض العضلات، أي أن اتصاله بالله ومحبته لله عز وجل، وشعوره أن

الله يحبه هذا يغنيه عن استجداء مديح الناس، وعن أن يزهو أمامهم، لذلك كلما اشتدت الرغبة في أن يظهر الإنسان فهذا ضعف في إخلاصه، كن عبد الله، شعور العبودية لله عز وجل شعور ثمين جداً، يعني رجل أواب، قرة عينه في الصلاة، في الإنابة إلى الله، في خدمة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فجأة وجد نفسه في معمعة الأحداث، وهو المسؤول الأول

مثلاً: قد يكون الابن في حياة والده مرتاحًا، لكن فجأة يقبض والده، وهو أكبر أخوته، وهناك مسؤوليات، وأعمال، وأيتام، فوضعته المحنة أمامهم، لذلك في الحياة مجالات كثيرة للبطولة، وأنا أعرف شابًا حينما توفي أبوه ترك له أخوات، فلم يتزوج إلا بعد أن يسّر لكل أخواته الزواج المناسب، والبيت المناسب، واطمأن عليهن جميعاً، ثم تزوّج، فهذا بطل حقًّا .

سؤال يطرح :

هناك نقطة مهمة جداً، أرجو أن تكون واضحة عندكم، وأنتم بحاجة إلى إدراكها فيما أعتقد، فأحياناً يأتيني أخ، يقول: أنا أشعر بكذا وكذا، وأنا متألم جداً من هذا الشعور، أو تأتيني خواطر أنزعج منها أشد الانزعاج، فماذا أفعل؟ أنا عندي مقياس دقيق، أقول لهذا الأخ: إذا جاءتك هذه الخواطر، هل تنزعج أو لا تنزعج؟ يقول لي: انزعج أشد الانزعاج، أقول له: فهذه ليست منك، إذاً: هذه دخيلة عليك، هذه من الشيطان، لا تعبأ ولا تخف، ولكن إذا جاءتك هذه الخواطر، وارتحتَ إليها، وركنت إليها، فهي منك، وهي علامة المرض الشديد، وعلامة التقصير

انظر إلى الفهم السليم والدقيق للإسلام عند أبي بكر عندما عالج مسألة مانعي الزكاة

أما المشكلة الأكبر فهي أنّ حياته كانت كلها مشكلات رضي الله عنه، والمشكلة الأكبر كما قلت قبل قليل: هي في الذين دخلوا في دين الله أفواجاً، دخلوا بسرعة وبعفوية، بل دخلوا في هذا الدين تقليداً، إذاً: هؤلاء حينما توفي النبي عليه الصلاة والسلام طمعوا في أن يتخففوا من أعباء الإسلام، لا صلاة، ولا زكاة، ولا صيام، وطمعوا أن يبتدعوا لأنفسهم نبوات، فالقضية سهلة في نظر بعضهم، محمد نبي، وفلان نبي، فعادوا إلى عصبياتهم، فلذلك واجه الصديق موقفاً صعباً جداً، وهو أن معظم الذين دخلوا هذا الدين الجديد قد خرجوا منه و ارتدوا، و هناك من يظن أنهم بقوا في بلادهم يتأهبون للقتال، وهناك من أتاه بمعلومات أنهم يستعدون للهجوم على المدينة، وها هم أعلنوا عداءهم بأن بدؤوا بمنع الزكاة، فسيدنا الصديق لا تلين له قناة ، قال: **" و الله لو منعوني عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله صلى الله عليه و سلم لقاتلتهم عليه بالسيف، لا يفرق بين الصلاة و الزكاة أبداً "**، أي وقف موقفاً تهد له

الجبال.

أحياناً الإنسان يختار أنصاف الحلول، يأخذ ويعطي، يكون مرناً، لكن الصديق أمام قضية مبدأ، أما الآن أصحاب مصالح، يضحي بالخمسين ليأخذ المئة، يقفون عند أنصاف الطرق، يتفاوضون على أنصاف الحلول، لكن هذا الصحابي الجليل، قال: " واللهِ لو منعوني عقالَ بعيرٍ كانوا يعطونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه بالسيف "، و سأله سيدنا عمر هذا السؤال الحرج: كيف تقاتل قوماً يشهدون أنه لا إله إلا الله، وقد أخبر النبي عليه الصلاة و السلام أنه من قالها، فقد عصم دمه و ماله؟ نقل عمر مقالتهم، قال الصديق رضي الله عنه : " ألم يقل النبي صلى الله عليه و سلم إلا بحقها، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ، وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ " .

(أخرجهما البخاري ومسلم عن أبي هريرة في الصحيح)

سيدنا الصديق متذكر كلمة "بحقها"، قال و من حقها: **" أن يؤدِّيَ الزكاة، فمن لم يؤد الزكاة لم يقلها بحقها، إذاً: لا بد أن يحاربهم " .**

الحقيقة أن زعماء الأمم، القادة التاريخيون الذين تناط بهم مصائر الأمم، هؤلاء يحملون صفات فذة في شخصياتهم، أولى هذه الصفات: أن يكونوا رجال مبادئ، بالمبادئ لا توجد مساومات على مستوى المبادئ المساومة غير مقبولة، فكان الصديق في هذا المستوى الرفيع .

سيدنا عمر يقول: **"فما هو إلا أن شرح الله صدري لرأي أبي بكر"**، أي بعد قليل ألهم الله سيدنا عمر رأي أبا بكر ورآه صواباً، وابن مسعود رضي الله عنه، قال: **" لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله مَنَّ علينا بأبي بكر "** دققوا في هذا الكلام .

وكان سيدنا عمر في أعلى درجات الحكمة، فإذا رأى من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام تململاً أو اعتراضاً أو انتقاداً أو رأياً لا يراه الصديق، ماذا كان يفعل؟ كان يتبنى هذا الرأي، ويعرضه على الصديق، فإذا وقف الصديق موقفاً صلباً تعلّق به مِن دون أن يجعل مواجهة بين الصديق وبين أصحابه .

تتجلى حكمته حينما حرص على تنفيذ جيش أسامة طاعة لرسول الله عليه الصلاة والسلام

فيروى أن النبي عليه الصلاة والسلام قبيل وفاته أمر أن يجيش جيش لحرب الروم، وأمر أن يكون على رأسه شاب يسمى أسامة بن زيد لا تزيد سنه عن سبعة عشر عاماً، لكن بعد أن توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام، فالصحابة رأوا أنه ليس من العقل أن ينطلق هذا الجيش لحرب الروم، بينما

الجزيرة قد ارتد المسلمون فيها، فهل من المعقول أن يُوجِّه المسلمون جيشًا إلى أقاصي البلاد، وعندهم فتنة داخلية، والعاصمة مكشوفة، والناس قد ارتدوا، وأرادوا أن يكيدوا للمسلمين؟ فصار هناك آراء متفاوتة .

يقول سيدنا عمر كما قلت قبل قليل: لعله رأى ذلك، أو لعله أراد أن يعرض على الصديق رأي أصحابه، **" لو أنك جمدت هذا الجيش، لِمَ ترسل هذا الجيش؟ لو ادّخرته لحرب المرتدين"**، فلما أصر الصديق على إرسال الجيش، قالوا: إنّ هذا القائد صغير السن، ولا يعقل أن يكون كفئاً لهذه المعركة، فيقال: إن سيدنا الصديق قبض لحية عمر، وأمسكها بيده، وهزها هزاً شديداً، حتى كادت أن تنخلع بيده، وقال: **" يا عمر ثكلتك أمك، أجبار في الجاهلية ، خوّار في الإسلام؟ أتمنعني أن أجيش جيشاً جيشه رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ أتمنعني أن أولي على هذا الجيش أسامة بن زيد، وقد أمّره رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ "** هذا هو الإيمان ، نبي هذه الأمة يجيش جيشاً، وأنا لا أرسله، نبي هذه الأمة يعين قائداً وأنا لا أقره، فمَن أنا ؟.

أبو بكر أعاد للأمة مشاربها وتمسكها بعقيدتها وأصالتها :

هذا هو الموقف الذي لولاه لقضي على الإسلام، ولما كنا نحن مسلمين، قلت لكم في بداية الدرس: يعد هذا الخليفة العظيم المؤسس الثاني للأمة الإسلامية، ولا تنسوا قول سيدنا ابن مسعود : لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله منّ علينا بأبي بكر .

قال أبو بكر: **" أنفذوا بعث أسامة، فو الله لو تخطّفتني الذئاب لأنفذته كما أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام، وما كنت لأرد قضاء قضاه رسول الله عليه الصلاة والسلام"**، هذا هو الإيمان، ونحن أيها الأخوة، إذا كلفك الله بأمرٍ تكليفي، أتتردد في إنفاذه؟ دققوا في هذه الآية:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً)

(سورة الأحزاب الآية : 36)

انظر إلى تواضعه ؟

بالمناسبة ثم إنّ سيدنا أبا بكر مشى في ركاب سيدنا أسامة بن زيد القائد الفتى، لم يحتمل هذا القائد الفتى أن يركب على ناقة، وهو قائد الجيش، وخليفة المسلمين يمشي إلى جانبه، قال: **" يا خليفة رسول**

الله عليه الصلاة والسلام لتركبن أو لأمشين، فقال الصديق و يريد أن يدعمه ، وأن يقوي مركزه: واللهِ لا ركبتُ ولا نزلتَ، وما عليّ أن تغبرّ قدماي ساعة في سبيل الله " .

خلاصة القول من أعمال الصديق ومواقفه الجليلة أثناء خلافته :

وبهذه المواقف الحكيمة انتهت فتنة السقيفة، وحارب المرتدين، وقضى عليهم، وأنفذ الصديق الجيش الذي بعثه النبي عليه الصلاة و السلام لحرب الروم، وأقرّ على قيادته أسامة بن زيد حبّ رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهذه المواقف التي وقفها الصديق كانت هي المواقف التي ثبَّتت الإيمان في نفوس أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وثبتت الإسلام .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا أبو بكر الصديق - الدرس (4-5) : ورعه وحكمته في الخلافة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-04-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الخلافة التي نستنبط منها العبر والحكم :

انظر إلى تواضعه على الرغم من سمو مكانته بين المهاجرين والأنصار :

أيها الأخوة، مع الدرس الرابع من سيرة سيدنا الصديق رضي الله عنه، والموضوع اليوم: أن هذا الصحابي الجليل الذي صار خليفة المسلمين ألقى خطبة يسميها بعض المؤرخين "خطبة الخلافة "، فلو دققنا في كلمات هذه الخطبة لوجدنا أنه قرر فيها مبادئ تبهر العقل، وتأخذ بالألباب، فأول كلمة قالها: " أيها الناس، فإني وليت عليكم و لست بخيركم" انطلق مِن أنه واحد من المسلمين، ليس فوق المسلمين بل هو واحد منهم، انطلق من أن الخلافة ليست تشريفاً ولكنها تكليفاً، ليس الخليفة أفضل من أي مسلم، ولكنه أثقل المسلمين حملاً، من هنا انطلق، والمؤمن هكذا أيها الأخوة، المؤمن أدبه ربه، حينما سئل عليه الصلاة و السلام عن هذا الأدب الرفيع الذي يتحلّى به، فقال عليه الصلاة و السلام:

"أدبني ربي فأحسن تأديبي ".

(ورد في الأثر)

ينبغي على الإنسان الذي رزقه الله حظاً في الدنيا ألا يستعلي عمن دونه :

أيها الأخوة، الإنسان حينما يرتفع شأنه، قد يرتفع بماله، وقد يرتفع بقوته، وقد يرتفع بحسبه، وقد يرتفع بعلمه، وقد يرتفع بذكائه، سيدنا الصديق من هؤلاء القلة المعدودين على أصابع اليد، حينما أصبحوا في قمة المجتمع الإسلامي ما تغيروا، ولا تبدلوا، ولا رأوا أنفسهم فوق المجتمع، فلذلك هذه الخطبة تعني أنّ كل إنسان إذا كان لا شأن له، أو من عامة الناس، أو في الدرجات الدنيا في المجتمع، فقد يكون متواضعاً، لأنه فعلاً من درجة دنيا، فأنى له أن يتكبر، لكن حينما يصعد الإنسان، هل يبقى ثابتًا على عبوديته لله عز وجل؟ أم هل يبدل هذا المنصب أخلاقه؟ وهل يجعله يقسو على أعدائه؟ وهل يجعله يتيه على عباد الله؟

" أيّها الناس وُلّيتُ عليكم، ولستُ بخيركم" ولذلك فالمؤمن ينطلق من أنه واحد من الناس، إذا انطلقت من أنك واحد من الناس أحبك الناس، التفوا حولك، وأقبلوا عليك، أما إذا انطلقت مِن أنك فوقهم، فأنت شيء عظيم، وهم لا شيء انفضوا من حولك، " أيها الناس وليت عليكم و لست بخيركم" وأنتم أيها الناس لكم دور، هو دور إيجابي مع الخليفة .

أشار إلى قبول النصح والتوجيه والنقد لما فيه صلاح أمور الأمة :

قال: " إن أحسنت فأعينوني، و إن أسأت فقوموني" ما أروعها من كلمة لو طبقها المسلمون فيما بينهم، لك أخ تفوق، تحسده وتتمنى أن تزول هذه النعمة عنه، فهذا هو النفاق، لكن لك أخ تفوق، فإن كان على حق فعليك أن تدعمه، وإن كان على باطل فعليك أن تنصحه ، وليس هناك حل ثالث، أخوك، أستاذك، أي إنسان، إن كان على حق فعليك أن تعينه، وإن زلت قدمه، أو ضل رأيه فعليك أن تنصحه، وفي الحالتين لا ينبغي أن تعاديه، بهذه الطريقة ينمو المجتمع الإسلامي، و يقوى، ولا يتفتت . الإنسان حينما يضعف إيمانُه بدل النصيحة يفضح، وبدل أن ينصح يشهر به، و بدل أن يعينه يحسده، فالحسد و الفضيحة هما من لوازم المنافقين، لكن المؤمن بين حالتين، معين أو ناصح، قال: " أما أنتم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني" و كل إنسان ولاه الله منصبًا، ينبغي أن يفهم من حوله أن النصيحة أمانة، وأن ترك النصيحة خيانة للأمانة، أن المعاونة أمانة، و أن ترك المعاونة خيانة، هكذا المجتمع المسلم، البديل عند المنافقين، الحسد إذا أحسن، و الفضيحة إذا أساء، هذا مجتمع المنافقين، " إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني " .

انظر إلى مبدأ العدالة والمساواة

ثم تناول رضي الله عنه القيم الثابتة ليؤكد أنها المبادئ التي يتبناها، فقال:" ألا إن الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له " بمجتمع الغاب الذي ينتصر هو القوي، بمجتمع الحق الذي ينتصر هو صاحب الحق، قيم نفسه، وكلف مَن حوله بمهماتهم، ثم بين أن هذا المجتمع تسوده قيم ثابتة، تسوده نظم جاء بها عليه الصلاة والسلام، " لكن جبلة بن الأيهم ملك الغساسنة طاف حول الكعبة، وكان قد قدِم إلى مكة مسلمًا، وطاف إلى جانبه بدوي من فزارة، فداس البدوي طرف إزاره، فخلع الإزار عن كتفه، فالتفت إلى هذا البدوي، وضربه ضربة هشمت أنفه، جاء البدوي إلى عمر بن الخطاب يشكو جبلة الملك، فسأله: هل صحيح ما ادّعى هذا الفزاري الجريح؟ قال بعنجهية واستعلاء و كبر: لست ممن ينكر شيئًا، أنا أدبت الفتى، وأدركت حقي بيدي، قال له: أرض الفتى، لا بد من إرضائه، فما زال ظفرك

عالق بدمائه، أو ليهشمن الآن أنفك، وتنال ما فعلته كفك، قال: كيف ذلك يا أمير، هو سوقة من عامة الناس، وأنا عرش وتاج؟ كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً؟ قال: نزوات الجاهلية، ورياح العنجهية قد دفناها، وأقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً، قال جبلة: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى و أعز، أنا مرتد إذا أكرهتني، قال له: عنق المرتد بالسيف تحز، عالم نبنيه، كل صدع فيه بشبا السيف يداوَى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى " .

إن خطبة الخلافة لتُكتَب فيها مجلدات، كلمات قليلة يمكن إلقاؤها في خمس دقائق، لكنه أعطى كل شيء حقه،

" وليت عليكم ولست بخيركم" ، " لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى"

(ورد في الأثر)

هذه الخطوط التي يتمايز بها الناس في المجتمعات غير المؤمنة، حظ المال، وحظ العلم العصري، وحظ القوة، والمنصب، والجاه، والوسامة والذكاء، هذه لا شأن لها إطلاقاً في مجتمع المسلمين، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وانتهى الأمر.

" سيدنا أبو بكر رضي الله عنه لما رأى بلالا يعذب، وبلال يومئذ عبد، وسيدنا الصديق كما نعلم في قمة المجتمع من أشراف قريش، كان غنياً شريفاً حسيباً نسيباً، مّر عليه وهو يعذب مِن قِبَل سيده، فنهاه الصديق، قال له أمية بن خلف: إذا شئت فاشترهِ، فقال له الصدِّيق : بكم تبيعه، وبعد أن تساوما اشتراه، قال: والله لو دفعتَ به درهماً لبعتكه، فقال الصديق: واللهِ لو طلبتَ مئة ألف لأعطيتكها، فلما دفع ثمنه، وأخذه من بين يدي سيده، وضع يده تحت إبطه، وقال: هذا أخي حقًّا " الناس يسمون هذا الخطاب في زماننا هذا خطابَ العرش، يعني الملك يلقي خطاب العرش يبيِّن فيه مبادئ التعامل مع الرعية .

قال الصدِّيقُ: **" أيّها الناس، إني وليت عليكم ولست بخيركم، إن أسأت فقوموني، ألا أن الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ألا وإن القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله " .**

من لوازم الإيمان النصح والتعاون ومن لوازم النفاق الحسد والتشهير :

أنت إذا كنت رئيس دائرة، عندك ثلاثة موظفين، إن انطلقت من أنك إنسان مهيمن عليهم، وأنك أعلى منهم، وتحكّم فيهم، وتبتغي أن يتذللوا لك، فأنت جاهلي وعنصري، بل أنت واحد منهم، وأنت في خدمتهم، الله فوق الجميع سيراقبك وسيحاسبك، سيعاملك كما تعاملهم، " البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديّان لا يموت" أنت مع أخيك، مع صديقك، مع قريبك، فإن ارتفع قريبك تقول: لا بد من معاداته وتحقيره، إن كنت كذلك، فأنت جاهلي وعنصري ومنافق، لكنْ عليك أن تصدع بالحق وتساعدْه، وإنْ

أخطأ فانصحه وأرشده، واجعلوا هذا مبدأ لكم، المنافق على العكس من ذلك، إن صدع بالحق يحسده، وإن غلط يفضحه، قال عليه الصلاة و السلام:

" اللهم إني أعوذ بك من جار سوء، إن رأى خيراً كتم، و إن رأى شراً أذاعه، اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء إن أحسنت لم يقبل، و إن أسأت لم يغفر " .

(ورد في الأثر)

وطن نفسك على الحق والصواب، والله عز وجل حينما يراك تعين أخوانك، ولا تستعلي عليهم، وتأخذ بيدهم، أحبَّك ونصرك ووفقك، أما إذا رأى ربنا عز وجل أن عباده متحاسدين متباغضين كان عليهم لا لهم، ولذلك جاء الدعاء القرآني:

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة الحشر الآية : 10)

و قوله تعالى :

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

(سورة الحجر الآية : 47)

محبتك لأخوانك دليل إيمانك، معاونتك لهم دليل إيمانك، فأن تنصحهم نصيحة مخلصة بينك وبينهم هذا دليل إيمانك، لذلك ما من آية في كتاب الله يتوعد الله فيها إنساناً على شيء لم يترجم بكلمة، ولا بحركة، ولا بغمز، ولا بلمز، إلا أنه:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النور الآية : 19)

ماذا فعل؟ لم يفعل شيئًا، إلا أنه تمنى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وضع نفسه في خندق المنافقين.

الصديق لم تكن في نفسه الولاية لكن قدر فكان :

فهذا الصحابي الجليل قال: " والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً، ولا ليلة، ولا سألتها الله لا في سر، ولا في علانية " والنبي عليه الصلاة والسلام، يقول:

" طالب الولاية لا يولَّى " .

(ورد في الأثر)

في بعض البلاد الديمقراطية يدفع المرشح أحياناً مئة مليون دولار حتى يرشح، إذاً: هو طالب ولاية، وطالب الولاية لا يولى، قال: " والله ما كنت حريصاً على الولاية يوماً، ولا ليلة، ولا سألتها الله لا في سر، ولا في علانية " .

ذات يوم دخل عليه عمر ليزوره، فوجده يبكي، وما كاد عمر يبصر أمامه، الصديق يبكي حتى تشبث به، وكأنه زورق نجاة، قال له: " يا عمر، لا حاجة لي في إمارتكم، لقد عُلّقتْ بي تعليقاً، وأُرغِمتُ عليها".

أخواننا الكرام، أرجو أنْ تصدقوني فيما أقول فهو كلام دقيق، المؤمن إذا وصل إلى الله فهو حقًّا سعيد، وهذه السعادة التي عاشها بعد أن وصل إلى الله لا تقدر بأثمان مهما بلغت ، فسيدنا الصديق اطمأنت نفسه لمعرفة الله، والإقبال عليه، فهذه الخلافة لا تقدم ولا تؤخر .

" ذات مرة طلب رجل حاجة من سيدنا الصديق، فأراد الصديق أن يأخذ رأي عمر وكان قاضياً، قال للرجل: اذهب إلى عمر، سيدنا عمر رفض الموضوع كلياً، و بت فيه بشكل نهائي، فوقع هذا الشخص في حيرة، وعندما جاء الصديق، قال له: أأنت الخليفة أم هو ؟ قال: هو إذا شاء، لا فرق بيننا، لكن عمر رضي الله عنه، قال: إلى أين المفر؟ والله لا نقيلك، ولا نستقيلك، أنت أرحمنا، وأنت أعلمنا، و أنت أقربنا، وأنت أفضلنا، والله لا نقيلك ولا نستقيلك " .

انظر إلى ولاء الصديق للحق :

تروي كتب السيرة أن السيدة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعباس عم رسول الله عليه الصلاة والسلام ذهبا إليه، إلى سيدنا الصديق، يسألانه حقهما في قطعة أرض صغيرة، كان النبي صلى الله عليه و سلم قد أصابها في بعض الفيء، وكان عليه الصلاة و السلام يعطي السيدة فاطمة، و بعض أهله جزءاً من نتاجها ثم يقسم الباقي بين فقراء الصحابة ، فقال لها وللعباس: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ:

" إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لا نُورَثُ مَا تَرَكْتُ بَعْدَ مَؤونَةِ عَامِلِي وَنَفَقَةِ نِسَائِي صَدَقَةٌ " .

(أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح)

وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام يصنعه إلا صنعته، فإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ، فالولاء للحق أم للأشخاص؟ إن كان للأشخاص فهذه ابنة رسول الله عليه الصلاة والسلام أحب الناس إليه على الإطلاق، تريد أخذ بعض ريعها، أما إذا كان الولاء للحق، فالحق الذي جاء به النبي يؤكد أن النبي لا يورث، ولكن من أجل أن يطمئنها وأن يقنعها، وأن يجعلها ترتاح لهذا التوجيه، جمع كبار الصحابة، أي طلب عمر رضي الله عنه وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص

وعبد الرحمن بن عوف، وسألهم أمامها ناشدتكم الله، ألم تعلموا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال:

" إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لا نُورَثُ مَا تَرَكْتُ بَعْدَ مَؤونَةِ عَامِلِي وَنَفَقَةِ نِسَائِي صَدَقَةٌ " .

(أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح)

فقدْ ظن لعلها لم تسمع كلام أبيها، فجاءت تطلب حقها، سمعت تواتراً، سيدنا عمر، وسيدنا طلحة، وسيدنا الزبير، وسيدنا سعد، وسيدنا ابن عوف، سألهم أمامها وأقروا أنهم سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول، قالت: إنك تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهبها لي في حياته، فهي لي بحق الهبة لا بحق الإرث، فقال أبو بكر: أجل أعلم، لكني رأيته يقسمها بين الفقراء والمساكين وابن السبيل بعد أن يعطيكم منها ما يكفيكم، فقد أراد أن يكون فيها حق دائم للفقراء، فهي وقف، ثم جاءت بحجة ثالثة، قالت فاطمة رضي الله عنها: دعها في أيدينا، ونحن نجري فيها على ما كانت تجري عليه وهي في يد رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال أبو بكر: لست أرى ذلك فأنا أمير المؤمنين من بعد رسولهم، وأنا أحق بذلك منكما أضعها في الموقع الذي كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يضعها فيه .

هذه القصة مفادها أن الولاء لله وحده، وأن الولاء للحق الذي جاء به النبي، وأن الولاء لهذه الشريعة السمحاء، وأن النبي صلى الله عليه وسلم مشرع، فإذا قال: كذا وكذا فكلامه شرع، ومع أن الصديق عليه رضوان الله كان في أعلى درجات الحب لرسول الله عليه الصلاة والسلام لكن يبقى الولاء لله عز وجل، هكذا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

" إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لا نُورَثُ، مَا تَرَكْتُ بَعْدَ مؤونَةِ عَامِلِي وَنَفَقَةِ نِسَائِي صَدَقَةٌ " .

(أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح)

الموقف الثاني الذي يدل على ولائه :

أيها الأخوة، له موقف لا يصدق، لشدة ولائه للحق، سيدنا الصديق كان خليفة المسلمين ، وأرسل سيدنا أسامة بن زيد قائداً لا تزيد سنه عن سبعة عشر عاماً، وهذا الجيش الذي يقوده أسامة بن زيد فيه جنود كسيدنا عمر، وسيدنا عثمان، وسيدنا علي، هؤلاء كبار الصحابة، العمالقة، القمم، خرج الصديق يودع أسامة بن زيد، وكان بين جنود هذا الجيش عمر بن الخطاب، وكان أبو بكر حريصًا على أن يبقى عمر بجواره، ولقد كان يستطيع كخليفة للمسلمين أن يستبقيه بقرار ينفرد بإصداره، ولكنه يعلم أن في هذا التصرف افتئاتاً على موظف مسؤول يجب أن توفر له الضمانات التي تمكنه من أداء واجبه، و أولى هذه الضمانات: ألا تنتقص هيبته و سلطته، فماذا فعل؟ اقترب الخليفة العظيم سيدنا الصديق من قائد

الجيش أسامة، و قال له في همس و رجاء: إذا رأيت أن تترك لي عمر بن الخطاب فإني أجد في بقائه معي خيراً و نفعاً، هذا درس بليغ، مستشفى لها مدير، و هناك أطباء، و أنت أعلى من مدير المستشفى فلا ينبغي أن تطلب طبيبًا مباشرة، بل لا بد أن تستأذن مدير المستشفى، أنت مدير تربية، وهناك مدير ثانوية، وهذا المدرس عند هذا المدير، وأنت بحاجة لهذا المدرس فلا ينبغي أن تقول له تعال إلي، هناك مدير يجب أن تستأذن مديره، هناك تسلسل، تعبير إداري لا بد من مراعاة التسلسل .

يقول كتاب السيرة: إن أبا بكر لم يفعل ذلك مجاملة و لا تواضعاً، إنما فعله واجباً.

زهده وورعه :

سيدنا الصديق تسلم منصب الخلافة، و في أول يوم من خلافته يضع على كتفيه لفافة كبيرة من الثياب ليبيعها في السوق، ما هذا؟ رآه عمر رضي الله عنه و أبو عبيدة فوقفا يسألانه: إلى أين يا خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ قال: إلى السوق، قالا: لماذا و قد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم أولادي؟ قال عمر: انطلق معنا نفرض لك شيئاً من بيت المال، تعويض تفرغ، صحبهما الخليفة إلى المسجد حيث نودي أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وعرض عليهم عمر رأيه في أن يفرض للخليفة بدل تفرغ، أنت خليفة ومكلف برعاية شؤون المسلمين، فهل من المعقول أن تبيع أقمشة بالطريق من أجل أن تأكل أنت و أولادك؟ صدقوني ليس هذا تمثيل وإنما هذه حقيقة .

كان لهذا الصحابي الجليل، غلام جاءه بطعام فأكل منه، ولما فرغ من أكله، قال له الغلام: أتدري ما هذا يا خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ قال أبو بكر: ما هذا؟ قال: إني كنت قد تكهنت لرجل في الجاهلية، وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته! وقد لقيني اليوم فأعطاني مالاً، فهذا الذي أكلت منه من هذا المال، قال: فأدخل الصديق يده في فمه حتى قاء كل شيء في جوفه، ويضيف صاحب كتاب الصفوة أنه قيل لأبي بكر رضي الله عنه: يرحمك الله أكل هذا من أجل لقمة واحدة؟ فقال: و اللهِ لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها .

" أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد تمرة تحت جنبه من الليل فأكلها فلم ينم تلك الليلة فقال بعض نسائه: يا رسول الله أرقت البارحة؟ قال: إني وجدت [تحت جنبي] تمرة فأكلتها وكان عندنا تمر من تمر الصدقة فخشيت أن تكون منه "

(أخرجه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص)

قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم الآية : 59)

هنا مسألة مهمة جداً، هل هذا حكم شرعي أم موقف شخصي؟ هذا موقف شخصي، أي إذا أكل الإنسان طعاماً، ثم عرف بعد ذلك أن الطعام فيه شبهة، فهل هو مكلف أن يغسل معدته؟ هذا ورع من سيدنا الصديق، وموقف شخصي، وليس حكماً شرعياً .

سيدنا عمر، كان يقول دائماً: يرحم الله أبا بكر، لقد أتعب الذين جاؤوا بعده، أتعبهم كثيراً، بعد أن جاءه الفيء من الفتوح، ردّ كل المال الذي أخذه إلى بيت مال المسلمين، وقال لها: انظري ما زاد في مال أبي بكر منذ أن ولي هذا الأمر فرديه على المسلمين، أوصى ابنته، أي شيء أخذته من بيت المال رديه عليه بعد أن أغناني الله تعالى من الفيء والغنائم .

نموذج فريد :

هذه نماذج من مواقف هذا الصحابي الجليل الذي كان قمة في الورع، وبعد الفهم و الشجاعة، وفي حسن سياسة الأمور، فقد كان بحق، كما يقولون: المجدد الثاني للدولة الإسلامية بعد أن خرج الناس من دين الله أفواجاً عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد أنْ دخلوه أفواجاً .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا أبو بكر الصديق - الدرس (5-5) : أدبه وتواضعه في التعامل مع الصحابة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-04-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً :

أيها الأخوة، مع الدرس الخامس من سيرة سيدنا الصديق رضي الله عنه، و يبدو أنه الدرس الأخير، الشي الذي يحير العقول في سيرة هؤلاء الأبطال أنهم كانوا قمماً في التقوى، وفي الطاعة، وفي الإخلاص، وفي حب الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، وكانوا مع ذلك يخافون من الله خوفاً لو وُزِّع على أهل بلد لكفاهم .

أيها الأخوة، يقول عليه الصلاة و السلام:

" رأس الحكمة مخافة الله "

(ورد في الأثر)

و يقول عليه الصلاة و السلام:

" أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً "

(ورد في الأثر)

فهل من الممكن أن تعرف حجم عقلك من حجم حبك؟ وهل يمكن أن تعرف حجم عقلك من حجم خوفك؟ فكلما كنت أشد خوفاً من الله كان عقلك أرجح، و كلما كنت أشد حباً لله عز وجل كان عقلك أرجح، وقد ضربت لكم مثلاً من قبل قد يبدو مضحكاً: لو أن أشخاصًا خيرناهم بين إناء بلور وطني ثمنه عشرون ليرة سورية، و بين كأس كريستال ثمنه مئتا ليرة، و حينما يختار أحدهم الإناء نحكم على حماقته مع أنه أكبر بكثير، وحينما يختار آخر الكأس نقول: لعله أذكى ممن اختار الإناء، لكنه يبقى أقل عقلاً من الذي اختار كأس الكريستال، فأرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، هذا الصحابي الجليل دائماً كان يقول: " يا ليتني كنت شجرة تعضد " وسيدنا عمر كان دائماً يقول: **" ليت أم عمر لم تلد عمر"** ماذا رأى هذا الصحابي؟ لم لا يقول أحدنا هذا الكلام؟ و الله الذي لا إله إلا هو لا يخالط شعوري لثانية واحدة أن هذا الكلام لا يقال للاستهلاك، ولا يقال تمثيلاً كما يقول الناس اليوم، بل كانوا صادقين، فالصدق فضيلة كبرى، كانوا صادقين مع أنفسهم ، ومع ربهم، ويبدو أنهم رأوا عظم المسؤولية التي ألقيت عليهم، ورأوا عظم الفضل الذي أنيط بهم، ورأوا هذا التكليف العظيم الذي كلفهم الله إياه، وفهموا أن الإنسان يحمل رسالة كبيرة جداً في الحياة، لذلك كما قال الشاعر:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله و أخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ما وظيفة الإنسان في الأرض ؟

هناك من يأكل ليعيش، وهناك من يعيش ليأكل، كلاهما لا يعجبني الذي يعيش ليأكل حيوان، والذي يأكل ليعيش إنسان طبعاً، ولكن هناك سؤال دقيق: تعيش لماذا؟ لا بد أن يفهم الإنسان أنّه لله عز وجل، فالموضوع أكبر بكثير من أننا حضرنا درساً أو سمعنا درساً لطيفاً، الموضوع رسالة .

انظروا أيها الأخوة، كيف أن الناس جميعاً يمشون في اتجاه إجباري؟ يولد، ثم يدخل الابتدائية، ثم يأخذ شهادة الإعدادي، ثم الثانوي، ثم يأخذ شهادة جامعية، أو يتقن مصلحة أو حرفة ، يتزوج وينجب أولاداً، ثم يزوجهم، ويكبر قليلاً، فتهمه صحته، ثم يضعون نعيه، هذه هي الحياة، شيء ممل، طريق سالك، لكنه طريق إجباري، لكن الإنسان أعظم من ذلك، يحمل رسالة

هذا النبي الكريم الذي جاء إلى الأرض و غادرها، فهدى أمماً، ومنهم هؤلاء الصحابة الذين فتحوا بلاداً، ونشروا فيها الإسلام والفضيلة والسعادة و معرفة الله عز وجل، أنقل لكم ثلاثة أقوال، فعَنْ أَنَسٍ، قَالَ:

" كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ "

(أخرجه الترمذي عن أنس في سننه)

سيدنا الصديق، يقول: " يا ليتني كنت شجرة تعضد " سيدنا عمر، يقول: " ليت أم عمر لم تلد عمر " أي أن هؤلاء الصحابة الكرام عرفوا خطورة المسؤولية .

كيف ربى الإسلام هؤلاء الرجال ؟

أيها الأخوة، سأضع بين أيديكم واقعتين تتحدثان عن ورع هذا الخليفة العظيم، ربيعة الأسلمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " كان بيني وبين أبي بكر كلام حوار، فقال لي كلمة كرهتها، ولعل هذه الكلمة لو قلناها نحن لافتخرنا بها، ولكن كلما ارتقى الإنسان يحاسب نفسه حساباً دقيقاً، أحياناً ابتسامة ساخرة تهوي بها من عين الله، أحياناً قد يدخل شخص إلى بيت فيجده صغيراً، فيسأله: كيف يسعك هذا البيت؟ أنت ماذا فعلت بهذه الكلمة ؟ أنت عملت عملاً سيئًا جداً، الإنسان اشترى هذا البيت، وفرح به، ويرى نفسه وكأنه بجنة، جمع ثمنه منذ ثلاثين سنة، آواه، رتبه، و فرشه، و فرح به، فأذهبت

النشوة عنه، إن المؤمن دائماً يسعى لإسعاد الناس لا لتصغير شأنهم، ولا لإفساد حياتهم، يبدو أن سيدنا الصديق تكلم كلمة، فرأى في وجه أخيه ربيعة جمودًا، ثم ندم عليها، " وقال لي: يا ربيعة ردَّ عليَّ مثلها حتى تكون قصاصًا، قلت: لا أفعل " .

أخواننا الكرام، كان أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام يعرفون قيمة بعضهم، هذا صحابي جليل، هذا أمين سر رسول الله عليه الصلاة و السلام، ثم يدخل في الإسلام رجل، فهل من السهولة أن يتطاول عليه؟ " قال ربيعة: و الله لا أفعل " فهو يعرف قدر الصدِّيق، ألم أقل لكم قبل درسين أو ثلاثة عندما قال سيدنا الصديق لسيدنا عمر: **" مد يدك لأبايعك، قال له: لا أفعل، أنت أعظم وأفضل مني، فقال له: أنت أقوى مني، قال له: قوتي مع فضلك، وأنا في خدمتك "**

" ولما وقف سيدنا الصديق على منبر رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يجرؤ أن يقف في ذلك المكان، لقد كان يقف عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصعد درجتين فقط " ولعل منبر النبي كان له ثلاث درجات فقط، ثم إنّ سيدنا عمر ما جرؤ على أن يقف في مقام أبي بكر، قال : " ما كان اللهُ ليراني أن أضعَ نفسي في مقام أبي بكر" فإذا كان أخوة في حلقة يجب أن يعرفوا قدر بعضهم، هذا أكبر سناً، هذا أقدم، فيجب أن تعرف قيمة أخيك الأكبر منك قدراً، وعلماً، وأقدم سناً، وأقدم في انتمائه لهذه الحلقة الطيبة، انظر إلى الجيش فيه تسلسل في الرتب، ولديهم إجراءات قاسية جداً، فإذا تجاوزها الإنسان يعاقب، وأهل الإيمان كذلك لهم مراتب وأسبقية، " فقال لي: لتأخذن بحقك مني، أو لأشكونك لرسول الله عليه الصلاة والسلام "

أنا أستنبط استنباطاً دقيقاً: أن هذا الصحابي الجليل له قلب عامر بذكر الله، فلما رأى في وجه أخيه كراهية كلمة قالها، ندم ندماً شديداً، وهذا الندم، و هذا الاختلال، لا يصلحه إلا أن يقتص منه، أنا معجب بالأدب بين الصحابة، لأنني ذات مرة قرأت عن سيدنا زيد الخير رضي الله عنه، رجل من وجهاء الجاهلية، كان شهماً، كان صاحب مروءة، وكان جميل الصورة،

" فلما قدم النبي عليه الصلاة والسلام وقف في مؤخرة المسجد، فلفت نظر النبي، فلما انتهت خطبته وصلاته، سأله من الرجل؟ فأجابه: أنا زيد الخيل، فقال له عليه الصلاة والسلام: بل أنت زيد الخير، وقال زيد للنبي عليه الصلاة والسلام: واللهِ ما وُصِف لي رجل إلا رأيته دون ما وصف إلا أنت، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: لله درك يا زيد، أي رجل أنت ؟! " فالرجل حديث عهد بالإسلام ، ربما إسلامه منذ حوالي نصف ساعة، عُمْر إسلامه نصف ساعة، " فالنبي قدم له وسادة ليتكئ عليها، ماذا قال له؟ قال له: والله لا أتكئ في حضرتك يا رسول الله عليه الصلاة والسلام " فما هذا الأدب؟ .

(ورد في الأثر)

فالإنسان كلما اقترب من الله عز وجل ازداد أدباً، حتى أن أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام تحيروا في أدب رسول الله عليه الصلاة والسلام، قالوا: يا رسول الله ما هذا الأدب؟ قال:

" أدبني ربي فأحسن تأديبي " .

(ورد في الأثر)

" قال: فذهب عني منطلقاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وانطلقت وراءه، فجاء أناس من أسلم، فقالوا: يرحم الله أبا بكر في أي شيء يستعلي عليك، وهو الذي قال لك ما قال، قلت لهم: اسكتوا هذا أبو بكر، هذا الذي قال الله عنه ثاني اثنين إذ هما في الغار، وفي القرآن ذُكِر اسمه، إياكم أن يلتفت فيراكم تنصرونني عليه فيغضب، فإذا غضب أبو بكر غضب رسول الله عليه الصلاة والسلام لغضبه، وإذا غضب رسول الله عليه الصلاة والسلام غضِب الله لغضبهما فيهلك ربيعة "، فالصحابة يعرفون مقامات بعضهم تماماً، وربيعة يعرف من هو الصديق؟ هذا الصاحب الأمين، هذا الذي فدى النبي بحياته، فداه بماله، " يقول ربيعة: وانطلقتُ وراء أبي بكر ، فأتى الرسول فحدثه بما كان، فرفع إلي الرسول رأسه، وقال: يا ربيعة ما لك وللصديق؟ قلت: يا رسول الله عليه الصلاة والسلام، إنه قال لي كلمة كرهتها، ثم طلب إلي أن أردها عليه لتكون قصاصاً فأبيت، أنا لم أفعل شيئًا، فقال عليه الصلاة والسلام:

(ورد في الأثر)

أي هذا هو أسلوب الأدب بين الأخوة، فإذا قال لك أخوك كلمة قاسية، فقل له: غفر الله لك، " قال: فولى أبو بكر وهو يبكي" عرف مقامه عند رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومقامه عند الصحابة، كما عرف أدب هذا الصحابي الجليل، والهداية قد تنجم من موقف أخ مسلم نحو أخيه، تنبع من أدب جم، وذوق رفيع .

الإنسان عبد الإحسان :

ذات مرة أخبرتكم بقصة حدثني بها أخ كان ببلد عربي معار للتدريس، وكان في المدرسة فراش "مستخدم"، أي هذا أهون إنسان على المجتمع في هذا البلد، من بلاد شرقي آسيا معاشه خمسمئة ريال، كل حياته عبارة عن فرشة إسفنج 2 سم، ومسمار يعلق عليه كيسًا فيه حاجاته، خمسمئة ريال معاشه الشهري، وهذا المبلغ عندهم ضخم جداً يحول معظمه إلى أهله، فقال لي: أنا مدرس بهذه المدرسة، شاهدت هذا الفراش يقوم بالمسح، معي كأس من الشاي صببتها لي، فقلت له: تفضل، فهل تصدقون أن هذِا الكأس من الشاي الذي قدمه لهذا الفراش كان سبب إسلامه؟ الفراش نظر إليه، وقد مضى عليه خمس سنوات في هذه المدرسة، لم يسلم عليه أحد، ولم يقرأ عليه إنسان السلام، وهو يعمل بصمت بهذا

الأجر الزهيد، قال له: لماذا قدمت لي هذه الكأس؟ قال له: والله لا لشيء إلا لأني رأيتك تخدمنا، يعني نوعًا من المودة، قال له: أنا أحمل ماجستير في العلوم، هذا أثر الفقر، فقال لي: لما سمعت أنه يحمل ماجستير في العلوم صعقت، قال لي: دعوته إلى البيت، ودعوت أستاذ علوم يحمل شهادة عليا، وجئنا بموسوعة باللغة الإنكليزية، وقلنا له: اقرأ، قرأ وشرح، يعني كلامه صحيح، هو طبعاً ليس مسلماً، قال: ما الذي دعاكم لأن تدعوني للبيت، وهذا شرف عظيم، فقالوا له: نحن نتمنى أن تكون مسلماً، قال: ما الإسلام؟ قال لي هذا الصديق: والله بقينا أربعة أسابيع كل يوم ندعوه إلى البيت، ونشرح له الإسلام إلى أن أعلن إسلامه واتصل بالله عز وجل وحسن إسلامه .

فأنا أتمنى مِن المسلم أن يكون دقيقاً، لو عندك صانع بالمحل، هو صانع عندك، لكنه عند الله ليس صانعاً، وإنما هو عبد لله، قد يكون عند الله أعظم منك، قد يكون أقرب إلى الله منك، وأنت صاحب المحل، فالإنسان كلما ارتقى إيمانه يحترم الآخرين، ولا يتكبر عليهم، والدليل سيدنا الصديق، قال:" وليت عليكم ولست بخيركم ".

مناقب الصديق :

روى البخاري في صحيحه، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: " كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ فَسَلَّمَ وَقَالَ إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ فَقَالَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثًا ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَ أَثَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالُوا لَا فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَعَّرُ حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ مَرَّتَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي مَرَّتَيْنِ فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا "

(أخرجه البخاري فر صحيحه عن أبي الدرداء)

" ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كان له كبوة إلا أخي أبا بكر لم يتلعثم "

(ورد في الأثر)

هذا مقام كبير، ومع ذلك لما توفي النبي لم يختل توازنه، وما اختل توحيده، قال : **" من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت " .**

انظر إلى خليفة المسلمين :

أخواننا الكرام، كان هذا الصحابي يقوم بأعمال لا تصدق، فقبل أن يكون خليفة كانت له خدمات جلية لأبناء حيه، ومن هذه الخدمات أن له جيرانًا يتامى صغار، وعلى رأسهم عجوز كبيرة في السن، فكان يحلب لهم الشياه في الليل، يؤم هذه البيوت فيحلب لهم الشياه، ويؤم بيوتًا أخر فيطهو لهم الطعام، وكان يقدم خدمات يترفع عنها أصغر داعية الآن، أأنا أخدم فلانًا؟ ليس لدينا إلا الكلام فقط، وإلقاء الخطب، ولما صار خليفة، تناهى إلى سمعه حسرة العجائز، لأنهن سيحرمن من هذه الخدمة الجليلة التي يقوم بها هذا الرجل الصالح، وذات يوم قرع دارًا مِن تلك الديار، فسارعت فتاة صغيرة لتفتح الباب، وإذا بها تصيح: جاء حالب الشاة، من هو حالب الشاة ؟ سيدنا الصديق، خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وخليفة المسلمين، لما عرفت أن سيدنا الصديق طرق الباب، وهو خليفة المسلمين، قالت: ويحك يا بنيتي ألا تقولين خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام، ما هذا الكلام؟ يقول كتاب السيرة: يطرق مع نفسه، ويهمهم بكلمات لعل لسان حاله، يقول: دعيها لقد وصفتني بأحب الأعمال إلى الله، هذا الوصف أحب إليه من كلمة خليفة المسلمين .

أرحم أمتي بأمتي أبو بكر :

قالوا: لو قدر لأبي بكر بشمائله الفذّة أن يكون في منصب الخلافة في عصرنا هذا، أكان منهجه سيتغير؟ يقول كاتب السيرة: إنه لم يحلب الشياه، ولكن سوف يقدم خدمات أخرى تتناسب مع هذا العصر، إنه تعليق لطيف، لذلك وصف النبي هذا الصحابي الجليل بأوصاف، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

" أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ "

(أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك في سننه)

وأرحم الخلق بالخلق رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكلما ازدادت الرحمة في قلبك، فهذا دليل على أنك أقرب إلى الله، وأبعد قلب عن الله عز وجل القلب القاسي، هل تعرفون أن امرأة بغية رأت كلباً يلهث من شدة العطش، يأكل الثرى من شدة العطش، فنزلت إلى البئر وملأت خفها ماء، وارتقت وسقت هذا الكلب، فغفر الله لها .

انظر إلى إنسان العصر الحضاري ؟

تأتيني أحيانا شكاوى، أن طفلاً يتيمًا في محل يتمنى أن يأخذ شهادة، فطلب من صاحب المحل أن يخرج من المحل قبل ساعة إلى مدرسة ليلية، فلم يرض، وقال: عندما يتعلم يترك محلي، اتركه خادمًا عندي، أما ابنه فيحبه أن يكون طبيبًا، قلبه مثل الصخر .

مرة شاهدت بعيني صاحب محل تجاري، ابنه في العطلة الصيفية كان في المحل، وثمة صانع مِن سن ابنه تماماً، فبعث أثوابًا إلى جهة، وحمل هذا الصانع أول ثوب، وثاني ثوب، وثالث ثوب، فلم يستطع أن يحمل أكثر، فقال هذا الصانع: لم أستطع يا سيدي، فقال له صاحب المحل: أنت شاب فاحمل، ولم ينتبه إلى نفسه فجاء ابنه وحمل، فقال له: انتبه يا بني لا تحمل، انتبه لظهرك .

هذه العنصرية، التناقض القذر المخزي، رحمتك بأولادك فلا قيمة لها، لأنها فطرية، وليست كسبية، أودعها الله فيك كي تستمر الحياة، لكن بطولتك في الرحمة العامة، أن ترحم إنسانًا لا تعرفه، ارحم إنسانًا مقطوعًا، إنسانًا ضعيفًا، هذه هي الرحمة .

مآثر الصديق :

سيدنا الصديق في قلبه رحمة كبيرة، عندما رأى سيدنا بلالاً يعذّب من قبل أمية بن خلف، فأراد أبو بكر أن يشتريه منه، وعندما اتفقا على بيع بلال إلى سيدنا الصديق كي ينقذه من العذاب، يقول أمية بن خلف تحقيراً لشأن بلال: خذه، فلو أبيت إلا أوقية واحدة لبعتك بها، فقال سيدنا الصديق: والله لو أبيت إلا مئة ألف لأعطيتك، إنْ كان لا يساوي عندك أوقية فإنه يساوي عندي مئة ألف، اشتراه منه ووضع يده تحت إبطه، وقال: هذا أخي حقاً .

كان أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام إذا ذُكر الصدِّيق، يقولون: هو سيدنا وأعتق سيدنا، يعنون بلالاً .

سيدنا عمر خليفة المؤمنين علم أن بلالاً قدم المدينة، فخرج لاستقباله، حسب العادة الحديثة، إذا كان الضيف رئيس دولة يستقبله رئيس دولة، وإذا الضيف رئيس وزارة يستقبله رئيس وزارة، وإذا الضيف وزير خارجية يستقبله وزير خارجية، أمّا أنْ يخرج رئيس دولة (خليفة) ليستقبل شخصًا كان إلى أجل قريب عبدًا فهذا هو الإسلام .

وهناك قصة تعرفونها، وقف أبو سفيان ساعات طويلة في باب عمر فلم يؤذن له، وصهيب وبلال يدخلان بلا استئذان، فتألم أبو سفيان، فلما دخل على عمر عاتبه، وقال له: أبو سفيان، زعيم قريش يقف ببابك ساعات طويلة، ولا يؤذن له، وصهيب وبلال يدخلان ويخرجان بلا استئذان، فقال له سيدنا عمر:

أأنت مثلهما؟ عندما كانا يعذبان، أين كنت حينها؟ وخضت ثلاث حروب ضد رسول الله عليه الصلاة والسلام، بينما هما كانا يجاهدان مع رسول الله عليه الصلاة والسلام .
مما يروى من طرائف الأخبار، قالوا: لم يعرف ولو مرة واحدة قاتل أحدًا، أو شاتم، أو أساء، أو تخلى عن مروءة، أو بخل بماله أو جاهه .

عبادة الصديق :

بعد وفاة سيدنا الصديق رضي الله عنه، ذهب عمر يسأل زوجته أسماء بنت عميس، كيف كان أبو بكر يعبد ربه عندما يخلو بنفسه؟ فأجابته قائلة: كان إذا جاء وقت السحر، قبيل الفجر، قام فتوضأ وصلى، ثم يستمر يصلي، ويتلو القرآن، ويبكي ويسجد، ويبكي ويدعو، وكنت أنا أشم في البيت رائحة كبد تشوى، فبكى عمر رضي الله عنه و قال: أنَّى لابن الخطاب مثل هذا ، وقال عمر: ما أنا إلا حسنة من حسنات أبي بكر .

الوصف الجسدي للصديق :

بعض كتاب السيرة يصفون شكله، قالوا: " كان أبيض اللون، نحيل الجسم، خفيف العارضين، أحنى الظهر، معروق الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، عاري الساقين، كما يقال أيضاً: كان يُرى ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً، كان يرى أكثر دهره صامتاً، فإذا تكلم بز القائلين " .
مرة مُدح هذا الصحابي الجليل، فقال: **" اللهم اجعلني خيراً مما يقولون، وقال أيضاً: واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون "** إنني أرى من السنة أنّ الإنسان إذا مُدح أن يستغفر الله، فهناك نص أشمل من هذا الدعاء .

شمائل الصحابة :

الحديث عن هؤلاء الصحابة، حديث ممتع ومسعد، و الإنسان إذا تحدث عن أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام عاش في جنة القرب، في وهج الأخلاق، في روعة البطولات، في جمال القيم، قيم على بطولات على قرب من الله، على إخلاص، على تواضع، على فطنة، على ذكاء، على مواقف حازمة، فالإنسان يحتاج إلى هذه المثل، و إلى تلك القيم، كي يهتدي بها في حياته، و الإنسان يقلد من فوقه، نحن إذا عمِلنا عملا طيبًا فهو تقليد، لكن أصحاب رسول الله الكرام كانت أفعالهم أصيلة حقيقية .

بمثل هؤلاء نقتدي :

ما القصد من تدريس سيرة صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ ليكونوا قدوة عملية لنا في الحياة، يقول عليه الصلاة و السلام:

" إن الله اختارني و اختار لي أصحابي "

(ورد في الأثر)

هؤلاء الصحابة الكرام نماذج بشرية راقية جداً، ولا بد لواحد منا من أن يلتقي مع أحد الصحابة، إما في السن، أو في الدور الاجتماعي، وإما في الموقف، أو في النموذج، لذلك كل إنسان من المؤمنين ينبغي أن يتخذ من أحد الصحابة الكرام الذي يتوافق مع مرتبته ليكون هذا الصحابي قدوة له .

فسيدنا الصديق هو التلميذ الأول لرسول الله عليه الصلاة والسلام أصدقهم و أكملهم و أشدهم حباً ووفاء و تضحية وأقربهم إلى الله عز وجل .

باب البطولات لم يغلق :

أحب أن أقول كلمة قبل أن أختم هذا الدرس: إن أبواب البطولات مفتحة في كل العصور، أليس بإمكانك أن تكون مثالا صادقًا في تعاملك مع أخوانك؟ أليس بإمكانك أن تضحي من أجل نشر هذا الحق؟ أبواب الخير مفتحة في كل العصور، فلذلك نحن حين ندرس هذه الموضوعات، فالقصد أن تترجم إلى ممارسات، وأن يكون هؤلاء الصحابة الكرام في قلوبنا وفي حياتنا .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا عمر بن الخطاب - الدرس (1-7) : حياته في الجاهلية وتبدله من الكفر إلى الإيمان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-01-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

من مصادر التشريع :

أيها الأخوة، مع الدرس الأول من سيرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه، لا تنسوا أن النبي عليه الصلاة والسلام، يقول:

" فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ " .

(أخرجه ابن ماجة عن العرباض بن سارية في سننه)

قبل أن نمضي في الحديث عن سيرته ينبغي أن نقف وقفة قصيرة عند حقيقة أساسية، هذه الحقيقة هي أن أصول الإسلام تبدأ بالقرآن الكريم، وهو وحي السماء إلى الأرض، وتأتي سنة النبي القولية بيان وتفصيل لهذا الأصل الأول، قال تعالى:

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

(سورة النحل الآية: 44)

وتأتي سيرته العملية تجسيد لفهم النبي عليه الصلاة والسلام لكتاب الله، وتجسيد لبيان ما في كتاب الله الكريم، بقي في أصول الإسلام أصل رابع وهو أن صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم، رضي الله عنهم بنص القرآن الكريم، قد تقول: الشيخ محي الدين رضي الله عنه، وقد تذكر اسم عالم وتترضى عنه دعاء لا تقريراً، ولكن صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم، رضي الله عنهم رضاء تقريرياً، لا رضاء دعائياً، إذاً: هؤلاء الصحابة على كثرتهم يمثلون نماذج إيمانية كلُّها مقبولة، فهذا الغني، وهذا الفقير، وهذا الشيخ الكبير، وهذا الشاب الصغير، وهذا الذي نشأ في نعم لا تعد ولا تحصى، وهذا الذي هاجر، وهذا الذي مرض، وهذا الذي عَمَّر طويلاً، وهذا الذي مات في سن الشباب، هذا الذي مات حتف أنفه، وهذا الذي مات في ساحة المعركة، هؤلاء الصحابة الذين رضي الله عنهم على كثرتهم يمثلون النماذج الإيمانية التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن .

لذلك نحن مع عملاقٍ كبير من عمالقة الإسلام، والعملقة هنا عملقة إيمانية، مع عملاقٍ كبير من المؤمنين الذين عاصروا النبي عليه الصلاة والسلام، والذين صحبوه بصدقٍ وإخلاص، هذا الصحابي الجليل شخصيَّته شخصيةٌ فذَّة، كلما درسنا من سيرته تنكشف لنا جوانب لم نكن نعرفها من قبل، حتى

إن علماء التاريخ في شتّى بقاع الأرض يحتفلون بهذا الخليفة العظيم، لأنه يمثّل أحد القيم الإنسانية الخالدة، وقد سمعت أنه في بعض البلاد الغربية متحف كبير مكتوب على بابه كهف العدالة، وفي هذا المتحف نماذج من سيرة هذا الخليفة الراشد .

مكانة عمر بن الخطاب في الجاهلية :

أيها الأخوة، كان يعقد في مكة سوق عُكاظ، أي مؤتمر أدباء، مؤتمر للشعراء، يتبـارى الشعراء فيما بينهم، ويعرضون قصائدهم على المؤتمرين و المشاهدين، وكان شيخ كبير من شيوخ هذا المؤتمر أو هذا السوق (عكاظ) قافلاً إلى بلدته، فالتقى بمن يقول له: **" هل علمت النبأ العظيم يا أخا العرب؟ فقال هذا الشيخ: وأي نبأ عظيم؟ قال: ذلك الرجل الأعسر اليسر، ويتساءل الشيخ قائلاً: الذي كان يصارع في سوق عكاظ؟ قال: أجل هو، قال: ما باله يا فتى؟ قال: لقد أسلم واتبع محمدًا " .**

إن الإنسان أحياناً يتحرك حركة لا يلتفت إليها أحد، وهناك أشخاص عظماء إذا تحركوا حركة ملؤوا الدنيا بأخبارهم، فهذا الصحابي الجليل كان شديد البأس في الجاهلية، ويفيق هذا الشيخ من دهشته، ويقول: **" أما والحق ليوسعنهم خيراً أو ليوسعنهم شراً "** يعني رأى شخصية فذة، قوية ، مصممة، همّتها عالية، والحقيقة لقد أوسعهم خيراً .

من سمات عمر بن الخطاب :

من سمات هذا الصحابي الجليل أنه كان إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، قالوا: " هذا الصحابي لم يخف قطُّ في حياته أبداً، ولم يختلج جنانه الصامد أمام رهبة أو فزع " هذا الصحابي الجليل تنطبق عليه الآية الكريمة:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

(سورة فاطر الآية : 1)

علماء النفس قالوا: " هناك تسعون بالمئة من الجنس البشري متوسطو القدرات، وخمسة بالمئة متفوقو القدرات، وخمسة بالمئة أيضاً مقصرون في قدراتهم " فكان هذا الصحابي الجليل من المتفوقين .

خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام :

النبي عليه الصلاة والسلام كان يدرك قيمة هذا الصحابي، قيمة هذا الرجل قبل أن يسلم ، النبي عليه الصلاة والسلام أوتي فهماً عميقاً، وأوتي إدراكاً دقيقاً، وأوتي خبرة في الأشخاص، هو يدرك أن هذا

الإنسان لو أسلم لخرج منه خير كثير، هذا الكلام يسوقنا إلى تعليقٍ طريف هو أن المسلمين بعضهم عبء على الإسلام، وبعضهم الآخر الإسلام عبء عليهم، يعني يحملونه، ينهضون به، فإذا أردت أن تكون عند الله مرضياً لا تكن ممن يحملك الإسلام، بل كن ممن يحمل الإسلام، يحمله دعوة، يحمله تطبيقاً، يحمله خدمة، يحمله غيرة، يحمله نشراً، يحمله تجسيداً، شتَّان بين من يحمل الإسلام، وبين من يحمله الإسلام، هذا الصحابي كان لفترة زمنية من ألدّ أعداء الدين، من ألدّ أعداء النبي عليه الصلاة والسلام، ولا أدلّ على ذلك مِن أنه ذهب ليقتله، ويريح الناس منه، ولكن حينما أسلم كان من أكبر المدافعين عن الدين، ومن أكبر الصحابة الذي خدموا هذا الدين، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول:

" اللَّهُمَّ أعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ " .

(أخرجه الترمذي عن ابن عمر في سننه)

وهذا يقودنا مرة ثانية إلى التفوّق، فلا تكن من عامة الناس، ولا تكن على هامش الحياة، ولا تكن إنساناً لا يقدم ولا يؤخّر، لا ينفع ولا يضر، لا يعرف أحدًا ولا يعرفه أحد، تفوّق لأن أبواب البطولة مفتّحة لكل الناس، والنظرية التي تقول: " بأن ذكاء الإنسان محدود، وأن قدراته محدودة هذه نظرية باطلة " حل محلها نظرية أخرى، وهي أن في الإنسان قدرات كامنة إذا فجرت جاءت بالمعجزات، وأنجزت الحضارات .

جدد إيمانك :

أيها الأخوة، الشيء الذي كان متاحاً للصحابة الكرام متاح لكم أيضاً، الله هوهو، كتابه بين أيديكم، فرص الأعمال الصالحة ما أكثرها، أعمال الدعوة، أعمال الخدمة، أعمال الإنفاق، أعمال الرعاية، والقوانين التي قنَّنها الله هي هي، إذا أخلصت له، وأقبلت عليـه، واصطلحتَ معه ترى العجب العجاب، ترى العجب العجاب في سعادتك التي لم تكن تعرفها، في الطمأنينة التي كنت تفتقدها، في التوازن الذي كنت بحاجة إليه، في هذا اليسر في أعمالك الذي تلحظه بشكل صارخ، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل الآية : 5-7)

ذكرت في درس من الدروس، أن الوعود التي وعد الله بها المؤمنين هي وعود من قِبل خالق الكون، ولزوال الكون أهون على الله من ألا تقع، فإذا لم تجدها فشك في إيمانك، بل جدد إيمانك، كما قال الله عزَّ وجل:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الذاريات الآية: 50)

باب البطولة مفتوح :

سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأرضاه ألا يعد خامس الخلفاء الراشدين، سيدنا صلاح الدين الأيوبي الذي رد أوروبا بأكملها ألا يعد سادس الخلفاء الراشدين، إن باب البطولة مفتوح دائماً، ما عليك إلا أن تتحرك، وإلا أن تصدِق، وإلا أن تعطي ربّك كل جهدك وطاقتك، وكل قدراتك، وكلَّ ما تملك، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(سورة البقرة الآية: 3)

اسمعوا مني هذه الحقيقة، إذا كنت داعياً إلى الله عزَّ وجل، فكلما كنت أشد صدقاً وإخلاصاً ساق الله إليك المخلصين الصادقين، وكلما كنت أقل إخلاصاً وأقل صدقاً التف حولك الأقل صدقاً وإخلاصاً، إذا أردت أن يكون حولك أناس طائعون لله عز وجل فكن أنت أسبقهم إلى طاعة الله عز وجل، لا يُعقل أن تتمنى على الله أُناساً أصدق منك، أو أطوع لله منك، أو أقرب إلى الله منك، أو أشد إخلاصاً منك، كنت أقول لكم هذا الدعاء دائماً: **" اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني، اللهم إني أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك، اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيءٍ يشينني عندك، اللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك " .**

(دعاء مأثور)

إذا بحثت عن النخبة فمعك الحق، لأن هؤلاء النخبة يقدمون الشيء الكثير بجهد يسير، لشدة إخلاصهم.

سر الفرق بين هجرة النبي وهجرة عمر :

النبي عليه الصلاة والسلام، شخص واحد، جاء الحياة وغادرها، وترك الهدى في معظم بلاد الأرض، قلب المجتمعات البشرية رأساً على عقب، نشر الفضيلة، نشر الرحمة، نشر الهدى وهو واحد، الله عزَّ وجل حاضر وناظر إليك، يقول عبد الله بن مسعود: " ما زلنا أعزةً منذ أسلم عُمر، كان إسلامه فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمةً، وما نستطيع أن نصلّي بالبيت حتى أسلم عمر " .

لكن هذا الكلام إياكم أن تفهموه فهما آخر، أيكون عمر أشجع من رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ لا والله، كنا إذا حمي الوطيس كنا نلوذ برسول الله عليه الصلاة والسلام، فلم يكن أحد أقرب إلى العدو

منه، لكن اسمعوا هذه الحقيقة: سيدنا عمر يمثّل نفسه، لكن النبي عليه الصلاة والسلام مشرع، فلو لم يأخذ الحيطة، ولو لم يأخذ الأسباب لعد اقتحام الأخطار سنة، ولعد أخذ الأسباب حراماً، هذا هو الفرق، سيدنا عمر ليس مشرعاً فإن أصاب فلنفسه، وإن أخطأ فعليها، لكن النبي عليه الصلاة والسلام مشرع، وهذا يقودنا دائماً إلى الفرق بين الحكم الشرعي والموقف النفسي، سيدنا الصديق شرب لبناً ثم علم بعد أن شربه أنه مال حرام فتقيأه، يا ترى تقيؤ الطعام حكم شرعي أم موقف شخصي؟ موقف شخصي يدل على شدة ورعه، سيدنا الصديق أعطى كل ماله لرسول الله عليه الصلاة والسلام، قال:

" يا أبا بكر ماذا أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله " .

(ورد في الأثر)

هذا موقف يدل على أعلى درجات التضحية، هل هو حكم شرعي؟ لا، لأن معظم الناس لا يستطيعونه ، الشرع جاء مع الخط العريض، مع الأكثرية المتوسطة لا مع الأقلية المتفوقة .

إليكم بياناً في وصف ما جاء في قوة الخطاب :

يقول بعض كتّاب السير الذاتيـة: **" في الجاهلية كانت حربه للإسلام تكاد وحدها تعدل أذى قريش جميعها، وفي الإسلام صارت حربه للوثنية تكاد تعدل مقاومة الإسلام بأسره "** حجمه كبير جداً، إذا اتجه إلى الحق بكل إمكاناته، وحينما كان يحارب هذا الدين فحربه لهذا الدين تعدل حرب قريش كلها، وحينما حارب الوثنية بعد أن أسلم حربه يعدل مقاومة الإسلام كله للوثنية .

لذلك حينما يقول بعض العلماء: " هو عملاق الإسلام " وهو في الحقيقة كان عملاقًا في الشكل، كان فارع الطول، عريض المنكبين، قوي البنية، فبعض كتّاب السير أرادوا أن يسحبوا هذه العَمْلَقة في جسمه إلى العملقة في إيمانه .

الفرق بين التفوق والتطرف :

أيها الأخوة، يجب أن تعلموا أن هناك فرقاً دقيقاً بين التطرف والتفوق، الإنسان إذا تطرف خرج عن الوسط، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)

(سورة البقرة الآية : 143)

معنى وسط غير وسْط، إذا كان حرف السين ساكناً أي بمكان متوسط، تقول: هذا الرجل وسْط بين رجلين، أما وسط، أي معتدل لا إلى التهور ولا إلى الجُبن، لا إلى إنفاق المال إسرافاً ولا إلى منعه

تقتيراً، لا إلى الخمول المميت ولا إلى التهور المقيت، فالوَسَط هو الاعتدال، والحقيقة دائماً وسط بين طرفين .

فهذا الصحابي الجليل لم يكن متطرفاً بل كان متفوقاً، فكأن التطرف حركة أفقية، بينما التفوق حركة عمودية، وأنا أهيب بكم أن تبتعدوا عن التطرف، وأن تقتربوا من التفوق، كلما زدت من إخلاصك، زدت من استقامتك، زدت من بذْلك وتضحيتك، زدت نفسك في طلب العلم تفوقت، وكلما أخذت فرعاً من فروع الدين، وبالغت به على حساب فروع الدين الأخرى فقد وقعت بالتطرف والغلو، ونعوذ بالله من التطرف، ولا أكتمكم أن تاريخ المسلمين، ولا سيما في عصور التخلف، كان سلسلة مواقف متطرفة تبعتها ردود فعل متطرفة، نحن نبحث عن التفوق لا عن التطرف .

وقد ذكرت لكم من قبل أن الله سبحانه وتعالى في آيتين اثنتين ينهانا عن الغلو في الدين ، ومن أدق تعاريف الغلو في الدين: أن المغالي يأخذ كُلِية من كُليَّات الدين فيجعلها الدين كلّه، أو يأخذ فرعاً من فروع الدين فيجعله كُلِيَة من كُلِيَّات الدين، أو يعتقد بشخص فيرفعه فوق مقامه بكثير، هذا غلو .

إليكم هذا المثال للتوضيح :

الحقيقة سأريكم مثل مبسط في الفرق الدقيق بين التطرّف والتفوّق، لو أن طفلاً عمره عشر سنين، نموه بشكل متوازن تفوّق، أما أن تنموَ بعض الخلايا نمواً عشوائياً على حساب الخلايا الأخرى فهذا صار مرضاً خطيراً، فالتطرف نمو غير طبيعي، نمو غير منضبط بجانب على حساب جانب، لكن التفوق نمو طبيعي متوازن، فالمتفوق ينمو عقله، وينمو قلبه، ويرقى عمله، فلديه توازن، أما إذا نما العقل على حساب القلب وقعنا في السفسطة، وإذا نما القلب على حساب العقل ربما وقعنا في الزندقة، وإذا نما العقل والقلب وتخلَّف العمل فقد ضيعنا الحياة الدنيا في القيل والقال، وإذا كان هناك في العالم الإسلامي صحوة فأخطر شيء نخشاه على هذه الصحوة التطرف لا التفوق .

قصة إسلام عمر :

في قصة إسلام هذا الخليفة أحداث مثيرة، فذات يوم لاهب كما يقول كتاب السيرة خرج هذا الرجل العملاق من داره وسيفه على عاتقه ميمماً وجهه شطر دار الأرقم حيث كان النبي عليه الصلاة والسلام، ونفر من أصحابه المؤمنين يذكرون الله هناك، وفي الطريق يلقاه نعيم بن عبد الله فيرى ملامحه تتفجّر بأساً ونقمة، فيقترب من عمر، ويقول: " إلى أين يا عمر؟ فيجيبه: إلى هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها فأقتله " سيدنا عمر ظن أن هذا الذي يعنفه قد أسلم

أيضاً، فقال له: " لعلك صبأت، إن تكن فعلت فو اللات والعزى لأبدأن بك" ونعيم يعرف تماماً أن ابن الخطّاب يعني ما يقول، فينهي الحوار بعبارةٍ تلوي زمام عمر إلى جهة أخرى، لأنه لم يحتمل وقعها الشديد، قال: " ألا تعلم يا عمر أن أختك وزوجها قد أسلما وتركا دينك الذي أنت عليه؟ أخته فاطمة بنت الخطاب، إذًا: ماله ولدار الأرقم، وقد اقتحم الخطر دارَه وعرينَه، وهكذا توجه إلى دار أخته ليسوي معها الحساب، قرع الباب قرعاً رهيباً، وقيل:" من؟ قال: عمر، أما خبّاب فسارع إلى مخبأ قصي في الدار، وأما أخت عمر وزوجها فقد استقبلاه لدى الباب يغشاهما ذهول المفاجأة، ولم تنس بنت الخطاب في هذه الغمرة الداهمة الصحيفة الكريمة التي بها آيات الله فخبّأتها تحت ثيابها من شدة خوفها من عمر، قال عمر: ما هذه الهينمة التي سمعت عندكم؟ (سمعت صوت قراءة) أجابا: لا شيء، إنها نجوى وأحاديث، قال لهما: سمعت أنكما صبأتما، قال سعيد: أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك؟ ولم يمهله عمر، فوثب عليه في عنفوانه، وأخذ برأسه يجرّه ويلويه، ثم ألقاه أرضاً، وجلس فوق صدره، أي أن كل الضغط النفسي الذي في عمر صبَّه على زوج أخته، وحينما تقدَّمت أخته لتدافع عنه أصابتها لطمة أدمت وجهها، عندئذ صاحت به وكأنها بوق سماوي، يا عدو الله، أتضربني على إيماني بالله الأحد؟ ألا ما كنت فاعلاً فافعل، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ".

الموقف تغير :

هنا حصل التبدل، هنا حصلت في نفس عمر حادثة غريبة جداً، هذا الاندفاع الشديد ضد هذا الدين الجديد توقف، عندئذ قال لأخته: " هات الصحيفة التي كنتما تقرأان بها لأنظر ما فيها، وتجيبه أخته: كلا إنه لا يمسّه إلا المطهّرون، اذهب واغتسل وتطهَّر" تغيَّر عمر، قبل قليل كان إنسانًا مخيفًا موظَّفًا للباطل ضد الحق، حينما صاحت بوجهه افعل ما أنت فاعل، إنني أشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمَّد رسول الله، تبدل، " ويمضي عمر ليغتسل، ويعود إلى أخته، ويأخذ الصحيفة مِن يديها، ويقرأ فإذا فيها:

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى *إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى* وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة طه الآية: 1-8)

ويتابع فإذا في هذه السورة:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)

(سورة طه الآية : 14-16)

سيدنا عمر صار إنسانًا آخر، عانق الصحيفة وقبَّلها، ونهض واقفاً، وقال: لا ينبغي لمن هذه آياته أن يكون له شريك يُعبد معه، دلوني على محمد، سيدنا خبَّاب بن الأرت خرج من مخبئه ، وهرول صوب عمر صائحاً، أبشر يا عمر؟ فو الله لقد استجيب دعاء رسول الله لك، فهو قد سمع الدعاء:

" اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ " .

(أخرجه الترمذي عن ابن عمر في سننه)

هكذا تكون التوبة :

وحينما التقى عمر بالنبي عليه الصلاة والسلام، قال للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله ألسنا على الحقّ في مماتنا ومحيانا؟ قال: بلى يا عُمر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى الحق إن مِتُّم وإن حييتُم، فقال عمر: ففيم الاختفاء إذاً؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن ولنخرجن معك ، بعد أن كُشف له الغِطاء، ورأى الحقيقة الناصعة، ودخل النور إلى قلبه، قال هذا الصحابي الجليل: والله لن أترك مكاناً جلست فيه بالكُفر إلا جلست فيه بالإيمان " .

لذلك يصحب التوبة ثلاثة أشياء: العلم، والحال، والعمل، فالعلم يورث حالاً، والحال يورث الندم، لكن عن العمل، قالوا: هو ثلاثة أنواع، إصلاح في الماضي، وإقلاع في الحاضر، وعزيمة في المستقبل .

ما السر في هذا الانقلاب الغريب ؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: " أَكْرَمُهُمْ أَتْقَاهُمْ . قَالُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ . قَالَ : فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ . قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ . قَالَ : فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ قَالُوا : نَعَمْ. قَالَ : فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا " .

(أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الصحيح)

ما الذي حصل حتى انقلب اندفاعه اندفاعاً آخر؟ قد يقول أحدكم: أيعقل هذا؟ أيكون الإيمان بين عشية وضحاها؟ أيدخل الإيمان إلى قلب الإنسان في طرفة عين؟ فالسحرة ألم يستعن بهم فرعون ليدحضوا الحق الذي جاء به موسى؟ وكيف انقلبوا فجأة من أناسٍ يعملون لصالح الكُفر إلى أناسٍ قد آمنوا في أعلى درجات الإيمان؟ لأن فرعون حينما علم أنهم قد آمنوا مع موسى هددهم بالقتل والصلب والتعذيب، فما زادوا عن أن قالوا له:

(فاقضِ مَا أَنْتَ قاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه الآية: 72-73)

هل العبرة في الوصول إلى إشراقة الإيمان الزمن ؟

هنا تعليق أقوله، وأرجو أن يُفهم كما أريد، أحياناً الإنسان يسلك سبيلاً طويلاً جداً حتى يصل إلى الإيمان، سنوات تلو سنوات يفكّر في آيات الله، ويجاهد نفسه وهواه إلى أن يصل إلى إشراقة الإيمان، وأحياناً تنقدح إشراقة الإيمان في قلب مؤمن في وقت قصير جداً، فما العلاقة بين هذا الأمد الطويل وبين هذا الأمد القصير؟

أيها الأخوة، الجواب دقيق جداً، في الإنسان عنصر اسمه عنصر الصدق، ولا أعني بالصدق أن تقول كلاماً يطابق الواقع، فهذا مفهوم آخر للصدق لا أعنيه إطلاقاً، الصدق الذي أريده أن تكون صادقاً مع نفسك في طلب الحقيقة، أن تكون الحقيقة غاليةً عليك جداً بحيث لا تنام الليل إلى أن تصل إليها، ويستعمل بعض العلماء كلمة الصدق، للتعبير عن مدى جدية الإنسان في طلب الحقيقة، وعن مدى إصراره في طلب الحقيقة، وعن مدى اندفاعه إليها، فإذا زاد الصدق أحرق المراحل، نحن في النظام العام لا يمكن أن نعطي طالب الإجازة إلا بعد أربع سنوات في الدراسة، في بعض البلاد الراقية بالمقياس المادي تعرف أن هناك أناسًا متفوقين، لذلك تسمح لأحدهم أن يجتاز هذه الأعوام الأربعة بثلاثة أعوام، لكن نحن ليس لدينا في النظام التعليمي إنسان في وقت قصير جداً ينال أعلى شهادة، فهذا مستحيل، لكن الله سبحانه وتعالى كما يقول بعض العلماء: **" طليق الإرادة والفعل، فإذا عَلِم من إنسان صدقاً عالياً جداً، أعطاه في وقت يسير ما لا يعطي الأقل صدقاً في وقت طويل "** لذلك قال بعض العلماء: **" المراتب العُليا لا لمن سبق، ولكن لمن صدق " .**

فقد تجد أحياناً شخصًا دخل إلى حلقة دينية، يقول لك: مضى علي ثلاثون سنة، وحالي مكانك، وإنسان آخر لم يمض على مجيئه إلى حلقةٍ من حلقات العلم أو حلقةٍ من حلقات التربية أكثر من أشهر، فإذا هو يتألّق تألقاً يفوق هذا الذي مضى عليه عشر سنين أو عشرين سنة، فالعبرة لمن صدق لا لمن سبق، أي أن لله رجالاً إذا أرادوا أراد، كلما ازداد صدقك رأيت ما لا يصدَّق، رأيـت من توفيـق الله، ومِن إكرام الله، ومِن تأييد الله، ومِن نصر الله، ومِن هذه القوة التي تجذب المؤمنين، وقد ورد في بعض الأحاديث: " ما أقبل عبدٌ على ربه إلا جعل قلوب المؤمنين تنساق إليه بالمودة والرحمة " .

من أمراض العصر :

في حياتنا المعاصرة مرض خطير، ولكن اسمه لطيف "المجاملة"، المجاملة تعني مجتمع لا يتناصح أفراده أبداً، مجتمع تسوده المصالح لا المبادئ، مجتمع كل واحدٌ منه ينتمي إلى ذاته وإلى مكاسبه فلا يعنيه من أمر الناس شيئاً، لذلك مما يقال عن الأذكياء غير الأتقياء أنهم يملكون قدرة على التلوّن عجيبة، إن جلسوا مع زيدٍ من الناس أشعروه أنهم أقرب الناس إليه، وإن جلسوا مع عبيد أشعروه أنهم أقرب الناس إليه، وإن جلسوا مع أصحاب مبادئ معيّنة تمثّلوا هذه المبادئ وأثنوا عليها حتى تظنّ أنهم من أصحابها، هذه المجاملة أو هذا النفاق هو الذي يؤخِّر نشر الحق .

العاقل المغلوب بالهوى ترجى هدايته :

إذا وجدت شخصًا لا يصلّي، لا يعتقد بالدين، لكنه شهم، صاحب مروءة، صادق، قلبه رحيم، فتوقَّعْ له كلَّ خير، وانتظرْ منه أن يكون من كبار المؤمنين، لأن هذا الخُلُق لا يقود صاحبه إلا إلى الإيمان، لذلك لما رأى النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً قد أسلم، وكان في الجاهلية ذا أخلاقٍ عالية، فقال عليه الصلاة والسلام:

" أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ " .

(أخرجه مسلم عن عروة بن الزبير في الصحيح)

أخواننا الكرام، الناس في محيط ما بين أقربائهم، وفي محيط أعمالهم، وفي محيط علاقاتهم، إذا رأيتَ الشخص الصادق الأمين، صاحب المروءة الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، إن رأيت في إسلامه تقصيراً، أو في إيمانه تقصيراً، فاطمعْ بهذا، ودلَّه على الله، لأنه إذا أسلم وآمن، فكلُّ هذا الخير أصبح في خدمة المسلمين .

العداوة تكون للمبدأ الذي يعتنقه الشخص وليس لذاته :

بالمناسبة عندما جاء عُمير بن وهب إلى المدينة ليقتل النبي عليه الصلاة والسلام ، ومعه سيفٌ مسموم، ورآه عمر، وعرف في وجهه الشر، وقاده إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال: " يا رسول الله هذا عُمير جاء يريد شراً " والقصة تعرفونها، حينما أسلم عُمير، ماذا قال عمر؟ قال: **" والله دخل عُمير إلى النبي، والخنزير أحبُّ إليَّ منه، وخرج من عنده وهو أحبُّ إليَّ من بعض أولادي ".**

أقول لكم: إذا كان الشخص عدوًّا للدين فاجرًا منافقًا مستهزئًا، لو رأيته تاب إلى الله، واصطلح معه، إن لم ينقلب بغضك له محبّة فلست مؤمناً، علامة إيمانك أنك لا تعادي الأشخاص بذواتهم، ولكن تعادي اتجاهاتهم، فإذا رجع عنها فهو أخوك حقاً، فهذه علامة الإيمان .

الهدف من الدروس :

هذا الصحابي له قصة طويلة، أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفّقنا جميعاً إلى معرفتها واقتفاء معالمها، ومرة بعد مرة أرجو الله سبحانه وتعالى أن تنقلب هذه الحقائق إلى سلوك، لا أن تكون هذه الحقائق حقائق تاريخية نقرؤها لنملأ بها وقت الفراغ، عندئذ لا تقدم ولا تؤخّر .

أنا أعرضت قصداً عن كل فصل نتعب في فهمه، وقد نقع في سوء الظن، نحن نحبُّ من التاريخ ما كان حافزاً لنا، ونعرض عما كان عبئاً علينا، فنحن نأخذ هذه الصفحات فلعلها تدفعنا إلى الإيمان دفعاً حثيثاً .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا عمر بن الخطاب - الدرس (2-7) : عملاق الإسلام ورعه ،ادبه مع الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-01-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف ينسى الإنسان أصله ؟

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سيرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما خطب هذا الخليفة العظيم على المنبر، ألقى خطبته المشهورة، فإذا به يقول: " أيها الناس، لقد رأيتني وأنا أرعى غنم خالات لي من بني مخزوم، نظير قبضة من تمرٍ أو من زبيب " ثم ينزل هذا الخليفة من على المنبر بين دهشة الناس واستغرابهم، فما علاقة هذا الكلام بخطبته؟ يتقدم أحد الصحابة، وهو سيدنا عبد الرحمن بن عوف، ويقول له: **" يا أمير المؤمنين، ما أردت بهذا الكلام؟ وما علاقته بالخطبة؟ وما مناسبته؟ وما سببه ؟ فيقول عمر: " ويحك يا ابن عوف، خلوت بنفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرفها قدرها " .**

فأحدكم يكون في أول حياته شابًا مغمورًا لا أحد يعرفه، طالب مدرسة أمله أنْ يأخذ شهادة عالية، فيصبح طبيبًا مثلاً، دخله كبير، ويشعر بقيمته الاجتماعية، لعله بهذا يتيه على الناس ، لعله بهذا ينسى أنه كان شاباً فقيراً، وقد فضَّل الله عليه فجعله بهذا المنصب، بهذه الشهادة، بهذا الدخل، وهناك تجار كانوا فقراء فصاروا أغنياء، فالإنسان إذا نسي ماضيه، فهذا مِن كفر الجميل

ما هو السبيل إلى تذكير الإنسان بنعم الله عليه ؟

فإذا كان الإنسان فيما مضى فقيرًا، لا أحد يعرفه، وليس له زوجة، وليس له ولد، وليس له مأوى، ثم تفضل الله عليه، وأخذ الشهادة، وتعين في الوظيفة، أو صار طبيبًا أو مهندسًا، وأخذ الناس، يقولون له: الدكتور فلان، المهندس فلان، فلا ينظر إلى نفسه أنه كسب ذلك بذكائه، وإنما ذلك فضل الله عليه، الإنسان كلما تذكر ماضيه، فهذا التذكُّر يعينه على شكر نعم الله عليه، والإنسان تحت ألطاف الله عزَّ وجل، فكل أمره وسلامته بيد الله .

يملك خبرة في موضوع يعيش منها كريمًا، فلو أن نقطة دم تخثرت في أحد شرايين المخ، لنسي عندها كل معلوماته، ولَفَقَد ذاكرته، فهناك فقد ذاكرة كلي ، وفقد ذاكرة جزئي ، لو أن الإنسان اختل عقله، لما

عاد له محل في بيته مع أولاده، أصبح محله في مستشفى الأمراض العقلية، ولو أنّ إنسانًا وقع له حادث سير، وأصيبَ بشلل في نصفه الأسفل، أو في العمود الفقري لخسر كل شيء، فالإنسان تحت ألطاف الله عزَّ وجل .

فالإنسان لا ينظر إلى آخر أوضاعه، دائماً يرجع إلى أقل أوضاعه، إلى بداياته، فإذا أقام موازنة بين البدايات وبين النهايات، يرى فضل الله العظيم عليه، لذلك دائماً تذكّر قوله تعالى:

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة النساء الآية : 113)

إذا دخل الإنسان إلى بيته، أو خرج منه، رأى نفسه طليقة، محبوبة، معززة، مكرمة، هذه كلها نعم، أنعم الله بها عليه، رأى صحته تامة، أولاده لهم سمعة طيبة، سيرتهم محمودة، زوجته ترضيه، فكل أمره خير، سأل الملك وزيرَه: " مَن الملِك؟ فقال الوزير: أنت، فقال الملِك: لا ، بل الملك من كان له بيت يؤويه، وزوجة ترضيه، ورزق يكفيه " .

هذه الموازنة أجروها دائماً بين البدايات والنهايات، من أجل أن تحب الله عزَّ وجل، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

" أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللَّهِ وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي " .

(أخرجه الترمذي عن ابن عباس في سننه)

والعلماء قالوا: " تمام النعمة الهُدى " فالنعم المادية لا تتم على صاحبها إلا بالهدى، لأن النعم بلا هدى تنقطع بالموت، لكن بالهدى تستمر إلى ما بعد الموت .

من علامة توفيق المؤمن توظيف النعمة بما يرضي الله :

مرة حدثني أخ، وهو رجل قام بإنشاء مشروع خيري، معهد تدريب مهني للفتيات الفقيرات، وكان البيت في منطقة راقية، فكان ثمنه كبيرًا، فكل فتاة فيه تتعلم الخياطة، فقد تكون متسوِّلة فتصير منتجة، وهذا عمل طيِّب، وهذا الشخص المحسن الذي قدَّم البيت بمبلغ ضخم وجهَّزه، أقاموا له حفل تكريم على هذا العمل، فقال لي شخص: لقد ألقيت كلمة انفردت بها من بين كل المتكلمين، قلت لهذا المحسن: أنا لا أثني على إحسانك، ولكن أدعوك إلى أن تشكر الله عزَّ وجل، أنْ جعلك تعطي، ولم يجعلك تأخذ من جمعيتنا مساعدة شهرية .

كلام طيب، كان من الممكن أن يكون واقفًا على الباب، وينتظر مساعدة شهرية، فعندما يكرم الله عزَّ وجل إنسانًا، ويجعله يعطي بدلاً من أن يأخذ، يجعله يتكلم بدلاً من أن يسمع، يجعله قدوة، فهذا فضل من الله عزَّ وجل، لا تقل: أنا متفوق، بل قل: إنّ الله سمح لي أنْ أذكره، فأطلق لساني في ذكره، وسمح لي

أن جعل الهدى على يدي، وهذا من فضل الله على الإنسان، فالإنسان كلما توفرت له النعم ليذوب شكراً لله عزَّ وجل .

إخلاص عمر وميزاته :

تتحلى هذه الشخصية الفذة بصفة نادرة، الإنسان دائماً في الأعم الأغلب، إذا تفوق يصيبه الغرور، الغرور من لوازم المتفوقين، فإنسان لا يستطيع الغرور أن يتسلل إليه، وهو في قمة المجتمع فهذه شخصية فذة، فقد دخل الإسلام بحفاوة النبي البالغة، وصحبه الكرام، كان دخوله حدثًا كبيرًا، وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

" اللَّهُمَّ أعِزَّ الإِسْلامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ " .

(أخرجه الترمذي عن ابن عمر في سننه)

ولما دخل في الإسلام صار المسلمون يعبدون الله جهراً بعد أن كانوا يعبدونه سراً، إذاً: ترك أثرًا واضحًا في إسلامه .

هناك شيء آخر، النبي عليه الصلاة والسلام نعته بالفاروق، والنبي عليه الصلاة والسلام إذا نعت إنسانًا بصفة عالية فهي حق، لأنه فرق بإسلامه بين الحق والباطل، وبين الملاينة والمواجهة، وكان هذا الصحابي الجليل عملاق الإسلام يقترح على النبي بعض الاقتراحات فينزل بها الوحي، تصبح قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة، ويسمونها علماء السيرة موافقات عمر، إذاً: هذه ميِّزة أيضاً، ثم يصبح هذا الصحابي الجليل خليفة المسلمين، وكل هذه الميّزات ما سمح للغرور أن يطوف حول نفسه .

وفي أيامنا إذا حقّق شخص أقل تفوُّق فلا أحد يستطيع أن يكلّمه، وإنْ جمع شيئًا من المال، وصار غنيًّا تعالى على الناس، أو حقق لنفسه شيئًا من القوة صار يتيه بها على الناس، أو تميَّز بشيء من الوسامة صار يزدري الآخرين، فالتفوُّق من أخطاره الغرور، والغرور مدمِّر .

سيدنا عمر، كان يقول: " لقد كنا ولسنا شيئاً مذكوراً حتى أعزَّنا الله بالإسلام، فإذا ذهبنا نلتمس العزَّة في غيره أذلنا الله " الحقيقة أنّ العرب في الجاهلية ما كانوا شيئًا مذكورًا، قبائل متفرِّقة، تعيش فوضى في حياتها، فوضى في علاقاتها، فوضى في كسب المال، يعيشون في تخلُّف شديد، وفي خشونة بالغة، وفي عِداء مستمر .

مقولته المشهورة في التاريخ ، ما تقول ياعمر لربك غداً ؟

أدق شيء في حياة هذا الصحابي الجليل، أن كلمة كانت تتردد على لسانه كل أوقاته : " ما تقول يا عُمر لربِّك غداً " لماذا أعطيت؟ لماذا منعت؟ لماذا تجهَّمت؟ لماذا ابتسمت؟ لماذا رضيت؟ لماذا غضبت؟ لماذا طلَّقت؟ لماذا خاصمت؟ كل موقف له سؤال، فسيدنا عمر دائماً وأبداً، يقول: " ما تقول يا عُمر لربِّك غداً ؟ ".

وأنا أتمنى على نفسي وعليكم كلما تحركنا حركة أن نهيئ لله جواباً يوم القيامة، لمَ أعطيت ولدك بيتاً، ولم تعطِ أخاه؟ لمَ زوَّجت هذه الفتاة بأعلى درجة، والثانية لم تفعل معها ذلك؟ فإذا واحد منا في حركته اليومية، في شرائه، في بيعه، في نشاطاته، في بيته، في خلوته، في كل موقف يفعله يهيئ لله عزَّ وجل جوابًا، فهذا يكون إنسانًا نرجو الله أن ينجو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

الأحنف بن قيس، قال: " كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل، قال: يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعنِّي على فلان فقد ظلمني ، سيدنا عمر رفع دُرَّته، وخفق بها رأس هذا الرجل، وقال له: تدعون أمير المؤمنين، وهو معرَّضٌ لكم، مقبلٌ عليكم، حتى إذا شُغِل بأمرٍ من أمور المسلمين أتيتموه أعنِّي أعنِّي، فانصرف الرجل غضبان أسفاً، فقال عمر: عليَّ بالرجل ، فلما عاد ناوله مخفقته، وقال له: خذ واقتص لنفسك مني، قال الرجل: لا والله، ولكني أدعها لله ، وانصرف ، قال الأحنف: وعُدتُ مع عمر إلى بيته، فصلى ركعتين، ثم جلس يحاسب نفسه، ويقول: ابنَ الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله، كنت ضالاً فهداك الله، كنت ذليلاً فأعزَّك الله، ثم حملك على رقاب الناس، فجاءك رجل يستعين بك فضربته، فماذا تقول لربك غداً ؟ " .

حرص عمر على الرعية :

سمّاه علماء السيرة: " جبَّار الجاهلية، عملاق الإسلام " كان يؤمّ الناس في الصلاة فَيَسمع بكاءه ونشيجَه أصحاب الصف الأخير، مرة هرول وراء بعير أفلت من حظيرته، ويلقاه عليُّ بن أبي طالب فيسأله: " إلى أين يا أمير المؤمنين؟ فيجيبه: بعير ند من إبل الصدقة أطلبه، فيقول له علي كرَّم الله وجهه: لقد أتعبت الذين سيجيئون من بعدك، فيجيبه عمر بكلمات: والذي بعث محمداً بالحق، لو أن عنزةً ذهبت بشاطئ الفرات، لأخذ بها عمر يوم القيامة " أي أن إدراكه للمسؤولية كان بدرجة تفوق حد الخيال .

ودائماً نشيده: " كنت وضيعاً فرفعك الله، كنت ضالاً فهداك الله، كنت ذليلاً فأعزَّك الله، فماذا تقول لربك غداً؟ "

انظر إلى خشيته من ربه :

سيدنا عمر كان موحِّدًا، ومن أعلى درجات التوحيد، مرة كان مع أبي موسى الأشعري قال: " يا أبا موسى هل يسرُّك أننا أسلمنا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهاجرنا معه، وخضنا معه كلَّ المعارك؟ هل يسرُّك أن عملنا هذا كلّه يُردُّ علينا لقاء أن ننجوَ كَفافاً، لا لنا ولا علينا؟ " يعني أن أعمالنا فيها قصور، فيجيبه أبو موسى: " لا والله يا عُمر، فلقد جاهدنا، وصلّينا، وصمنا، وعمِلنا خيراً كثيراً، وأسلم على أيدينا خلق كثير، وإنا لنرجو ثواب ذلك " أيهما أكثر عملاً صالحاً سيدنا عمر أم أبو موسى الأشعري؟ سيدنا عمر، صاحب العمل العظيم، يتمنّى أن ينجو كفافاً، لا له ولا عليه، فيجيبه عمر قائلاً: " أما أنا فو الذي نفس عمر بيده لوددتُ أن ذلك يردُّ عليّ، ثم أنجو كفافاً، رأساً برأس، لا لي ولا علي".

ماذا نفهم من هذا الموقف الذي وقفه سيدنا عمر؟ نفهم من هذا الموقف أنه يخشى الله خشية لا حدود لها، وأنه يعرف عظمة الله عزَّ وجل ولا يرى عمله أمام هذه العظمة .

من عرف نفسه فقد عرف ربه :

قد ذكرت لكم ذات مرة، أن أحد الصحابة عيَّنه النبي قائداً للجيش للجولة الثالثة، فأول قائد كان سيدنا زيد بن حارثة، والقائد الثاني سيدنا جعفر، والقائد الثالث سيدنا عبد الله بن رواحة، أول قائد أخذ الراية فقاتل بها حتى قُتل، والثاني أخذ الراية فقاتل بها حتى قُتل، والقائد الثالث قالوا تردد حوالي ثلاثين ثانية، وقال:

يا نفس إلا تُقتلي تموتي   هذا حمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما رضيت   وإن تولّيت فقد شقيــت

فلما ذكر النبي خبر أصحابه القادة، قال: " ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه " لأنه تردد، معناها أن الإنسان كلما عرف مقام ربه أكثر لا يرى عمله أمام هذه المعرفة، العمل لا تراه عظيماً إلا إذا كانت خشيتك قليلة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان قدوته، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

" أوذيت وما أوذي أحدٌ مثلي، وخفت وما خاف أحدٌ مثلي، ومضى علي ثلاثون يوماً ولم يدخل جوفي إلا ما يواريه إبط بلال " ومع ذلك كان يمضي الليل كله يصلّي ويتهجَّد، فلما قيل له: يا رسول الله لقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر، فماذا أجاب؟ قال: " أفلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا "

(أخرجه البخاري عن المغيرة في صحيحه)

الإنسان أحيانا يعمل عملاً صالحاً بسيطًا يتيه به أسبوعاً، ويقصِّر في صلواته، ويقول: عملنا كذا، فالنبي عليه الصلاة والسلام كلُّ هذه الأعمال البطولية، وكل هذا التهجُّد، وكل هذه التضحية والإيثار، استقلّه في جنب عظمة الله عزَّ وجل .

أرقى أنواع العبودية لله وأشرفها هو حبه وتوقيره والحياء منه :

الحقيقة أنّ الإنسان قد ينطلق في الدين ببواعث منوعة، فهناك بواعث الفزع، وبواعث الحب، والحب أرقى، تجد إنسان يخاف من النار، وإنسان يخاف من المصيبة، وإنسان يخاف من مرض الخبيث، وإنسان يخاف من مرض القلب، وإنسان يخاف من الإهانة، فتراه ينطلق مستقيماً على منهج الله بدافع الخوف، لكن بعض الصحابة كان الذي يدفعهم إلى الله عزَّ وجل الحب، حب الله وتوقيره والحياء منه، لذلك لو لم يخف عمر ما عصى الله، لو لم يكن للإثم عقوبة ما أثم، لو قال الله له: اعمل ما شئت فقد غفرت لك . ما خطر في باله أن يعمل إلا ما يرضي الله .

فإذا الواحد من المؤمنين تجاوز مرحلة الخوف إلى مرحلة الحُب، إلى مرحلة طلبِ ما عند الله عزَّ وجل، إلى مرحلة الشوق إلى الله عزَّ وجل، فهذه مرتبة جيدة جداً .

من أولئك الذاكرين لله هذا الصحابي الجليل :

فكان سيدنا عمر يعلم أن نعمة الإيمان والهدى والإمارة، إنما هي محض فضل من الله عزَّ وجل، وأن الله كان قادراً على أن يختصَّ بهذه النعمة غيره، وأن يخص بها سواه، أما وقد آثره بها، إذاً: فهذه فضلٌ مِنَ الله عزَّ وجل، هذا الذي أتمناه عليكم، إذا خصّك الله بشيء، جعلك عالمًا، جعلك طليق اللسان، وتنطق بالحق، جعلك في مركز اجتماعي مرموق، جعل لك في الأسرة مكانة، أي أنك صرت كبير الأسرة، فهذا فضل من الله عزَّ وجل، لا تعتقد أن هذا الشيء الذي حصلته بخبرتك وذكائك، بل هو فضل من الله ونعمة .

فكان سيدنا عمر، يقول: " ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيما " من شدة خوفه من الله عزَّ وجل، ومن شدة توقيره له، أما نحن، فنقول: الحمد لله الذي ولدت أم عمر عمر، أليس كذلك؟ لأننا استفدنا منه الكثير، وأعطانا مثلاً أعلى، وكان في حياته هاجس يومي، كان يقول دائماً : " لماذا فعلت هذا يا عمر؟ " يخشى أن يعمل عملاً يحاسبه الله عليه، فأبعدَ نفسَه عن كل المباحات التي يمكن أن تجره إلى خطأ .

انظر نصح عمر لأحد ولاته :

كتب مرة لعامله على البصرة عتبة بن غزوان، وهذا الكتاب مهم جداً، ويتضح منه بعض الحقائق، قال له: " لقد صحبت رسول الله عليه الصلاة والسلام فعززت به بعد الذِلّة، وقويت به بعد الضعف، وقد صرت أميراً مسلّطاً، وملكاً مطاعاً، تقول: فيُسمع منك، وتأمر فيطاع أمرك، فيالها من نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك، وتبطرك على من دونك، تحوط من النعمة تحوطك من المعصية، فهي أخوفها عندي عليك أن تستدرجك، وأن تخدعك فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنَّم، أعيذك بالله، وأعيذ نفسي من ذلك " هذه ليست نعمة، أصبحت نقمة .

وهذه الفكرة مهمة جداً، فمن الممكن أن تكون النعمة نفسها مزلقًا إلى الهلاك، فالنعمة هذه إذا رفعتك فوق ما أنت له أهل، أو جعلتك تتكبَّر على خلق الله، فلو كان الأمر كذلك فالمشكلة كبيرة جداً .

نصحه للصحابة أيضاً :

مرة سيدنا عمر رأى لحمًا معلّقًا بيدي جابر بن عبد الله، قال له: " ما هذا يا جابر؟ قال : " هو لحم اشتهيته فاشتريته، فقال: أو كلما اشتهيت اشتريت، أما تخاف أن يقال لك يوم القيامة:

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا)

(سورة الأحقاف الآية: 20)

مرة زاره حفص بن أبي العاص، وكان سيدنا عمر جالسًا إلى طعامه، فقال له: " تفضل ولكن حفصًا نظر فرأى قديداً يابساً يأكل منه عمر، فلم يشأ يجشّم معدته مشقَّة هضمه، فاعتذر شاكراً، فأدرك سيدنا عمر سر عزوفه عن الطعام، فقال له: ما يمنعك من طعامنا؟ فقال له: والله إنه طعامٌ خشن، وإني راجع إلى بيتي فأصيب طعاماً ليناً قد صُنع لي، قال ردًّا عليه: أتراني عاجزاً أن آمر بصغار الماعز فيلقى عنها شعرها، وآمر برقاق البر فيخبز خبزاً رقاقاً، وآمر بصاعٍ من زبيبٍ فيلقى في سَمن، حتى إذا صار مثل عين الحجل صُبَّ عليه الماء فيصبح كأنَّه دم غزال فآكل هذا وأشرب هذا " نحن لا نعرف هذه الأكلة، ولكنها تبدو معروفة في عهد سيدنا عمر ، فقال له حفص وهو يضحك: " إنَّك بطيِّب الطعام لخبير، فقال عمر: والذي نفسي بيده لولا أن تنقص حسناتي لشاركتكم في لين عيشكم، ولو شئت لكنت أطيبكم طعاماً، وأرفهكم عيشاً، نحن أعلم بطيب الطعام من كثير من آكليه، ولكننا ندعه ليومٍ تذهل فيه كل مرضعةٍ عما أرضعت، وتضع كل ذات حملٍ حملها، وإني لأستبقي طيباتي، لأني سمعت الله تعالى يقول عن أقوام:

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا)

(سورة الأحقاف الآية: 20)

انظر إلى أدبه مع الصديق :

عندما توفى النبي عليه الصلاة والسلام، قال له سيدنا الصديق: " يا عمر هات يدك نبايع لك" لكن عمر تخلّص منها ناجياً، إذْ قال: " بل إيَّاك نُبايع فأنت أفضل مني، قال أبو بكر: وأنت أقوى مني يا عمر، قال عمر: إن قوتي لك مع فضلك " أرأيتم كيف يعرفون أقدار بعضهم البعض؟ فليست بينهم عداوة ثأر.
عندما بويع سيدنا عمر بالخلافة، وقف مكان سيدنا الصديق على المنبر، فتذكر أنّ الصديق وقف هنا، فنزل درجة، فلما نزل درجة أثار انتباه الحاضرين، فقال سيدنا عمر: " ما كان الله ليراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر" ، فليس معقولاً أن أقف على درجته، يقولون: سيدنا عثمان لم ينزل درجة، ووقف محل سيدنا عمر دون أن ينزل، فأحَد خلفاء بني أمية سأل أحدهم: " لماذا لم ينزل عثمان درجة؟ فقال له: لو فعلها لكنت في قعر بئر" لأنه لو نزل كل خليفة درجة فسنضطّر إلى أن نحفر الأرض ليقف الخلفاء .

من لوازم الأخوة في الإسلام الدعاء لأخيه في ظهر الغيب :

ذات مرة سأل عمر عمَّاله في الأقاليم، فقال بعضهم: " أمّا بلدُ كذا فإنهم يرهبون أمير المؤمنين، ويخافون بأسه، وأما بلد كذا، فإنهم جمعوا أموالاً كثيرة، تنوء بها السفن، وهم في الطريق إليك، وأمّا بلد كذا فإن بها قوماً صالحين، يدعون الله لك، ويقولون: اللهم اغفر لعمر، وارفع درجته " أي أنه قد جاءته معلومات من الأقاليم، فبلد يرهبونه، وبلد يدعون له، وبلد جمعوا أموالاً طائلة ساقوها إليه، فقال سيدنا عمر معقباً: " أما من خافني فلو أريد بعمر الخير ما خِيف منه (هذه صفة ذم)، وأما الأموال التي تنوء بها السفن فلبيت مال المسلمين ليس لعمر، ولا لآل عمر شيء، وأما الدعاء الذي سمعتم بظهر الغيب فذلك ما أرجوه " ارتاحت نفسه لمن دعا له بظهر الغيب فهذه الدعوة مباركة ومستجابة .

خوفه من الإمارة على أهل بيته :

كان سيدنا عمر على فِراش الموت، وكان في حيرة شديدة لمن يسلّم له هذه الأمانة، أي الخلافة، فقال له المغيرة بن شُعبة: " أنا أدلُّك عليه يا أمير المؤمنين، قال: من هو؟، قال: عبد الله بن عُمر، فقال عمر: لا أرب لنا في أموركم، إني ما حملتها (أي الخلافة) فأرغب فيها لأحدٍ من أهل بيتي، إن كانت خيراً فقد أصبنا منها، وإن كانت شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد، ويسأل عن أمر أمة

محمد عليه الصلاة والسلام، ألا إني قد جَهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً، لا وزر ولا أجر، فإني لسعيد " فسيدنا عمر رفض أن تكون الولاية من بعده لعبد الله بن عُمر، وهو ابنه .
مرة قال لعبد الرحمن بن عوف: " يا عبد الرحمن لقد لِنتُ للناس، حتى خشيت الله في اللين، ثم اشتددت، حتى خشيت الله في الشدة، وايم الله لأنا أشد منهم فرقاً وخوفاً، فأين المخرج؟ " أي أنا خائف أكثر منهم، خائف أنْ أحاسَب على الشدة، وخائف أنْ أحاسَب على اللين، ثم يبكي، فيقول عبد الرحمن بن عوف، وهو يتملّى هذا المشهد ملياً: " أف لهم من بعدك " أي أعان الله من بعدك، لقد أتعب من سيجيء من بعده .

شدته في الإمارة على ولاته :

ذات مرة كان جالسًا مع أصحابه، فاقتحم المجلس رجل مكروب، تغشاه وعثاء السفر، وحين اقترب من الناس، رآهم وسمعهم يقولون لأحدهم: " يا أمير المؤمنين " فيتّجه صوبَ هذا الأمير، ويقول له في مرارة: " أأنت عمر؟ ويل لك مِن الله يا عمر، ثم يمضي لسبيله غير وان، ولا مكترث، لحق به الحاضرون في غيظ وحنق، ولكن عمر يناديهم ويأمرهم أن يعودوا لمجلسهم ، ويهرول هو وراءه وقلبه يرتجف .
لحقه حتى أدركه، فقال له: ويلي من الله، لماذا يا أخا العرب؟ فيجيبه الرجل: لأن عمالك وولاتك لا يعدلون بل يظلمون، ويسأل عمر: أي عمّالي تعني؟ فقال: عاملك على مصر، اسمه عياض بن غَنم، ولا يكاد عمر يسمع تفاصيل الشكوى، حتى اختار من أصحابه رجلين يقول لهما: اركبا إلى مصر، وأتياني بعياض بن غَنم " كان شديدًا على ولاته، ويحاسبهم دون هوادة .

بكاء عمر أثناء القرآن :

كان سيدنا عمر إذا سمع القرآن يبكي بكاء غير معقول، فكلما التقى بأبي موسى الأشعري، يقول له: " يا أبا موسى اتل علينا آيات من كتاب الله، ويقول: ذكرنا بربنا يا أبا موسى ، فيقرأ أبو موسى، ويبكي عمر" .
أخواننا الكرام، إذا قرأ أحدُكم القرآن، ولم يرتعش، أو يقشعر جلده، ولم تدمع عينه إطلاقاً، فو الله هناك مشكلة في حياته، هذا الكتاب فيه روحانية .
إذا لقي صبياً في الطريق يأخذه بيده، ويقول له وعيناه تبكيان: " ادعُ لي يا بني فإنك لم تذنب بعد " فالعظماء مع شدة عظمتهم تجدهم متواضعين حتى مع الصبيان .

صفات عمر :

وحينما كان يستقبل الموت، قال لابنه عبد الله: **" يا عبد الله خذ رأسي عن الوسادة وضعه فوق التراب، لعلَّ الله ينظر إلي فيرحمني"** أكثر آية كان يتأثر فيها، قوله تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون الآية : 115)

هذا الكلام موجَّه لنا جميعًا، حياتنا ليست عبثاً، الحياة لها رسالة كبيرة، يجب أن نطلب العلم، وأن نتعرَّف إلى الله، وأن نعرف منهج الله، وأن نطبِّق هذا المنهج، يجب أن نأمر بالمعروف ، وأن ننهى عن المنكر، وأن نعمل صالحاً .

كان نومه قليلاً، وكان أكله تقوتًا، وكان لبسه خشنًا، وكان يقظان دائماً، وكان يقول: " إذا نمت الليل أضعتُ نفسي، وإن نمتُ النهار ضيَّعتُ رعيَّتي "، وكلما التقى برجل، يقول له: " قل لي بربك ولا تكذبني، كيف تجد عمر؟ أتحسب أن الله راض عنه؟ أتُراني لم أخن الله ورسوله فيكم ؟ " فهو يرجو من الله السلامة، ليس إلا .

أيها الأخوة، كلما كان حسابك لنفسك شديداً، كان حسابك يوم القيامة يسيراً، فإذا حاسبتها حساباً يسيراً، كان حسابك يوم القيامة عسيراً، وأنا أنصح لكم أن تحاسبوها حساباً شديداً، ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلِّط .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا عمر بن الخطاب - الدرس (3-7) : عدله ومحاسبة نفسه الدائمة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-01-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

مآثر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب :

أيها الأخوة، مع الدرس الثالث من سيرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الفصل اليوم حول عدله الذي ليس له مثيل في التاريخ الإسلامي، فكان هذا الصحابي الجليل له ورع لا حدود له، يحاسب نفسه حساباً عسيراً، ويشعر أنه كلما كان منزهاً عن أي شبهة، كلما كان أقرب إلى الله سبحانه وتعالى .

لهذا الصحابي مواقف كثيرة وجليلة، مرة في عام المجاعة شعر أن أمعاءه تضطرب فخاطب بطنه، وقال: " قرقر أيها البطن، أو لا تقرقر، فو الله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صبية المسلمين" .

قبل كل شيء القصص التي سوف أتلوها على مسامعكم ربما سمعتموها مني كثيراً، لكن محور هذا الدرس ليس ذكر هذه القصص فحسب، ولكنّ التحليل هو الذي يعنينا من هذه الأحداث.

وفي روايةٍ أخرى، كان يأكل الزيت، ويبتعد عن السمن، لأن سعره مرتفع جداً، ويحبّ أن يسوي نفسه بعامة المسلمين، فقال لبطنه: " لتمرنن أيها البطن على الزيت ما دام السمن يباع بالأواقي " أي لندرتِه صار يباع بالأواقي .

لو طبق المسلمون هذه القاعدة :



أخلاق المؤمن مبنية على المؤاثرة

إذا طبَّق الإنسان هذه القاعدة في بيته، فما أكل طعاماً أكثر مما يأكل أولاده وزوجته وأهله، إذا سوى نفسه مع مَن حوله، فهذا الذي يجعل المسلم يتألق، وهذا الذي يجعل المسلم تهفو القلوب إليه .

فلو سوى الأب نفسه مع أولاده، والأم مع بناتها، والأخ الأكبر مع أخوته الصغار، تنشأ المودَّة الخالصة بين الأولاد وأبيهم،

وبين الأخوة وأخواتهم، وعلى هذا يكون المؤمن قد بنى حياته على المؤاثرة .

نحن عندنا قاعدتان: إما أن تؤثر نفسك على أخيك، وإما أن تؤثر أخاك على نفسك، فإن آثرت نفسك على أخيك فهذه اسمها الأثرة، وإن آثرت أخاك على نفسك هذه اسمها المؤاثرة، قال تعالى :

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

(سورة الحشر الآية: 9)

" مرة أمسك النبي عليه الصلاة والسلام بسواكين: الأول مستقيم، والثاني معوج، فأعطى السواك المستقيم لأحد أصحابه، وترك لنفسه المعوج " .

هذه إشارة دقيقة، فأخلاق المؤمن مبنية على المؤاثرة لا على الأثرة، أخلاق أهل الدنيا، وأخلاق المقطوع عن الله عزَّ وجل، وأخلاق المقصرين أساسها الأثرة، فالمؤمن يسعده أن يعطي، وغير المؤمن يسعده أن يأخذ .

لا يجوز في أحكام الشريعة الإسلامية معايرة المسلم أخيه المسلم بما يشتهي :

أحيانًا الرجل الراشد يصبر، لكن الصغير لا يصبر، فالصغير يشتهي كل شيء، ويطلب من والده كل شيء، ويلِح على والده أن يأكل بعض الأكلات، وأن يشتري بعض الحاجات، مِن هنا علّمنا النبي عليه الصلاة والسلام،

" فكان إذا قُدِّم للنبي فاكهة في بواكيرها يأخذ الفاكهة ويقبلها شكراً لله عز وجل " .

(ورد في الأثر)

وهذا التقبيل له معنيان:



المعنى الأول: الحمد لله الذي أحيانا إلى أن أدركنا هذه الفاكهة، الآن باعتبار وجود زراعة محمية فالأمور تداخلت، فدائما تجد خضارًا في غير وقتها، أما الأصل فكل فاكهة لها موسم، المعنى الأول شكراً لله عزَّ وجل على أن هيَّأ هذه الفاكهة للإنسان، وهذه من نعم الله عزَّ وجل .

المعنى الثاني: على أن أحيانا حتى أدركنا مجيء هذه الفاكهة، كان يقبلها، ويعطيها لأصغر طفل في المجلس .

يستنبط من هذا أيضاً، إذا كان لك ابن في مدرسة، أو في الروضة، وأنت ميسور الحال ، فتعطي ابنك فاكهة غالية جداً، وتقول: أتركه يأكل، ويشبع في حياتي، هذه معصية كبيرة، الطفل يشتهي، فإن أعطيته هذه الفاكهة، والذين حوله محرومون منها يشتهونها، فلا تعط ابنك حين ذهابه إلى المدرسة إلا الفاكهة التي يستطيع كل الناس شراءها .

والنبي عليه الصلاة والسلام في بعض ما ورد عنه:

" وإذا اشتريت فاكهة فاهدِ له منها " أي لجارك، " فإن لم تفعل فأدخلها سراً "

(أخرجه البيهقي في شعب الإيمان)

كان السلف الصالح يضع الفاكهة في سلّة، وعليها منديل، الآن توضع في كيس من النايلون الأبيض الشفاف، والله مشكلة

" وإذا اشتريت فاكهة فاهد له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها ".

(أخرجه البيهقي في شعب الإيمان)

هذا الحديث كله قواعد أخلاقية .

إليكم نموذج صحيح من هذا العصر يدل على المؤاثرة :

إنّ حياة المؤمن مبنية على المؤاثرة لا على الأثرة، حياة المؤمن مبنية على العطاء لا على الأخذ، المؤمن الصادق الذي يريد تأليف القلوب يسوّي نفسه مع الضعفاء، ومع عامة الناس .

سمعت عن رجل، يوم كانت هناك أزمة في بعض الفواكه، فكان البرتقال في الشتاء نادراً وغاليًا جداً، أقسم لي هذا الرجل، كان بإمكانه أن يشتري من هذه الفاكهة ما شاء له أن يشتري، قال لي: واللهِ أردت أن أشارك عامة الناس في سلوكهم بتقنين هذه الفاكهة، فلم أشتر منها مدة طويلة، وأقنعت أولادي أننا نحن مع الناس، إن أكل الناس نأكل، وإن لم يأكلوا لم نأكل، عندما يشارك الإنسان أخوانه المؤمنين بمشاعرهم، فهذا شيء نادر .

نموذج آخر من هذا العصر يدل على الأثرة :

وقد سمعت عن شخص في أحد أسواق الخضار، وكان سعر كيلو الكمأة ستمئة ليرة، فطلب شراء عشرة كيلو منها، ودفع ستة آلاف ليرة، وكان ثمة شخص آخر ينظر إليه، وهو يشتهي خمس ليرات، لذلك إذا لم يظهر الإنسان ما عنده من خيرات، ربما أصيب بالحسد، والعين تضع الجمل في القدر، وربنا عزَّ وجل قال:

(وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

(سورة الفلق الآية : 5)

وربنا عزَّ وجل قال:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ)

(سورة الناس الآية : 1-4)

فإذا أظهر الإنسان ما عنده، وخرج على قومه بزينته، فعرض النعم التي حباه الله بها أمام الناس، وافتخر بها، وتاه على خلق الله بها، ربما عاقبه الله عزَّ وجل كما عاقب قارون:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

(سورة القصص الآية: 79)

وقال الله عز وجل:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص الآية : 81)

فالإنسان لا يحبب الدنيا للناس، لا يزرع فيهم حبها، ولا يعرض أمامهم ما عنده من أشياء ثمينة ، ومن دخل كبير، ولا يحدِّثهم عن رحلاته، وعن مصروفه الكبير في رحلاته، فهذا الكلام ماذا ينفعهم؟ ليس هذا من شأن المؤمن، كن مع الناس .

كان يقول هذا الخليفة العظيم: " كيف يعنيني شأن الناس إذا لم يصبني ما يصيبهم ؟ " إذا أكل مما يأكلون، وشرب مما يشربون، وتحمَّل ما يتحمَّلون، وعانى ما يعانون، عندئذٍ يعنيه شأن الناس .

أكثر هذه القصص تتمحور حول أن هذا الخليفة العظيم سوّى نفسه مع أضعف الناس ومع أفقر الناس .

انظر إلى موقف عمر من والي أذربيجان :

ذات مرة جاءته هدية من أذربيجان، وهي طعام نفيس، دخل هذا الرسول المدينة في منتصف الليل فكره أن يوقظ أمير المؤمنين، فتوجَّه إلى المسجد النبوي الشريف، في المسجد سمع صوت رجل يصلي ويبكي ويناجي ربه، ومما سمع من كلام هذا الرجل: " ربي هل قبلت توبتي فأهنئَ نفسي أم رددتها فأعزيَها؟ " فقال هذا الرسول: " من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا عمر، قال: يا سبحان الله ألا تنام الليل؟ فيجيبه هذا الخليفة العظيم: أنا إن نمت ليلي كلَّه أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيَّتي " وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام: " إن لله أعمالاً لا يقبلها بالليل "

أي في النهار لا تقبل أعمال الليل، وفي الليل لا تقبل أعمال النهار، أرأيتم إلى هذا التوازن؟ التوازن بين عملين، بين الإحسان للخلق، والاتصال بالحق، وأكثر الناس يختل عندهم هذا الميزان، فإما أن ينكبّوا على الأعمال الصالحة، وينسون عباداتهم وأذكارهم واتصالهم بربهم، وإما أن ينكبوا على عباداتهم، ولا يفعلون شيئاً من الأعمال الصالحة، لذلك هذا التوازن، رهبان في الليل فرسان في النهار .



فلما أذَّن الفجر صلّى أمير المؤمنين بالناس، ودعا ضيفه إلى البيت، وقال لامرأته حفصة: " ماذا عندك من الطعام؟ قالت: ملح وخبز " كان فقراء المسلمين يأكلون اللحم، أما سيدنا عمر فكان طعامه الخبز والملح، بعد أن أطعم ضيفه، وقد ندم الضيف أشدّ الندم على أنه اختار طعام الأمير، قال: " ما هذا؟، قال: حلوى يصنعها أهل أذربيجان، وقد أرسلني بها إليك عُتبة بن فرقد " وكان والياً على أذربيجان، " فذاقها عمر فوجد لها مذاقاً شهياً، فسأل الرسول: أوكل المسلمين هناك يطعمون هذا؟ قال الرجل: لا، وإنما هو طعام الخاصة، فأعاد عمر إغلاق الوعاء جيداً، وقال للرجل: أين بعيرك؟ خذ حملك هذا وارجع به لعتبة، وقل له: عمر يقول لك: اتق الله واشبع مما يشبع منه المسلمون " .

شدته على أهل بيته :

سيدنا عمر لا يسمح لأهله أن يتجاوزوا الحدود، بل إن أهله كان عليهم تبعة مضاعفة فيما لو وقعوا فيما نهى عمر عنه، فكان إذا سنّ قانوناً، أو أمر أمراً، أو حظر أمراً، جمع أهله أولاً، وقال: " إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هِبتم هابوا، وإني والله لا أوتى برجلٍ منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب، فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر " .

فأيام يكون عند إنسان محل تجاري، وعنده موظّف وابنه في المحل، ابنه له معاملة لو أساء أشد الإساءة يتساهل معه، أما هذا الموظّف لو قصَّر أدنى تقصير يقيم عليه النكير، هذا الموظّف يرى بعينه، يرى

هذه التفرقة الواضحة بين ما يعامل به ابنه وبين ما يعامله به، فلذلك نحن لا نكون مؤمنين صادقين إلا إذا عاملنا أقرب الناس إلينا كما نعامل أبعد الناس عنا .

أحيانا الإنسان ابنه لا يحمِّله فوق ما يطيق، يخاف على ظهره، يخاف أن تنزلق إحدى فقراته، يخاف عليه المرض، فلماذا إذا كان عند هذا الرجل من يعمل عنده في محلّه التجاري أو في معمله يحمّله فوق ما يطيق؟ ما من صفة أبشع في الإنسان من التناقض، والمتناقض يسقط اعتباره بين المؤمنين، فانتبه قبل أن تعطي قاعدة، قبل أن تقيس بمقياس، قبل أن تستخدم طريقاً من الطرق، هل هذه مطبقة على نفسك وعلى بقية الناس، أم أن هناك مقياسًا لنفسك ومقياسًا للناس؟ وهذا التناقض يقع فيه الناس أشد ما يقعون، فابنته في البيت لها معاملة، أما زوجة ابنه فلها معاملة أخرى، الأولى في منتهى الرحمة والتسامح، والثانية في منتهى القسوة والشدَّة، أو الأم تعامل ابنتها في منتهى التساهل، وتعامل زوجة ابنها بمنتهى الشدة، هذا تناقض .

أصبحت القرابة من عمر مصيبة، وأية مصيبة، لأنها تحمل صاحبها عقاباً مضاعفاً .

السبب في تشديده على أهل بيته تطبيقاً لهذه الآية الكريمة :

هذا ينقلنا إلى آية كريمة، تقول:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

(سورة الأحزاب الآية: 32)

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

(سورة الأحزاب الآية: 30)

إذا أطاعت ربها، وقنتت لله ورسوله يؤتها أجرها مرتين، فالقدوة دائماً له حساب مضاعف، إن أحسن فله أجر مضاعف، وإن أساء فله وزر مضاعف .

كل إنسان ينظر إليه على أنه أب، أو معلم، أو معلّم في مهنة، أو تولى على أُناس أقل منه، فأي منصب قيادي مهما بدا متواضعاً، كمعلم بصف، أو عرّيف على خمسة جنود، فهذا منصب قيادي، فالذي يتولى عملاً قيادياً إساءته عقابه مضاعف، وإحسانه جزاؤه مضاعف .

نزاهة الخليفة الراشد في رعيته وخاصة مع أهل بيته :

مرة خرج إلى السوق في جولة تفتيشية، فيرى إبلاً سمينة تمتاز عن بقية الإبل بنموّها وامتلائها، يسأل عمر بن الخطاب: " إبل من هذه؟ فقالوا: هي إبل عبد الله بن عمر، وانتفض أمير المؤمنين، وكأن

القيامة قد قامت، وقال: عبد الله بن عمر، بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين " (أي الله يعينك) وأرسل في طلبه فوراً، وأقبل عبد الله يسعى، وحين وقف بين يدي والده، أخذ عمر يفتل سبلة شاربه، وتلك عادته إذا أهمَّه أمرٌ خطير، فأحياناً الإنسان يحكُّ رأسه، أو يحرِّك ثيابه، كل إنسان له طريقة، فقال: " ما هذه الإبل يا عبد الله؟ فأجاب: إنها إبل أمضاء (يعني هزيلة) اشتريتها بمالي، وبعثت بها إلى الحمى (أي إلى المرعى) أُتاجر فيها، وأبتغي ما يبتغي المسلمون، فقال عمر متهكماً تهكُّماً لاذعاً، ويقول الناس حين يرونها: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين، وتسمن إبل ابن أمير المؤمنين، فبع هذه الإبل، وخذ رأس مالك منها، واجعل الربح في بيت مال المسلمين " هذا إدراك نادر، أن هذا ابن أمير المؤمنين، فلعل الناس أعطوه فوق ما يستحق، ولعلهم أكرموه، أرأيتم هذه النزاهة .

مرة وصل إلى المدينة مال كثير من أموال الأقاليم، فتذهب إليه ابنته حفصة رضي الله عنها لتأخذ نصيبها، وتقول له مداعبة: **" يا أمير المؤمنين حقّ أقاربك في هذا المال، فقد أوصى الله بالأقربين" فيجيبها جاداً: " يا بنيتي حقّ أقربائي في مالي، أما هذا فمال المسلمين، قومي إلى بيتك " أي اذهبي، طبعاً من علمه ذلك؟ إنّه النبي عليه الصلاة والسلام، حينما قال لأحب الناس إليه فاطمة البتول: " لا يا فاطمة إن في المسلمين من هم أحوج منك لهذا المال، والله لا أؤثرك على فقراء المسلمين " .**

(ورد في الأثر)

مرة أراد هذا الخليفة العظيم أن يسجِّل في الديوان أسماءَ أصحابه حتى يعطيهم من فيء المسلمين بحسب أقدارهم، وسبقهم في الإسلام، قال: " ضعوا عمر وقومه في هذا الموضع، فقد رُتِّبت الأسماء ترتيباً بحسب السبق في الإسلام، وبحسب قُرب الصحابي من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، هكذا أمر، فجاءت القائمة كالآتي: بنو هاشم أهل بيت النبي، ثم آل أبي بكر، ثم آل عمر، فنقل اسمه، واسم أهله إلى مكان بعيد جداً، فلما ذهبوا إليه أهله بني عدي راجين أن تظل أسماؤهم في مقدمة الديوان كي ينالوا أنصبائهم، قالوا له: ألسنا أهل أمير المؤمنين؟ فأجابهم عمر: بخ بخ، أردتم الأكل على ظهري، وأن أهب حسناتي لكم، لا والله لتأخذن مكانكم، ولو جئتم آخر الناس، لكم مكان لا يتقدم ولا يتأخر، ولو كنتم أهلي وأقربائي " .

وفائه للإمارة :

وقال هذا الخليفة حينما اقترح عليه أحدهم أن يجعل ابنه في عمل، قال: " من استعمل رجلاً لمودة أو قرابة لا يحمله على استعماله إلا ذلك، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين " يعني على مستوى صف، لو عيَّنت عريفًا على هؤلاء الطلاَّب من يلوذ بك، وفي الصف من هو أكفأ منه، فقد خُنت الأمانة .

ألم يقل مرة لأحد الولاة: " ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارقٍ أو ناهب ؟ قال: أقطع يده قال: فإن جاءني

من رعيَّتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، فإن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوْعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خُلِقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فأشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية " .

رحمة عمر برعيته :

مرة قال له بعض أصحابه: " إن الناس هابوا شدتك " أي أنهم خائفون منك، فقال هذا الخليفة: " بلغني أن الناس هابوا شدَّتي، وخافوا غِلظتي، وقالوا: قد كان عمر يشتدّ ورسول الله عليه الصلاة والسلام بين أظهرنا، ثم اشتدَّ علينا وأبو بكر ألين منه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟ " أصبحت مشكلة، كان يشتد والنبي الكريم يخفف، وكان يشتد وسيدنا الصديق يخفف، فقال: " ألا من قال هذا فقد صدق، فإني كنت مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عونه وخادمه، وكان عليه الصلاة السلام لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة، وكان كما قال الله تعالى:

(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة الآية : 128)

فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يُغمدني، فلم أزل مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ذلك حتى توفَّاه الله وهو عني راضي، والحمد لله على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد " كنت بيد رسول الله عليه الصلاة والسلام قوة، إما أن يستخدمني وإما ألا يستخدمني، هو كان رحيم، وأنا شديد .

قال: " ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر، فكان من لا تنكِرون دعته وكرمه ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلِطُ شدتي بلينه فأكون سيفاً مسلولاً حتى يُغمدني، أو يدعني فأمضي، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عزَّ وجل، وهو عني راض، والحمد لله على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد " كلام واضح جداً .

فقال: " ثم إني قد وليّت أموركم أيها الناس، فاعلموا إن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم بعضاً " .

أرأيتم أيها الأخوة، هو للمؤمنين رؤوف رحيم، لين مطواع، أما أهل الظلم والتعدي فهو شديد عليهم .

الشدة في موضعها رحمة :

هذه الشدة أشار القرآن إليها، قال:

(وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

(سورة النور الآية: 2)

الرأفة في غير موضعها مؤذية جداً، إنسان قتل يجب أن يُقتل، لقوله تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة الآية : 179)

إنسان زنى يجب أن يُرجم إن كان محصناً، أو أن يُجلد إن كان غير محصن، قال تعالى:

(وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

(سورة النور الآية: 2)

أما ولي الأمر، إذا بلغه انتهاك لحرمة وعفا عنها، قال عليه الصلاة والسلام :

" لا عفا الله عنه إن عفا ".

(ورد في الأثر)

العفو عن إنسان مجرم، مفسد في الأرض، هذا العفو ليس خلقاً نبيلاً، إنما هو ضعف، و توسيع للفساد بين الناس .

المنهاج الذي سار عليه عمر في أثناء خطبة الخلافة :

قال: " أيها الناس، لكم علي خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم عليَّ أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه " يعني لكم عليّ أن لا آخذ من أموالكم شيئاً إلا ضمن الحق، " ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى" أي بما يتناسب الدخل مع المعيشة، " ولكم عليَّ أن أسُدَّ ثغوركم " أي أحصن الحدود، وأحمي البلاد من عدوان الأعداء، " ولكم عليَّ أن لا ألقيكم في المهالك " فالإنسان غالي، والإنسان هو الأصل، فإذا ألقي في المهالك فقد خان الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، " وإذا غِبتم في البعوث (في الجهاد) فأنا أبو العيال حتى ترجعوا " أي أنا متكفل بأهلكم وأولادكم، " فاتقوا الله وأعينوني على أنفسكم بكفِّها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاّني الله من أمركم " .

لذلك سيدنا عمر بن عبد العزيز، اختار رجل من كِبار العلماء، واعتقد اسمه عمر بن مُزاحم، قال: " يا عمر كن معي دائماً، وانظر فيما أحكم، فإن رأيتني ظلمت فأمسكني من تلابيبي وهُزَّني هزاً شديداً، وقل لي: اتق الله يا عمر فإنَّك ستموت " هذه وظيفتك .

التعويض العائلي الذي فرضه عمر لولادة كل مولود في الإسلام :

مرة قدم بعض تجَّار المدينة، وخيَّموا عند مشارفها، وقد أراد هذا الخليفة العظيم أن يقوم بجولة تفتيشية في أطراف المدينة، فاصطحب معه عبد الرحمن بن عوف ليتفقد أمر القافلة، وكان الليل قد تصرّم، واقترب الهزيع الأخير منه، وعند القافلة النائمة اتخذ عمر وصاحبه مجلساً على مقرُبةٍ منها، وقال عمر

لعبد الرحمن: " فلنمض بقية الليل هنا نحرس ضيوفنا " سيدنا عمر الخليفة العظيم جلس ليحرس هذه القافلة، ويحرس أموالها، وهما جالسان سمع صوت بكاء صبي، فانتبه عمر وصمت، وانتظر أن يكُفَّ الصبي عن بكائه، ولكنه تمادى فيه، فمضى يسرع صوبه، و قال لها: " اتق الله وأحسني إلى صبيِّك" أي أرضعيه، ثم عاد إلى مكانه، وبعد حينٍ عاود الصبيُّ البكاء، فهرول نحوه

كم قتلت من اطفال المسلمين ؟

عمر، ونادى أمَّه، قُلت لك: " اتق الله وأحسني إلى صبيِّك " وعاد إلى مجلسه ، لم يكد يستقرّ حتى زلزله مرةً أُخرى بكاء الصبي، فذهب إلى أمه، وقال لها: " ويحك إني لأراكِ أم سوء، ما لصبيِّك لا يقرُّ له قرار ؟" أي لما لا ترضعيه؟ قالت وهي لا تعرفه: " يا عبد الله قد أضجرتني، إني أحمله على الفِطام فيأبى، سألها عُمر: ولما تحملينه على الفِطام؟ قالت: لأن عمر لا يفرض العطاء إلا للفطيم " أي أن التعويض لا يعطيه إلا للفطيم، قال: " وكم له من العمر؟ قالت: بضعة أشهر، قال: ويحك لا تعجليه " يقول صاحبه عبد الرحمن بن عوف، كأن سيدنا عمر صُعق، وأمسك رأسه بيديه، وأغمض عينيه، وقال: " ويحك يا ابن الخطاب، كم قتلت من أطفال المسلمين؟ " عد نفسه قاتلاً، لأنه أمر أن يُنفق التعويض على هذا الغُلام بعد الفطام، إذاً: أكثر الأمهات يحملن أطفالهن على الفِطام قبل الأوان من أجل أن تأخذ الأم تعويض غلامها .

ثم أمر منادياً نادى في المدينة: " لا تعجلوا على صبيانكم بالفطام، فإنا نفرض من بيت المال لكلّ مولودٍ يولد في الإسلام من دون فطام " وذهب ليصلي الفجر مع أصحابه، فالناس ما استبانوا قراءته من شدة بكائه، وكان يقول: " يا بؤساً لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين؟ " وبعضهم يذكر أنه كان يقول: " ربي هل قبلت توبتي فأهنّئ نفسي أم رددتها فأعزيها ؟ " .

خذ عمر قدوة لك :

لهذا الخليفة العظيم مواقف كثيرة جداً، ويمكن أن نهتدي بها، فإذا طبَّق كل إنسان هذه السيرة في بيته، في عمله إذا كان رئيساً لدائرة، وعنده عدد من الموظفين فتواضع لهم، وعدل بينهم، وسوَّى نفسه معهم

حتى أحبّوه، فلما أحبوه أحبّوا دينه، وأحبّوا إسلامه، وأحبوا منهجه في الحياة، عندئذٍ الإسلام ينمو، الإسلام لا ينمو بالكلام، ولكن ينمو بالمثل العُليا، وينمو بالتطبيق .

يا أيها الأخوة، أنا ما أردت أن أمْتعكم بهذه القصص، أردت أن تكون هذه القصص منهجاً لكم في حياتكم، أردت أن تترجم هذه القصص في حياتكم اليومية .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا عمر بن الخطاب - الدرس (7-4) : تقشفه وحرصه على سلوك ولاته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-02-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

لغز لا يحله إلا الإيمان بالله :

أيها الأخوة الكرام، ليس غريباً أن أقول لكم: إننا أمام وقائع كالأساطير، ولكنها وقعت ، الأساطير قصص لا يمكن أن تقع، وإن دلت هذه الأخبار على شيء فإنما تدل على أثر الإيمان الصحيح في نفس الإنسان، فالإنسان إذا آمن أيها الأخوة ففي اللحظة التي يستقر فيها الإيمان في قلبه، يعبِّر عن ذاته بذاته بحركة نحو خدمة الخلق، ونحو اتصاله بالحق، الإيمان حركة، الإيمان عمل، الإيمان مثل، الإيمان قِيَم، فهذا سيدنا عمر عملاق الإسلام له أخبار ربما لا تصدق، ولكنها وقعت، إنها ثمرة مِن ثمار إيمانه .

وهو على فراش الموت حينما طعن من قبل من طعنه أوصى أصحابه، وقال: " يا علي إذا ولّيت من أمور الناس شيئاً فأعيذك بالله أن تحمل بني هاشم على رقاب الناس، ويا عثمان إذا وليت من أمور الناس شيئاً فأعيذك بالله أن تحمل بني أبي معيط على رقاب الناس، ويا سعد إذا وليت من أمور الناس شيئاً فأعيذك بالله أن تحمل أقاربك على رقاب الناس " .

وكان هذا الخليفة العظيم حينما يخاطب عماله، يقول لأحدهم: " لا تغلق بابك دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم " .

ما يطمح إليه الخليفة الراشد :

كان من طموحات هذا الخليفة، أنه قال مرة: " لئن عشت إن شاء الله تعالى لأسيرن في الرعية حَوْلاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني"، أي لا تصلني، " إما أنّ ولاتهم لا يرفعونها إلي، وإما أنهم لا يصلون إلي "، أي أن هناك سبب إما من الوالي أو من الرعية، " أسير إلى الشام فأقيم فيها شهرين، وبالجزيرة شهرين، وبمصر شهرين وبالبحرين شهرين، وبالكوفة شهرين، وبالبصرة شهرين، والله لنعمَ الحوْلُ هذا " .

فقد كان يتمنى أن يقوم بجولةٍ تفقدية يطّلع فيها بنفسه على مشكلات الناس وحاجاتهم وأحوالهم .

هموم الخليفة الراشد :

مرة سأل أصحابه، قال: " أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم، ثم أمرته بالعدل أيبرئ ذلك ذمتي أمام الله؟ " إذا كان سيدنا عمر اختار أصلح إنسان لولاية ما، وأمره بالعدل، يا ترى هل انتهت مسؤوليته؟ " فيقول أصحابه: نعم، استعملت عليهم خيرهم، وأورعهم، وأعلمهم، وأفضلهم، وأمرتهم بالعدل والإنصاف والإحسان، فماذا بقي عليك؟ يقول: كلا، لم تنتهِ مهمتي حتى أنظر في عمله، أعمل بما أمرته أم لا ؟ ثم يقول: أيما عامل لي ظلم أحداً، وبلغتني مظلمته فلم أغيِّرها، فأنا ظلمت " عدَّ نفسه ظالماً إذا بلغته مظلمة أحد عماله، ولم يغيِّر هذه المظلمة .

ويقول لأحد ولاته: **" إن نصيحتي لك، وأنت عندي جالس كنصيحتي لما هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين، وذلك لما طوَّقني الله من أمرهم، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " مَن مات غاشاً لرعيته لم يُرح رائحة الجنة " .**

(ورد في الأثر)

فقد رأى هذا الخليفة هذه الولاية عبئاً كبيراً يثقل ظهره، لذلك كثيراً ما كان يقول: " ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيما " .

وكثيراً ما كان يقول: " أتمنى أن ألقى الله عزَّ وجل لا لي ولا علي" أي رأساً برأس .

توفيق عمر للحق :

كان هذا الخليفة الراشد يقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم اقتداء دقيقاً، فالنبي عليه الصلاة والسلام، قال:

" إنا والله لا نولي هذا الأمر أحداً يسأله أو يحرص عليه ".

(ورد في الأثر)

وذات يوم أسَرَّ هذا الخليفة في نفسه أن يختار أحد أصحابه ليجعله والياً على أحد الأقاليم ، وهذا الصحابي لو صبر بضع ساعات لاستدعاه عمر ليقلده المنصب الذي رشحه له، ولكن هذا الصحابي بادر الأمور قبل أن تقع، وذهب إلى أمير المؤمنين يسأله أن يوليه الإمارة، وهو نفسه الذي وقع عليه اختيار عمر، ويبتسم عمر لحكمة المقادير، ويفكِّر قليلاً ثم يقول لصاحبه: " قد كنا أردناك لذلك، ولكن من يطلب هذا الأمر لا يعان عليه، ولا يجاب إليه، ثم صرفه وولّى" .

كيف نوفق بين طلب سيدنا يوسف للولاية في الآية وبين نهي النبي لمن يريدها:

الحقيقة أنّ لدينا نقطة دقيقة، وهي أن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام طلب الولاية، ألم يقل للملِك:

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف الآية : 55)

فكيف نوفّق بين توجيه النبي عليه الصلاة والسلام:

" إنا والله لا نولي هذا الأمر أحداً يسأله أو يحرص عليه "

(ورد في الأثر)

وبين قول الله عزّ وجل:

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف الآية : 55)

هناك توجيهان يمكن من خلالهما أن نوفّق بين الآية الكريمة، وبين قول النبي عليه الصلاة والسلام، فحينما طلب سيدنا يوسف من الملِك أن يتولى أمر خزانة مصر، وأمر تموينها، كانت الإمارة في ضائقة، وفي مجاعة كبيرة، وكان المنصب وقتها مغرماً لا مغنماً .

تصور في البلاد أزمة كبيرة جداً، انهيار اقتصادي، وإنسان يقول: أنا أصلح الاقتصاد، هذا ليس طمعاً في مكاسب، بل هذا المنصب تضحيةٌ ومغامرةٌ بسمعته من أجل إنقاذ البلد من ورطةٍ محققة، هذا بعض فهْم المسألة .

يوجد توجيه آخر، الملك حينما أجابه إلى دعوته وأطلق يده، فهذا مقبول، إذا أطلقت يدك في حقل من الحقول، وأنــت مؤمن واثق من استقامتك، وعلمك، وخبرتك، وورعك، وإخلاصك ، وولائك للمصلحة العامة، فإذا طلبت هذا الأمر من أجل أن تحقق إنجازاً كبيراً، فهذا الشيء أيضاً مقبول .

المبدأ الذي اعتمد عليه عمر في اختيار الولاة تمثلاً بالنبي العدنان :

مرةً يقول لأحد ولاته: " لم أستعملك على دماء المسلمين، ولا على أعراضهم، ولكني استعملتك لتقيم فيهم الصلاة، وتقسم بينهم، وتحكم فيهم بالعدل، ثم يعدُّ له عداً النواهي التي عليه أن يتجنبها، لا تركب دابةً مطهمة، ولا تلبس ثوباً رقيقاً، ولا تأكل طعاماً رافهاً، ولا تغلق بابك دون حوائج الناس " هذه كانت توجيهاته للولاة .

مرةً قال لأخوانه: " دلوني على رجلٍ أكِل إليه أمراً يهمني، فقالوا: فلان، فقال: ليس لنا فيه حاجة، قالوا: فمن تريد إذاً؟ قال: أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميراً لهم بدا وكأنه أميرهم " من شدة حرصه ورحمته، من شدة انتمائه لهم، من شدة غيرته عليهم .

ألم يفعل هذا سيدنا خالد في بعض المعارك حينما أمَّر نفسه في معركة اليرموك، وهو ليس أميراً، لكن وجد من المصلحة العامة أن يؤمِّر نفسه حتى ينقذ الموقف، هذا مقياس الخليفة العظيم في اختيار الولاة .

هذا هو رسول الله عليه الصلاة والسلام بين أصحابه :

" سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام لما كان مع أصحابه في سفر، وأرادوا أن يعالجوا شاةً لمأكلة، قال بعضهم: علي ذبحها، وقال آخر: علي سلخها، وقال الثالث: علي طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعلي جمع الحطب، فلما قيل له: يا نبي الله نكفيك ذلك، قال: أعرف ذلك، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه " .

(ورد في الأثر)

فَسُرَّ الصحابة لأنهم سمعوا هذه التوجيهات من نبيهم فطبّقوها بحذافيرها، وكم من إنسان يروي هذه القصة، وبينه وبين مَن معه بون شاسع، هو في برج، وهم في الحضيض؟ فالعبرة لا بتلاوة وقائع السيرة بل العبرة بتمثُّل هذه السيرة والعمل بها .

ومرةً قال النبي لأصحابه حينما قالوا: " أنت سيدنا، وابن سيدنا " فنهاهم النبي عليه الصلاة والسلام، وقال:

" لا يستغوينَّكم الشيطان " .

(ورد في الأثر)

وكان يقول:

" لا تقوموا لي كما يقوم الأعاجم لملوكهم يعظّم بعضهم بعضا " .

(ورد في الأثر)

فكان النبي أبعد الناس عن مظاهر التعظيم، لأنه عبدٌ لله عزَّ وجل، والإنسان كلما تواضع ازداد في عين الناس رفعة، وكلما استعلى عليهم ازداد في عينهم ضعة .

انظر إلى الموقف المتشابه بين النبي وموقف عمر من القصاص ، ماذا تستنتج ؟

مرة في موسم الحج، قال عمر على ملأ من الأعداد الهائلة من حجاج المسلمين: " أيها الناس، إني والله لا أبعث عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أبعثهم إليكم ليعلّموكم دينكم وسنة نبيكم، فمن فعل به فليرفعه إلي؟ فو الذي نفسي بيده لأمكننه من القصاص " ، يخاطب جموع الناس في الحج .

سيدنا عمرو بن العاص كان والياً على مصر، وقد سمع هذه المقالة بأذنه، فقال: " يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان رجلٌ من المسلمين والياً على رعية، فأدب بعضهم، أتقتص منه؟ فقال عمر: والذي نفسي بيده لأفعلن، فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتص من نفسه، ألم يقل قبل أن يتوفاه الله:

" من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتدْ منه، من كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذْ منه، مَن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي "

(ورد في الأثر)

إذًا: وافقَ النبي عليه الصلاة والسلام أن يقتص منه، فمَن نحن إذا أبينا أن يوقع فينا القصاص؟.

اهتمام عمر الشديد بأمر الولاة :

مرة سأل وفداً زاره من حمص عن واليهم عبد الله بن قرط، فيقولون: " هو خيرٌ يا أمير المؤمنين، لولا أنه بنى لنفسه داراً فارهة، سيدنا عمر، قال: داراً فارهة يتشامخ بها على الناس، بخٍ بخٍ لابن قرط، ثم يوفد إليه رسولاً، ويقول: ابدأ بالدار فاحرق بابها، ثم ائت به إلي، ويأتي هذا الرجل الوالي، ولا يكاد أن يقبل على أمير المؤمنين حتى يأمره أن يخلع حُلّته (ثيابه) ويلبس مكانها لباس الرعاة، ويقول له: هذا خيرٌ مما كان يلبس أبوك، ثم يتناول عصى، ويقول له: هذه خيرٌ من العصا التي كان أبوك يهشُّ بها على غنمه، ثم يشير إلى الإبل، ويقول له : اتبعها وارعها يا عبد الله، ثم بعد حينٍ يستدعيه، ويقول له معاتباً: هل أرسلتك لتشيد وتبني؟ ارجعْ إلى عملك، ولا تعد لما فعلت أبداً " .

فما أراد من الولاة أن يكون لهم مظهر، مرةً قال لواحد منهم: " بلغني أنه قد فشت لك فاشية "، أصبحت لك هيئةٌ في ملبسك ومسكنك ومطعمك ومركبك ليست لعامة المسلمين، " احذر يا عبد الله، أن تكون كالدابة مرت بواد خصب، فجعلت همها في السمن، وفي السمن حتفها ".

من الشكاوي التي رفعت إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

1- شكوى من شخص مصري :

محمد بن سلمة يدخل على سيدنا عمر، ورفع له أمرًا أنّ ابن سيدنا عمرو بن العاص ضرب رجلاً في مصر لأنه سبقه، قال: أرسل أمير المؤمنين يدعو عمرو بن العاص وابنه محمداً ، وَلْنَدَعْ أنس بن مالك يروي لنا النبأ كما شهده، ورآه بعينيه، قال: " فو الله إنا لجلوس عند عمر وإذا عمرو بن العاص يقبل

في إزار ورداء، فجعل عمر يتلفت باحثاً عن ابنه محمد، فإذا هو خلف أبيه ، فقال سيدنا عمر: أين المصري؟ فقال المصري: ها أنا ذا يا أمير المؤمنين، قال عمر: خذ الدُرة واضرب بها ابن الأكرمين، فضربه حتى أثخنه، قال: ونحن نشتهي أن نضربه (الصحابة)، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول : اضرب اضرب ابن الأكرمين، ثم أشار عمر إلى العصا، وقال: أجلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه، لو لم يكن ابنه لما ضربك، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت وضربت من ضربني، قال عمر: أما والله لو ضربته ما حُلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه، ثم التفت إلى عمرو، وقال: يا عمرو متى استعبَدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ".

متى ظهرت حقوق الإنسان؟ في أعقاب الثورة الفرنسية، كانت أوروبا في غياهب الجهل والظلم، وقبل ألف وخمسمئة عام، يقول هذا الخليفة العظيم: " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ".

وهذا فعله سيدنا عمر مع ابنِه، حينما رأى إبلاً سمينة، قال: " لمن هذه؟ قالوا: هي لابنك عبد الله، قال: ائتوني به، فلما جيء به، قال: لمن هذه الإبل ؟ قال: هي إبلي، اشتريتها بمالي وبعثت بها إلى المرعى لتسمن، فماذا صنعت؟ قال: ويقول الناس ارعوا هذه الإبل، فهي لابن أمير المؤمنين، اسقوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين، لماذا سمنت؟ لأنك ابني، قال له: بع هذه الإبل، وخذ رأس مالك، ورد الباقي لبيت مال المسلمين ".

2 - شكوى من أهالي حمص :

مرة تلقى شكوى ضد والٍ من ولاته، اسمه سعيد بن عامر الجُمَحي، استدعاه عمر، وواجهه بالشاكين، وقال لهم: تكلموا، قالوا: لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار، فقال الوالي: والله يا أمير المؤمنين، إني كنت أكره أن أذكر السبب، ليس لأهلي خادم فأنا أعجن لهم عجينهم، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبزه لهم، ثم أتوضأ وأخرج إليهم، فأشرقت ملامح عمر، قال: السؤال الثاني، قالوا: لا يجيب أحداً بليل، قال: والله إني كنت أكره ذكر ذلك، إني جعلت النهار لهم، والليل لي، فقال: اسألوه السؤال الثالث، قال: إن له في الشهر يوماً لا يقابل فيه أحداً، قال سعيد: ليس لي خادم يغسل ثيابي، ففي هذا اليوم أغسلها، وأنتظرها حتى تجف، ثم أخرج إليهم آخر النهار " ، سيدنا عمر ملأ قلبه السرور والغبطة، بأن هذا الوالي على شاكلته، وقد أعطى الأجوبة الكافية .

ألم يقل سيدنا عمر لرسول عامله على أذربيجان حين سأله: ألا تنام الليل؟ قال: إني لو نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي ، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي " .

كتاباً من عمر إلى والي حمص أيضاً :

مرة أرسل سيدنا عمر والياً على حمص اسمه عمير بن سعد، مكث هناك عاماً، وما أرسل له خراج حمص، ولا تصل منه أنباء .

فقال عمر لكاتبه: " اكتب إلى عمير فإني أخاف أن يكون قد خاننا، وأرسل إليه يستدعيه

قالوا: ذات يومٍ شهدت شوارع المدينة رجلاً أشعث أغبر، تغشاه وعثاء السفر، يكاد يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعاً من طول ما لاقى من عناء وبذل من جهد، على كتفه اليمنى جرابٌ وقصعة، وعلى كتفه اليسرى قُربة صغيرةٌ فيها ماء، وإنه ليتوكأ على عصى ولا يؤودها حمله الضامر الوهنان، دخل على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فدهش الفاروق من حالته، وقال: ما شأنك يا عمير؟

قال: شأني ما ترى، ألست تراني صحيح البدن، طاهر الدم، معي الدنيا أجرها بقرنيها؟

قال عمر: وما معك؟ قال: معي جرابي، أحمل فيه زادي، وقصعتي آكل فيها، ومعي قربة لوضوئي وشرابي، وعصاي أتوكأ عليها، وأجاهد بها عدواً إن عرض، فوالله ما الدنيا إلا تبعٌ لمتاعي؟

قال عمر: أجئت ماشياً؟

قال : نعم .

قال: أولم تجد من يتبرع لك بدابةٍ تركبها؟

قال: لا، إنهم لم يفعلوا، وأنا لم أسألهم .

قال: فماذا عملت فيما عهدنا إليك به؟

قال: أتيت البلد الذي بعثتني إليه، فجمعت صلحاء أهله، ووليتهم جمع فيئهم وأموالهم، حتى إذا جمعوها وضعتُها في مواضعها، ولو بقي لك منها شيءٌ لأتيتك به .

قال عمر لكاتبه: جدد عهداً لعمير .

قال له: هيهات، تلك أيامٌ خلت، لا عملت لك ولا لأحد بعدك أبداً " كفاني ذلك، رجل في أعلى درجة من النزاهة، سيدنا عمر كان على حق، مضت سنة، ولم يأت منه أخبار، ما شأنه؟ وماذا جرى له ؟ .

انظر إلى تقشفه رضي الله عنه :

سيدنا عمر مرة حج، قال عبد الله بن عامر بن ربيعة: " صحبت عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة في الحج، ثم رجعنا، فما ضُربَ لنا فسطاط ولا خباء ولا كان له بناءٌ يستظل به، إنما يلقي كساء على شجرةٍ فيستظل تحتها ".

ويقول بشار بن نمير: " وسألني عمر، كم أنفقنا في حجتنا هذه؟

قلت: خمسة عشر ديناراً .

قال: لقد أسرفنا في هذا المال، وسيدنا عمر تحت يديه كنوز كسرى وقيصر، ومعه أموال طائلة .

أبلغي من أبلغك هذا الكلام :

يبدو من شدة تقشفه، وخشونة طعامه، أنّ أصحابه الخُلّص تمنوا أن يمتع نفسه قليلاً، فاجتمعوا، وتداولوا، واتفقوا على أن يلتمسوا عنده أن يرفع راتبه قليلاً، لأنه رفع رواتب كل من حوله إلا هو .

سيدنا عثمان رأى أن تُدفَع ابنته حفصة إلى أن تُلقِي عليه هذا الرجاء، واستكتموها أمرهم، وطلبوا إليها أن تستطلع أمر أبيها، ذهبت حفصة إلى عمر متهيبة، وأخذت تسوق الحديث بحذر ورفق، قال عمر: من بعثك إلي بهذا؟

قالت: لا أحد .

قال: بل بعثك بهذا قومٌ لو عرفتهم لحاسبتهم .

قال لابنته: لقد كنتِ زوجة لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فماذا كان يقتني في بيته من الملبس؟

قالت: ثوبين اثنين .

قال: فما أطيب طعمة رأيته يأكلها؟

قالت: خبز شعير طري مسرود بالسمن .

قال: فما أوطأ فِراش كان له في بيتكِ؟

قالت: كساء ثخين نبسطه في الصيف، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه، وتدثرنا بنصفه الثاني .

قال: يا حفصة، فأبلغي الذين أرسلوكِ إلي أن مَثَلي ومثل صاحبي، الرسول وأبي بكر كثلاثة سلكوا طريقاً، فمضى الأول، وقد تزوَّد وبلغ المنزل، ثم اتبعه الآخر، فسلك طريقه فأفضى إليه، ثم الثالث، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما أُلحِق بهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بها، فأبلغي من أبلغك هذا الكلام .

شيء بالفعل لا يصدق، قلت لكم في البداية: إننا أمام أحداث ووقائع وأخبار كالأساطير، لكنها وقعت، وإن دلت على شيء فإنما تدل على أثر الإيمان في نفس المؤمن، نزاهةٌ ما بعدها نزاهة، عدلٌ ما بعده عدل، حرصٌ على الرعية ما بعده حرص .

من مشكلات عمر التي عرضت عليه خلال خلافته، المال الفائض، أين يضعه ؟

إن وفدًا جاؤوا سيدنا عمر من البصرة، فأول سؤال سألهم: كيف الأسعار عندكم؟ وكيف الأمطار عندكم؟ يسأل من رحمته على رعيته .

أحد الولاة حمل إليه مرة مالاً وفيراً من أحد الأقاليم، فسأل عن مصدره، وعن سر وفرته وكثرته، فلما علم أنه من الزكاة التي يدفعها المسلمون، ومن الجزية التي يدفعها أهل الكتاب

قال: إني لأظنكم قد أهلكتم الناس .

فقالوا: لا والله ما أخذنا إلا صفواً عفواً، يعني بشكل طبيعي .

قال: بلا سوط .

قالوا: نعم .

عندئذٍ سُر، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك عليّ، ولا في سلطاني "، أيضاً الوفرة والكثرة حارَ فيها.

صفوة القول عن هذا الخليفة الراشد عمر بن الخطاب :

أذكركم بالخطبة التي ألقاها حينما تولى الإمارة، قال: " أيها الناس، خمس خصال خذوني بهن: لكم علي ألاّ آخذ من أموالكم شيئاً إلا بحقه، ولكم عليَّ ألا أنفقه إلا بحقه، ولكم عليَّ أن أزيد عطاياكم إن شاء الله تعالى، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا " .

هكذا أخذ عمر نفسه بهذه القواعد، وأعلنها للناس صريحة، وقال: خذوني بها وحاسبوني عليها .

هذا إنسان يخاف الله عز وجل، طبعاً كل عصر له ظروفه، لكن الإنسان إذا اتقى الله عزَّ وجل يرى نفسه مندفعاً بشكلٍ عجيب إلى ورعٍ ما بعده ورع، وخوفٍ من الله ما بعده خوف، وحرصٍ على المصلحة العامة ما بعده حرص، والله سبحانه وتعالى نرجوه أن يلهمنا الخير، وفي درس قادم نتابع الحديث عن هذا الصحابي الجليل .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا عمر بن الخطاب - الدرس (5-7) : تواضعه وإصغاؤه للحق
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-02-21

بسم الله الرحمن الرحيم

تواضع الخليفة الراشد لسماع الحق من أدنى شخص في المجتمع آنذاك :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس من دروس سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الفصل اليوم حول نمط من سلوك هذا الخليفة العظيم، هذا النمط يتوضَّح بأنه كان رضي الله عنه يقبل كلمة الحق، ولو كانت من أقل الناس عنده، فله مقال مشهور: " كلمة الحق، لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها "، هذا الخليفة الراشد يرى أن الحق فوق الجميع .

لو أن كل إنسان يشرف على مجموعة من الناس إذا انطلق من هذا المبدأ مبدأ سماع الحق، ولو كان ممن هو دونه، والانصياع له ولو كان في هذا مرارة، كنا بحال غير هذا الحال .

فسيدنا عمر رضي الله عنه، يقول: " لا تقولوا الرأي الذي تظنونه يوافق هواي، قولوا الرأي الذي تحسبونه يوافق الحق "، لأنّ الإنسان أحياناً يستقصي، ما الذي يرضي فلانًا؟ وما الذي يريحه؟ وما الذي يعجبه؟ وما الذي يوافق عليه؟ .

مرةً كان مع أصحابه فأراد أحدهم أن يقول قولاً يوافق هوى سيدنا عمر، قال له: والله يا أمير المؤمنين، ما رأينا أفضل منك بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام، فانتفض هذا الصحابي الجليل، وكأنَّه وجهت إليه تهمة، ونظر في أصحابه واحداً واحداً، وأحدَّ فيهم النظر، إلى أن قال أحدهم مستدركاً: لا والله لقد رأينا من هو خيرٌ منك، قال: ومن هو؟، فقال: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال هذا الصحابي الجليل: كذبتم جميعاً حينما سكتم، وصدق هذا .

اجتهاد أمير المؤمنين في مسألة الأراضي الزراعية التي تأتي بعد الفتح :

ليس مِن إنسان فيما أعلم، أشد ورعاً وطاعةً وانصياعاً لأمر لله عزَّ وجل من سيدنا عمر، ومع ذلك ما عطّل عقله ولا مرة، فالمعروف أن الجيش إذا فتح بلدة فهذه البلدة تُعدُّ من الغنائم، فلو أن أفراد الجيش توزعوا هذه الأرض، وهم مشغولون بالفتوح عن زراعتها، وإذا أرادوا أن يزرعوها ليسوا خبراء فيها، فسيدنا عمر كان يرى أن الجيش الإسلامي إذا فتح بلدةً ينبغي أن يُبقِي الأرض بأيدي أصحابها، وأن يأخذ منهم خراجاً، وقد عارض الصحابة الكرام هذا الرأي، لكنه أصرَّ على رأيه، منطلقاً مِن أن

المصلحة والعقل يقتضيان أن تبقى هذه الأرض بأيدي أصحابها، وأن نأخذ منهم خراجاً، لأنهم أقدر على زراعتها، وأقدر على استغلالها، ونحن لسنا متفرغين لهذا العمل، فكان اجتهاده في هذا الموضوع سنة سرت من بعده إلى يومنا هذا .

وكان أصحاب النبي عليهم رضوان الله حينما يعترضون عليه في هذا الاجتهاد الذي لم يسبق إليه، كان يقول: " إنما أقول رأيي الذي رأيته"، أي أن الطاعة التامة تعبِّر عن إيمان المرء، لكن النصيحة الخالصة تعبِّر عن أمانته وغيرته .

موقف الشورى الذي اعتمده عمر بين أصحابه اقتداء بالقرآن :

مرةً خشي هذا الخليفة العظيم أن يجامله الناس على حساب دينهم، وهو يخاف على نفسه أن يصدِّقهم، لذلك جمع علية القوم ونخبة أصحابه، وقال لهم: إني دعوتكم لتشاركوني أمانة ما حملت من أموركم، فإني واحدٌ كأحدكم، وأنتم اليوم تقرُّون بالحق، خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبعوا هواي، فمعكم من الله كتابٌ ينطق بالحق، فوالله لئن كنت نطقت بأمرٍ أريده فما أريد به إلا الحق، أي أنكم معكم مقياس، وهو كتاب الله، وسنة نبيّكم، وإياكم أن تنطقوا بكلامٍ وفق هواي، تحرّوا الحق ولا تأخذكم في الله لومة لائم، هذا موقف آخر .

محور هذا الفصل هذا الموقف المتشدد من أصحابه، حيث إنهم لو تكلَّموا كلاماً لإرضائه بعيداً عن الحق لكان هذا سبباً لغضبه أشد الغضب .

ولا تنسوا أيها الأخوة، أن الله سبحانه وتعالى أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يستشير أصحابه، قال:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران الآية : 159)

كما أن الله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين، فقال:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

(سورة الشورى الآية: 38)

نحن كمسلمين يجب علينا أن نستشير في كل أمر، لأنه من استشار الرجال استعار عقولهم، كما قال عليه الصلاة السلام:

" تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا ضال " .

(ورد في الأثر)

ما دام المؤمن على الحق، وليس له مصالح تتناقض مع الحق، فلا بأس عليه أن يسأل، ولا حرج عليه أن يستشير، وما المانع أن يأخذ برأي زيدٍ وعُبيد لئلا يقع في انحرافٍ أو في خطورة؟ .

وقد مرَّ بكم أن سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، اختار من بين أرقى العلماء وأشدِّهم ورعاً، رجلاً عالماً جليلاً فاضلاً، قال: "اجلس إلى جانبي، فإن رأيتني ضللت فخذني من تلابيبي، وهُزَّني هزاً شديداً، وقل لي: اتق الله يا عمر، فإنَّك ستموت " .

خشية عمر أن لا ينصحوه الناس خوفاً من قوته :

فسيدنا عمر حينما تسلَّم الأمر خاف الناس شدَّته وبأسه، سيدنا عمر كان شديداً، شديداً في أمر الله عزَّ وجل، فحينما تهامس الناس خائفين وجلين من تولّي هذا الخليفة الشديد الأمر، دخل عليه حُذيْفة فوجده مهموم النفس، باكي العين، فقال له: ما الذي يبكيك يا أمير المؤمنين؟ قال عمر رضي الله عنه: إني أخاف أن أُخطئ فلا يردني أحدٌ منكم تعظيماً لي، فقال حذيفة: والله لو رأيناك خرجت عن الحق لرددناك إليه، عندئذٍ فرح عمر وتألّق وجهه، وقال: الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يقوّمونني إذا اعوججت .

مرةً صعد المنبر رضي الله عنه، وقال للناس جميعاً: " يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا هكذا؟ فيشق الصفوف رجل ويقول وهو يلوِّح بذراعه وكأنَّه حُسام ممشوق: إذاً نقول بالسيف هكذا، فيسأله عمر: إياي تعني بقولك، قال: نعم إيّاك أعني بقولي، فما الذي حدث؟ يتألّق وجهه ويضيء ويبتسم، ويقول: " رحمك الله، الحمد لله الذي جعل فيكم من يقوِّم اعوجاجي "، ألم أقل لكم في درس سابق: نحن أمام أخبارٍ واقعيةٍ كأنها أساطير .

يا أخواننا الكرام، إذا كنتَ معلّم صف، أو مديرَ مستشفى، أو صاحب شركة، أو مهما كان عملك متواضعًا، حينما تلغي الاعتراض على تصرُّفاتك، حينما تُلغي النقد البنَّاء، حينما تستبدّ برأيك ينتهي سلطانك، وتسير نحو الهاوية، أما إذا استشرت وسألت، وأصغيت واستنصحت، وجعلت حولك أناساً صادقين مخلصين لا يجاملون ولا ينافقون ولا يكذبون، فأنت بهذا تتألّق وترقى ويزداد عملك رسوخاً .

مؤلّف الكتاب الذي نقلت منه هذا الخبر علّق تعليقاً رائعاً، قال: " لا يمكن أن يكون موقف هذا الخليفة العظيم موقفاً استعراضياً، هدفه الكسب الرخيص، ولكنه كان موقفاً صادقاً حقيقياً، أملاه عليه إيمانه وإخلاصه " .

نزاهة عمر :

مرةً صعد المنبر ليحدِّث المسلمين في أمرٍ جليل، فقد حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وقال: أيها المسلمون اسمعوا يرحمكم الله، ولكن أحد المسلمين نهض، وقال: واللهِ لا نسمع، واللهِ لا نسمع ، فسأله

عمر في لهفة: ولمَ يا سلمان؟، فيجيب سلمان: ميَّزت نفسك علينا في الدنيا، أعطيت كلاً منا بردةً واحدة، وأخذت أنت بردتين، سيدنا عمر ينظر في المصلّين، ويجيل الطرف فيهم إلى أن يرى ابنه عبد الله، ويقول: أين عبد الله بن عمر؟، فنهض عبد الله، وقال له: ها أنا ذا يا أمير المؤمنين، فسأله عمر على الملأ: من صاحب البردة الثانية؟، فيجيب عبد الله: أنا يا أمير المؤمنين، ويخاطب عمر سلمان والناس معه: إنني كما تعلمون رجل طويل، ولقد جاءت بردتي قصيرة، فأعطاني عبد الله بردته، فأطلت بها بردتي، فيقول سلمان الذي اعترض، وفي عينيه دموع الغبطة والثقة: الحمد لله، والآن نسمع، ونطيع يا أمير المؤمنين، هل من نزاهةٍ بعد هذه النزاهة ؟.

من مواقفه الجليلة الإنصاف ، و رد الحقوق إلى أصحابها :

وفي يوم آخر، بينما هو جالس مع أخوانه، إذ برجل يشقّ الصفوف، ثائر، ملء قبضته شعر محلوق، ولا يكاد يبلغ عمر حتى يقذف بالشعر أمامه في مرارةٍ واحتجاج، ويموج الناس بالغضب ويهم به بعضهم، فيومئ عمر إلى أصحابه أن يسكنوا، ويجمع الشعر بيده، ويشير للرجل أن اجلس، وينتظر عليه عمر حتى يهدأ روعه، ثم يقول له: ما أمرك يا رجل؟، فيجيب الرجل: أما والله لولا النار يا عمر، فيقول عمر: صدقت، والله لولا النار، ما أمرك يا أخا العرب؟، يقصُّ هذا الرجل على عمر شكواه، وفحواها أن أبا موسى الأشعري أنزل به عقوبة لا يستحقُّها، فجلده، وحلق شعر رأسه بالموسى، فجمع الرجل شعر رأسه، وجاء به إلى عمر، فينظر عمر إلى وجوه أصحابه، ويقول: لأن يكون الناس كلُّهم في قوة هذا أحبَّ إليَّ من جميع ما أفاء الله علينا، لأن يكون كل الناس في قوة هذا الرجل أحب إلي من كل الفتوحات التي فُتحت على المسلمين، فما قولكم بهذا الجواب؟ ثم يكتب لأبي موسى الأشعري يأمره أن يُمَكّن الرجل من القِصاص منه جلداً بجلدٍ، وحلقاً بحلقٍ .

أصابت امرأة ، وأخطأ عمر :

مرةً كان على المنبر، واجتهد اجتهاداً، ولم ينتبه رضي الله عنه إلى آيةٍ في كتاب الله، قال: "أيها الناس، لا تزيدوا مهورَ النساء على أربعين أوقية، فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال، فنهضت من بين أواخر الصفوف امرأة، وقالت: ليس هذا لك يا عمر، لا تستطيع أن تفعل هذا، فيسألها: ولمَ؟ فتجيبه بأن الله تعالى يقول:

(وَآَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

(سورة النساء الآية :20)

يتألّق وجه هذا الخليفة العظيم ويبتسم، ويقول عبارته الشهيرة: " أصابت امرأة وأخطأ عمر". هذه الروح السمحة، هذه الروح التي تجعل من نفسها في سوية كل الناس، فهذه ثمرة من ثمار الإيمان التي كانت بادية في سيدنا عمر رضي الله عنه .

حكمة عمر في سياسة الأمور :

حينما عزل سيدنا خالد، وقصة عزله تعرفونها، وما عزله إلا مخافة أن يفتتن الناس به، لكثرة ما أبلى في سبيل الله، حينما أجرى على يديه نصراً مؤزراً، نصراً تلو نصر، توهَّم الناس أنه ما من معركة فيها خالد إلا والنصر حليف المسلمين، فخشي هذا الخليفة أن يتوهَّم الناس أن النصر من عند خالد، فعزله إنقاذاً لعقيدة التوحيد، وتثبيتًا لهم، وربطاً لهم بالله عزّ وجل، لكن هناك أقاويل كثيرة فشت بين الناس، فقال لهم مرةً: إني أعتذر إليكم من عزل خالد، فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطى ذوي البأس، وذوي الشرف، وذوي اللسان، فنهض أبو عمرو بن حفص بن المغيرة، وقال: واللهِ ما أعذرت يا عمر؟ لقد نزعت فتى ولاه رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأغمدت سيفاً سلّه رسول الله عليه الصلاة والسلام، ووضعت امرأً رفعه رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقطعت رحماً، وحسدت بني العم، لكن سيدنا عمر لم يهتم بهذا الكلام، يعرف لماذا عزل هذا القائد الشجاع؟ عزله لحكمة راجحة عنده، فقال له مخاطباً: إنك قريب قرابة حديث السن، تغضب في ابن عمك، يعني عَذَرَهُ، وما رأى في ذلك إلا تعاطفاً مع ابن عمه، دون أن يحاسبه على هذا الكلام الذي قاله .

موقف عمر في عزل خالد عن إمارة الجيش اقتداء بالنبي :

النبي عليه الصلاة والسلام ذات مرة، وهذه القصة تُعَدّ شاهدًا واضحًا جداً، فقبيل معركة بدر أصدر النبي عليـه الصلاة والسلام توجيهاً لأصحابه:

" لا تقتلوا عمي العباس "

(ورد في الأثر)

هكذا كان التوجيه، كلامٌ مختصر من دون تعليل لحكمة رآها النبي عليه الصلاة والسلام، فمَنْ عمُّه العبّاس؟ عمه العباس مقيم في مكة مع المشركين، لكنه كان مسلماً سراً، وإسلامه في تكتُّمٍ شديد، لأن عمه العباس كان عيـن النبـي في قريش، فما من اجتماع يجتمعونه، وما من أمرٍ خطير يتداولونه، وما من قرار يتخذونه إلا وكان العباس رضي الله عنه يبلّغه ابن أخيه محمداً صلّى الله عليه وسلّم؟ لذلك

فالنبي لم يفاجأ أبداً في علاقته مع قريش، ما من شيءٍ فعلته قريش إلا كان عند النبـي عليه الصلاة والسلام خبره؟

هذا الخبر لا بدَّ أن يصل إلى قريش، فالنبي إذا لم يقل هذا الكلام لقتل أصحابُه عمَّه العباس ظلماً، وهو مسلم، ولو أن عمه العباس أبى الخروج مع المشركين في بدر، ماذا يحصل؟ لا نكشف أمره، فالموقف عصيب ودقيق، فلذلك النبي قال:

" لا تقتلوا عمي العباس "

(ورد في الأثر)

صحابي ضعيف أخذ هذا النص، وقال: نحن نقتل آباءنا وأبناءنا وأخواننا، وينهانا عن قتل عمه، رآها عصبية، ولكن هذا الصحابي بعد أن كشفت الحقيقة، وعرف نزاهة النبي ومراده النبيل، وعرف إسلام عمه العباس، وكيف كان عيناً للنبي على قريش؟ وكيف أنه كان في أعلى درجات الذكاء والحكمة والحيطة والحذر؟ يقول هذا الصحابي: إنه بقي عشر سنواتٍ يتصدَّق، ويجاهد نفسه وهواه، ويعتق العبيد، لعلَّ الله يغفر له سوء ظنِّه بالنبي عليه الصلاة والسلام، مقام النبـوة مقامٌ رفيعٌ جداً، فمستحيل أن ينحاز النبي إلى أهله، وإلى بني جلدته، فالنبي رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو معصوم .

فسيدنا عمر عزل سيدنا خالد، لحكمة رائعة رآها إنقاذاً للتوحيد، ومع ذلك لما اعترض هذا الرجل، ولم يبالي باعتراضه، وقال: أنت غضبت من أجل ابن عمك، ولا ضير عليك .

التاريخ يروي أن هذا البدوي الذي قال لسيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام: " أعطني فليس المال مالك ولا مال أبيك، النبي عليه الصلاة والسلام، قال: صدقت يا أخا العرب، إنه مال الله وزاده عطاء "، سيدنا عمر كان واقفاً، فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا الأعرابي ، فهذا الإنسان تجاوز حده، فقال:

" يا عمر، دعه فإن لصاحب الحق مقالاً " .

(ورد في الأثر)

تعلموا أيها الأخوة، إذا كنتَ رئيس دائرة، وجاء مواطن، وهو ثائر، وتكلَّم بكلمات قاسية، فلا تحاسبه على كلماته، وقل: " إن لصاحب الحق مقالاً " .

لكن سيدنا عمر، كما قلت لكم من قبل: ليس بالخب، أي ليس من الخبث حيث يكون خباً ، أي ماكراً خدَّاعاً، لكن ليس من السذاجة والبساطة أيضاً حيث يسمح لأحدٍ أن يحتال عليه، قال: لست بالخب، ولا الخب يخدعني، فكل إنسان كان يمدحه مديحاً كاذباً يبتغي أن يصل إلى قلبه، كان هذا الصحابي الجليل يرفض هذا المديح .

فراسة عمر :

ذات يومٍ أثنــى إنسان على سيدنا عمر ثناء المنافقين، فقال له: " يا عدوَّ الله، ما أردت بهذا الكلام؟ كانت له فِراسة، المديح الصادق مقبول، والإعجاب الصادق مقبول، لكن إنسان غير ملتزم يثني على عمر ثناء يتضح من ثنيات كلامه، ومن فلتات لسانه، ومن نبرة صوته أنه ينافق

ومرة رأى سيدنا عمر إنسانًا يصيح بأعلى صوته، ويقول: من صاحب هذه اللوزة؟ فما كان من عمر رضي الله عنه إلا أن قال له: كلها يا صاحب الورع الكاذب، أي كلها واكْفِنا شرَّك، فقد كان مع تقديره الشديد للمؤمنين سيفاً مسلطاً على المنافقين .

إصغاء عمر إلى خولة بنت حكيم :

ذات يوم كان يمشي في الطريق، فسمع صوت امرأة تقول له: رويدك يا عمر، حتى أكلمك كلمات قليلة ، فالتفت عمر، فإذا سيدة جليلة تقول له: يا عمر، عهدي بك أنك تسمّى عُميْراً ، تصارع الفتيان في سوق عكاظ، فلم تذهب الأيام حتى سُمِّيت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سُمِّيت أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر في رعيّتك، واعلم أنه من خاف الموت خشي الفوت، فقال له من معه: من هذه المرأة التي اجترأت عليك يا أمير المؤمنين؟، فما كان من سيدنا عمر إلاّ أنْ جذبه، وقال له: دعها فإنك لا تعرفها، فقال له: من هذه؟ قال: هي خولة بنت حكيم، التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات، وهي تجادل النبي في زوجها، وتشتكي إلى الله، هذه التي وقفت أمام النبي، وبكت، وقالت: يا رسول الله، إن زوجي تزوَّجني، وأنا شابّة ذات أهلٍ ومال، فلما كبر سني ، ونثر بطني، وذهب مالي، وتفرَّق أهلي، قال: أنتِ عليَّ كظهر أمي، ولي منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا، فالنبي قال: ما أظنك إلا قد حرُمْتِ عليه؟

(ورد في الأثر)

فقال الله عزَّ وجل:

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)

(سورة المجادلة الآية: 1)

فقال له: صه، ألا أسمع شكواها إذا كان الله قد سمع شكواها، أي اسكت فمن أنا؟ وقف متأدباً يستمع إلى حديثها .

مقولته الشهيرة التي ذهبت مضرب المثل، والتي أعلنت حقوق الإنسان قبل أن تعلن في فرنسا بألف عام، قال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتم أمهاتهم أحراراً .

كن أنت واحد من الناس :

أيها الأخوة، إذا أنت لم تشعر أنك واحد من الناس، ولا حقَّ لك أن تستعلي عليهم، ولا أن تستذلهم، ولا أن تأخذ منهم ما ليس لك، ولا أن تستخدمهم، إن لم تنطلق هذا المنطلق ففي الإيمان والله ضعف، لا أقول: ليس فيك إيمان، ولكن في إيمانكَ ضعف .

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام خدمه إنسان فقير جداً، اسمه ربيعة، بعد سبعة أيام، قال له النبي عليه الصلاة والسلام:

" يا ربيعة سلني حاجتك "

(ورد في الأثر)

لأنه رأى خدمته له ديناً عليه، لا يوجد إنسان على وجه الأرض يحقّ له أن يرى نفسه متميّزاً على أقرانه، والنبي كان قدوةً لنا في هذا،

فعندما كان مع أصحابه في سفر، وأرادوا أن يعالجوا شاةً لمأكلة، قال أحدهم: " عليَّ ذبحها، وقال الثاني: عليَّ سلخها، وقال الثالث: عليَّ طبخها، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: وعليَّ جمع الحطب " واختار أصعب عمل وأشقه، فلما قال له أصحابه: " نكفيك ذلك يا رسول الله، قال: أعرف أنكم تكفونني، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه " .

(ورد في الأثر)

في بيتك أنت واحد من هؤلاء فكن مثلهم، أطعمهم مما تأكل، ألبسهم مما تلبس، لا تميِّز نفسك عليهم، في عملك، في نزهتك، في سفرك، ما في إنسان يعطي أوامر، ويتلقى خدمات، عندك أناس يخدمونك، ويتلقون أوامر، فهذه عنصرية غير واردة، قال عمر: متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

عمر يدخل مجلس القضاء :

آخر قصة من قصص هذا الخليفة الراشد أنه اختصم مع بعض أصحابه حول موضوع، أن سيدنا عمر أراد أن يوسِّع المسجد النبوي الشريف، فاحتاج إلى أن يضمّ أرضاً للمسجد، وعارضه صاحب الأرض، ويقول للإمام العادل، والخليفة الأمين: ليحكم بيني وبينك آخرون، سيدنا عمر يريد أن يوسِّع هذا المسجد، لأنه سمع النبي عليه الصلاة والسلام في حياته أنه كان يرغب في توسعته، فأراد أن ينفِّذ رغبة النبي عليه الصلاة والسلام كان لا بدَّ أنْ يضمَّ هذه الأرض للمسجد، وصاحب الأرض اعترض، سيدنا عمر رحب في الأمر، لأنه سيجده عوناً على الحق، إن كان محقاً، وهدى إلى الصواب إن كان مخطئاً .

لقي العباس يوماً، فقال له: يا عباس لقد سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل موته يريد أن يزيد في المسجد، وإن دارك قريبة من المسجد، فاعطنا إيّاها نزدها فيه، وأقطع لك أوسع منها مع التعويض، فقال له العباس: لا أفعل، قال عمر: إذاً أغلبك عليها ، أنا صاحب السلطة ، فأصدر لها أمرَ استملاك، فأجابه العباس: ليس ذلك لك، فاجعل بيني وبينك من يقضي بالحق، فقال عمر: من تختار؟، قال العباس: حذيفة بن اليمان، وبدلاً أن يستدعي سيدنا عمر حذيفة إلى مجلسه، انتقل عمر والعباس إليه، لماذا؟ لأن القاضي يؤتى ولا يأتي، والعلم يؤتى ولا يأتي، هكذا الأدب، حذيفة الآن يمثل القضاء، وأحد الخصوم سيدنا عمر، خليفة المسلمين، وأمام حذيفة جلس عمر والعباس، وقصا عليه الخلاف الذي بينهما، فقال حذيفة: سمعت أن نبي الله داود عليه السلام أراد أن يزيد في بيت المقدس، فوجد بيتاً قريبـاً من المسجد، وكان هذا البيت ليتيم، فطلبه منه فأبى، فأراد داود أن يأخذه قهراً، فأوحى الله إليه أن أنزه البيوت عن الظلم هو بيتي، فعدل داود، وتركه لصاحبه، فالعباس نظر إلى عمر، وقال: ألا تزال تريد أن تغلبني على ذلك؟، فقال له عمر: لا والله، فقال العباس: ومع هذا، فقد أعطيتك الدار تزيدها في مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام، أنا سوف أعطيها لك من عندي تبرعاً، أما أن تغلبني عليها فلا تستطيع، وحذيفة هو القاضي بيننا .

وصية القرآن :

هذا هو سيدنا عمر يا أخوان، وهناك آية قرآنية تقول:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

(سورة الطلاق الآية: 6)

ائتمروا، وهو فعل أمر، ماضيه فيه معنى المشاركة، فممكن أن تنصح زوجتك، ويمكن هي أن تنصحك، ويمكن أنْ تأمرها بأمر، يمكن أن تطلب هي شيئًا منك، فلست إنساناً فوق الناس جميعاً، فنحن نطبّق هذه المشاورة وهذا التواضع وهذا الشعور .

عندما يكون الإنسان حرًّا، فإنه ينطلق في تعامله مع الناس من منطلق واقعي، منطلق إنساني، منطلق فيه عدل، وفيه إنصاف، وفيه حقوق، وفيه واجبات، والحياة أخذ وعطاء .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا عمر بن الخطاب - الدرس (6-7) : سعة إدراكه وبعد نظره وصدق فراسته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-02-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

لست بالخب ولا الخب يخدعني :

أيها الأخوة الكرام، ولا زلنا مع سيدنا عمر بن الخطاب، ومع الدرس السادس من دروس سيرته، وحديث اليوم عن جانب من جوانب شخصيته، ألا وهو تألق فهمه، وحدّة ذهنه، وصدق فراسته، والمؤمن بشكل أو بآخر يمثّل هذا الدين، ولا يستطيع المؤمن نشرَ هذا الحق إلا إذا كان على جانب من الإدراك العميق، والفهم الحاد، لقوله تعالى:

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام الآية: 83)

لكلِّ مؤمنٍ نصيبٌ من هذه الآية، المؤمن لديه حجة، عنده منطق، معه دليل، معه برهان ، إدراكه دقيق، فهمه عميق، تصوُّره صحيح، رؤيته ثاقبة، قراره حكيم، هذا الجانب العقلي للمؤمن، لأن المؤمن كما تعلمون شخصية متميِّزة، فيه جانب نفسي أخلاقي، وفيه جانب سلوكي بناء .

فسيدنا عمر مثّل شخصيَّته، أو جانبه الإدراكي بكلمةٍ رائعة، فقال: " لست بالخِب، ولا الخَبُّ يخدعني"، يعني ذكاؤه ليس شيطانياً، ولا عدوانياً، ولا استغلالياً، ولا انتهازياً، هناك أذكياء يستغلون ذكاءهم لمآربهم الشخصية، ولمكاسبهم الدنيوية، ولكنه ذكاء رحماني، فهو ليس من الغباء حيث يخدعه الخِب، وليس من الخُبث حيث يخدع، لا يَخْدَع ولا يُخْدَع، هذا الموقف المثالي، فما من عبارةٍ أدق وأوضح من هذه العبارة، وينبغي على كل مؤمنْ أن يكون في هذا المستوى .

وقد يقول قائل: أليست القدرات منتهية مبتوتًا فيها؟ أليست قدرات الإنسان محدودة؟ الجواب: لا، هذه نظرية قديمة باطلة، فالإنسان فيه طاقات مخبوءة إذا أتيحت له الظروف الجيدة فجَّرتها، فأنت إذا صدقت مع الله عزَّ وجل أعطاك قدرات لا تحلم بها، وهذا هو الإيمان، فالله عزَّ وجل يعطيك من القدرات ما يعينك على تحقيق أهدافك .

من شهادات الصحابة لعمر على فهمه للأمور والفقه في الدين :

1 - شهادتا عائشة وابن مسعود :

السيدة عائشة رضي الله عنها وصفته مرةً، فقالت: " كان والله أحوزياً، نسيج وحده، قد أعدَّ للأمور أقرانها " أي سريع الإدراك، حاد الخاطر، فالموفّقون في الحياة، المتفوقون العقلاء الأفذاذ هم الذين يعدّون للأشياء أقرانها، للملمات ما يكافئها، للمستقبل ما يغطيه .

ويقول عنه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " كان عمر أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله"، يقول لك أحدهم: أنا ليس شغلي العلم، فأنا تاجر، وآخر أنا عملي مدير ناحية، لا أفهم في الدين، لكن سيدنا عمر قمة المجتمع الإسلامي فهو حاكم، وفي الوقت نفسه كان أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله، فهذا شيء رائع جداً، فهذا العلم فرض عين على كل إنسان، هناك أشخاص يترنمون بقولهم: أنا صيدلي، أنا طبيب، أنا رجل علم ولكني لست رجل دين، تفتخر أم تلوذ هاربًا، هذا وسام شرف أم وصمة عار؟ والله هذه وصمة عار، لأن طلب العلم فرض عينٍ على كل مسلم؛ طبيب، مهندس، مدير ناحية، محافظ، تاجر .

فهل من الممكن لإنسان يقعد مكان قائد الطائرة، والطائرة فيها أربعمئة راكب، وفيها أجهزة معقدة جداً؟ مستحيل، والله في الحياة هناك مطبَّات أصعب من قيادة الطائرة أصعب بكثير، هل يمكن أنْ تنطلق في الحياة من دون معصية؟ يجب أن تكون عالماً، فالعلم لكل مؤمن، فنحن في الإسلام ليس عندنا طبقة رجال دين، نحن عندنا مسلم، "ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، ولو اتخذه لعلّمه " ، وكل واحد منكم يجب أن يكون ولياً لله، وتعريف الولي سهل جداً، قال تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

(سورة يونس الآية: 62-63)

اتضح الأمر جلياً، اتق الله فأنت ولي، وليس فوق هذا التعريف تعريف، فهذا تعريف قرآني .

2- شهادة النبي له :

أما النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

" إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه " .

(ورد في الأثر)

هذه شهادة، إذا شهد لك النبي فهذه أعظم شهادة، أحياناً إنسان يفتخر بأستاذه، فيقول: الدكتور الفلاني علّمنا في الجامعة، عندما يكون الإنسان مؤمنًا، ويكون تلميذًا للنبي عليه الصلاة والسلام فهذه أكبر شهادة يحوزها .

موافقات عمر :

عندنا في السيرة شيء اسمه موافقات عمر، فكان سيدنا عمر يتمنى شيئًا فينزل به قرآن ، وهذه من خصائص هذا الصحابي الجليل، لذلك قالوا: " سيدنا عمر له موافقات

"، فمرة قال للنبي عليه الصلاة والسلام: " يا رسول الله، أليس هذا مقام إبراهيم أبينا؟ قال : نعم، قال: لو اتخذناه مصلى، فما هي إلا أيام حتى جاء الوحي بالآية الكريمة

(ورد في الأثر)

(وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)

(سورة البقرة الآية: 125)

كذلك تمنى أن يأتي تشريع ينظم علاقة الأبناء بالآباء في الدخول على آبائهم وأمهاتهم، فنزلت الآيات تبيِّن أدب الابن في الدخول على أبيه وأمه، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)

(سورة النور الآية: 58)

فكلما تمنى شيئاً يأتي الوحي مؤكداً له، هذا من صدقه مع الله ومن شدة إخلاصه، من أجل هذا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

" عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي الهادين المهديين عضوا عليها بالنواجذ "

(أخرجه ابن ماجه عن العرباض بن سارية في سننه)

إذاً: إذا اجتهد سيدنا عمر اجتهادًا، فاجتهاده هذا يضاف إلى السنة، وملحق بها، لعظم هذا الصحابي الجليل .

من كلمات عمر :

كان إدراكه عميقًا جداً، قال: " ما من أحدٍ عنده نعمة إلا وجدت له حاسداً، ولو كان المرء أقوم من القِدح لوجدت له غامزاً "، أي من المستحيل ألاّ يكون لك خصم، فأنت وطّن نفسك وارتاح، فلا بدَّ لك من خصومة، لا بد لك من حُسَّاد، حتى إن سيدنا موسى في المناجاة، قال: " يا ربي لا تبقي لي عدواً، قال له: هذه ليست لي يا موسى "، أفتطمع ألاّ يكون لك أي عدو؟ هذا الطمع في غير محله، لك عدو

ولك خصم، ولك حاسد ولك مبغض، ولك من يطعن بعلمك، ولك من يبخِّس عملك، هذا شيء طبيعي جداً من أجل أن يكثر أجرك، واعلمْ أن النبي له أعداء، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ)

(سورة الأنعام الآية: 112)

عدة آيات تؤكد هذا المعنى، إذاً: ما من أحدٍ عنده نعمة إلاّ وله أعداء، إذا كان عندك مال فلك أعداء، إذا كان عندك علم فلك أعداء، إذا كان عندك قوة ملموسة فلك أعداء، شيء طبيعي جداً هذه سنة الحياة، فلما الإنسان يوطن نفسه على أن الحياةَ لا تخلو من مبغض، ومنافق ، وحاسد، وغيور، وطعَّان، ولعَّان، فنظرته واقعية .

أقرب الناس إلى عمر إليكم وصف بيانه :

وله ميزان آخر، قال: " أحبكم إلينا قبل أن نراكم أحسنكم سيرةً "، والله فلان صاحب دين، فلان حقّاني، فلان شهم، فلان رحيم، فلان منصف، هذا كلام الناس، قال: " فإذا تكلمتم فأبينُكم منطقاً "، أي أحبكم إلينا إذا تكلمتم، كلام واضح، حجة قوية، تعليل دقيق، شاهد قوي، قال: " فإذا اختبرناكم فأحسنكم فعلاً " .

خطر في بالي شيء مشابه لهذا، أن بعض الناس تجالسه فلا يتكلم بأيّة كلمة، قد تقول: طويل، لونه حنطي، جميل الوجه، فإذا تكلم نسيتَ شكله، وإذا تكلم كلامًا سيئًا نسيتَ مظهرَه، قال الشاعر:

جمال الوجه مع قبح النفوس كقنديلٍ على قبر المجوس

تكلم أحدُهم كلامًا قبيحًا، وهو أنيق جداً، فقال له آخر: إمّا أن تلبس مثل كلامك، أو إما أنْ تتكلم مثل لباسك، فهذا الإنسان لما رأيته، رأيته أنيقًا، بهي الطلعة، ثيابه جميلة، فهذا أول انطباع، فلما تكلم نسيتَ شكله، فكلامه إما أن يرفعه إلى أعلى عليين، وإما أن يهوي به أسفل سافلين، قال الشاعر:

وكائن ترى من صامتٍ لك معجبٍ زيادته أو نقصه في التـــكلُّم

تكلم كلامًا طيبًا، فما هذا العلم؟ لديه منطق، وحجة، وبرهان، وطلاقة لسان، وطلاوة حروف، شيء جميل، ذهبت معه إلى نزهة، لم يشتغل، بل دفعك أنت، ولم يشتغل شيئاً فتنسى كلامه، فالكلام ينسيك الشكل، والمعاملة تنسيك الكلام، والعبرة أنْ يكون الإنسان في سلوكه وفق ما يريد الله عزَّ وجل .

ليست العبرة أن يعرفك الناس ، وإنما العبرة أن يكون لك مقام عند الله :

القصة المشهورة جداً عن سيدنا عمر، أنه طلب من شخص أن يأتي بمن يعرفه، قال له : " يا هذا إني لا أعرفك، قال: ولا يضرك أني لا أعرفك، قال: ائت بمن يعرفك، فجاءه بشخص قال له: هل تعرفه؟ قال له: نعم أعرفه، قال له: هل سافرت معه؟ قال له: لا، هل جاورته؟، قال له: لا، هل حاككته بالدرهم والدينار؟، قال له: لا، قال له: أنت لا تعرفه "، ولما جاءه رسول من القادسية يخبره أنَّ خلقًا كثيرًا مات فيها، قال له: من هم؟ قال له: إنك لا تعرفهم، فبكى عمر، وقال: وما ضرهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم"، فمن أنا ؟.

فلما قال للإنسان: " يا هذا إني لا أعرفك، قال: ولا يضرك أني لا أعرفك"، أنا عبد مثلك، لا أقدِّم ولا أؤخِّر، قد تكون أفضل مني، فإذا لم تعرف إنسانًا فهذا لا يقدح في مكانتك، وإذا دخلت إلى مكان، ولم يعرفوك، فلا تقل: لم يعرفوني، ولم يوجهوني، ليست هذه مشكلة، مقامك عند الله محفوظ، فالأتقياء الأخفياء أثنى عليهم النبي الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا .

فالإنسان يُعرف بالسفر، وسمِّي السفر سفراً، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، يُعرف بالتعامل المادي، يُعرف بالمجاورة، أما بالشكل، وبالحديث، وبالمظهر العام، فهذا لا يكفي لمعرفة الرجل .

لا يعبد إلا الله ، ولا يعبد الله إلا بما شرع :

مرة تحدث أصحابه أمامه عن رجل، وأثنوا عليه ثناءً كبيراً، وممّا أثنوا عليه أنه لا يعرف الشر أبداً، فقال عمر: ذلك أجدر أن يقع فيه، يقول لك: مثل المصحف المطوي، إذا كان واحد يجهل الشر فهو أقرب الناس للوقوع فيه، قال عمر: لا بد من أن يعرف الشرين، ويعرف أهونهما .

ففي الحج مثلاً من أجل أن يقبِّل الحجر يرتكب عشرة آلاف معصية، التقبيل سنة، لكنه خالف الفرائض فوقع في إيذاء المسلمين، وقع في الالتصاق بالنساء، وقع في مخالفات كبيرة جداً من أجل سنة، هذا الحاج جاهل، فلذلك الإنسان أحياناً لكي يؤدِّي سنة يترك لأجلها فريضة، من أجل أنْ يقوم بمستحب يترك واجبًا، أحياناً يقول لك: أنا لا أسمح لطبيب أن يرى زوجتي، خير إن شاء الله، أتموت الزوجة؟ هناك طبيب مختص، فهذا جاهل، فمسموح للطبيب أن يرى المرأة، وهذا أهون الشرين، طبعاً كشف المرأة أمام الطبيب خطأ، لكن أن تموت المرأة، وهناك من يداويها فهذا خطأ أكبر، فالإنسان لا بدّ أن يعرف الشرَّين، ويختار أهونهما، ويفرِّق بينهما، هذا رأي سيدنا عمر، وهو الصحيح أساساً .

سؤال وجه إلى عمر :

له رأي دقيق جداً، مرة سئل: أيهما أفضل ؛ رجل لا يأثم، لأن نفسه لا تشتهي الإثم، أم رجل تشتهي نفسه الإثم، ولا يأثم؟ فسيدنا عمر رأيه أنّ الذين يشتهون المعصية، ولا يعملون بها هم الأفضل، قال تعالى:

(أولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة الحجرات الآية: 3)

معنى ذلك أن الإنسان إذا كان في ريعان الشباب، وعملُه في الأسواق، وغَضَّ بصره فهذا له أجر كبير، من السهل أن تعتزل الناس، وأن تقعد في بيت في رأس الجبل، ليس لك أية مخالفة، لكن أن يكون لك عمل في سوق تجاري، وتجمع في سلوكك الصِدْق والأمانة والاستقامة، فهذه بطولة، وهذه المجاهدة، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

" رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى ".

(ورد في الأثر)

اجتهاد عمر في المسائل ، ولكل مسألة ظرفاً حكم بها :

أحياناً كان يستفتى في قضيـة يعطي فيها رأيـه، وحين استفتي في قضية مشابهة أعطي رأيًا آخر، فلما قيل له: إن لك في هذا اجتهادين متناقضين، فقال سيدنا عمر: ذاك على ما قضينا، وهذا على ما نقضي ، أي أن المشكلة واحدة، ولكن لها ظروف مختلفة .

قد يقول لك: هل على الحلي زكاة؟ تقول له: لا يوجد عليها زكاة، فمثلاً امرأة فقيرة، عندها سواران، ليس عندها غيرهما، فهل يكلّفها الشرع أن تبيع واحدة لكي تدفع الزكاة؟ هذه لا زكاة عليها، لكن امرأة غنية معها مئات الألوف نقداً، ومعها حلي، فنقول لها: الأحاديث تؤكّد أنّ على الحلي زكاة، هذا اجتهادان مختلفان .

له اجتهاد دقيق جداً، في سهم المؤلفة قلوبهم الذي يُؤدَّى من الزكاة، فقد أبطله في حياته، الإسلام كان ضعيفًا، وكان بحاجة إلى تأييد الأقوياء، فكان هؤلاء الذين سماهم القرآن المؤلفة قلوبهم نعطيهم، والإسلام ضعيف، أما وقد نصر الله الإسلام، وقويتْ شكيمته، وأصبح قوياً، فالآن هذا السهم ليس له وجود، هذا اجتهاد سيدنا عمر، قال: " لقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يعطيهم، والإسلام يومئذٍ ضعيف، أما اليوم فقد أعز الله دينه، وأعلى كلمته، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، ولا يتسع هذا الدين إلا من يدخله راغباً مؤمناً "، فمع ورعه الشديد، مع تقيده الشديد بالنص كان جريئاً في اجتهاده .

من مبشرات النبي لعمر :

يروي البخاري ومسلم رضي الله عنها، أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، قال:

" بينما أنا نائمٌ إذ رأيت قدحاً، أوتيت به فيه لبن، فشربت منه حتى إني لأرى الريَّ يجري في أظفاري ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب، فقال أصحاب النبي عليهم رضوان الله: فماذا أوَّلتَه يا رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ قال: العلم " .

(أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح)

لأنه غذاء الإنسان، هذا تأويل النبي للرؤيا التى رآها، أي أن عمر عالم .

خشية عمر من أن يفتضح مسلم عند إدراك الحد :

نحن نعرفه شديدًا جداً، ولكن بقدر ما هو شديد فهو رحيم، قال: " جيء بمسلم ارتكب ما يوجب إقامة الحد عليه، ويشهد ثلاثة شهادات تدينه، ولم يبق إلا شهادة الرابع، ثم يصير الحد عقاباً محتوماً، يرسل عمر، ويستدعي الشاهد الرابع، ولا يكاد يراه مقبلاً حتى تأخذه رهبة، وحينما تقترب خطاه ينظر أمير المؤمنين، ويقول: أرى رجلاً أرجو ألا يفضح الله به واحداً من المسلمين ، يقدم الشاهد فيقول لعمر: لم أرَ شيئاً يوجب الحد، يتنفس عمر الصعداء، ويقول: الحمد لله رب العالمين "، كان يتمنى أن هذا الشاهد الرابع لم ير شيئاً حتى لا يفضح مسلماً، تذكروا قول الله عزَّ وجل :

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة النور الآية: 19)

فالذي يتمنى أن تشيع الفاحشة في المؤمنين هذا وضع نفسه مع المنافقين، هل المؤمن يتمنى أن يفضح مؤمنًا؟ بالتأكيد فهو ليس مؤمناً، بل منافق، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا)

(سورة النور الآية: 19)

هدف عمر رضي الله عنه أن ينجو الناس بسمعتهم، وبأجسادهم من العقاب .

لا يجوز للمسلم أن يفضح أخاه المسلم إذا رآه في وضع لا يرضي الله :

مرة جاءه رجل يحمل بشرى، أو ظنها بشرى، قال له: رأيت فلاناً وفلانة يتعانقان وراء النخيل، فيمسك عمر بتلابيبه، ويعلوه بمخفقته، ويقول له بعد أن وسعه ضرباً: هلا سترت عليه، ورجوت له التوبة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

" من ستر على أخيه، ستره الله في الدنيا والآخرة " .

(ورد في الأثر)

هو ورع جداً، لذلك فالإنسان لو وقع في معصية لم يكن مكلفًا أن يتكلم عنها، ويفضح نفسه، حتى أنت كمؤمن لو رأيت أخاك يفعل معصية فلك أن تنصحه فيما بينك وبينه، لكن لستَ مكلفًا أن تخبر عنه، أما الإمام إذا رفعت إليه قضية توجب الحد فلا عفا اللهُ عنه إن عفا، الإمام شيء، وأنت كمؤمن شيء، قال له: هلا سترت عليه .

كان سيدنا عمر، يقول: " هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زلَّ زلةً فسددوه، كونوا عوناً له على الشيطان، ولا تكونوا عوناً للشيطان عليه "، أنت وظيفتك أنْ تستر، وظيفتك أن تخفف عن المؤمنين، وظيفتك ألا تتبع عوراتهم .

ادرؤوا الحدود بالشبهات :

له قول شهير: " لأن أعَطِّل الحدود في الشبهات خيرٌ من أن أقيمها في الشبهات "، هناك أشخاص أصلحهم الله يظنون خطأ أن سيدنا عمر عطّل حدَّ قطع يد السارق، لا، إنه لم يعطلها إطلاقاً، لكن أصبحت إقامة الحد في زمن المجاعة تكتنفها شبهة، لأنّ في الناس جوعًا، فإذا كان حول السارق شبهة في سرقته، كأنْ سرق من مالٍ يظن أن له فيه حقاً فلا يجوز قطع يده، أو سرق من مال فيه شبهة فلا يجوز قطع يده فيه، سيدنا عمر لم يعطل قطع يد السارق، لكن يقول: لأن أعطل الحدود في الشبهات خير من أن أقيمها في الشبهات .

فهي مقولة في القضاء مشهورة، الخطأ في العفو خير من الخطأ في الظلم، حكمنا على شخص ظلماً عشر سنوات، وهو بريء، فلو عفونا عنه خطأً لكانَ أهونَ مِن أن نحكم عليه خطأً.

إنّ رجلاً له ابنة أصابت حداً من حدود الله، فحينما وقعت في هذه المعصية التي توجب الحد، أخذت شفرةً لتذبح نفسها، قال: فأدركناها، وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت، ثم إنها تابت بعدها توبة حسنة، وهي اليوم تخطب إلى قوم، فسأل أخوها سيدَنا عمر: أفأخبرهم بالذي كان؟ فيجيبه عمر: أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بها أحداً من الناس لأجعلنكم نكالاً لأهل الأمصار، اذهب وزوجها زواج العفيفة المسلمة .

هذا درس لنا يا أخوان، قصة تعرفها عن شخص من عشر سنوات، والآن تاب إلى الله وانتهى أمره، ما هذا الكلام الفارغ أن تتكلم عن الماضي؟ .

اجتهاد عمر في مسألة غياب الزوج عن الزوجة والتفصيل في كتب الفقه :

مرة خرج في إحدى الليالي يتفقد أحوال أهل المدينة فسمع سيدةً تشكو بثها وحزنها، وتقول شعراً:

تطاول هذا الليل وازور جانبه وليس إلى جنبي حليلٌ ألاعبه

فوالله لولا الله لا ربَّ غيره لزلزل من هذا السرير جوانبه

مخافة ربي والحياء يصدني وأكرم بعلي ، أن تنال ركائبه

ثم قالت: أهكذا يهون على عمر وحشتنا وغيبة رجلنا عنا؟ سيدنا عمر بحث ودقق وحقق، فإذا هذه المرأة زوجها في الجهاد، وعند الصباح يذهب عمر إلى ابنته حفصة، ويسألها: يا بنيتي كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فتجيبه: تصبر شهراً وشهرين وثلاثة وينفد مع الشهر الرابع صبرها، فيسن من فوره قانوناً بأن لا يغيب في الجهاد جنديٌ متزوج أكثر من أربعة أشهر، ويرسل إلى زوج السيدة يستدعيه من فوره.

أنا أعجب أحياناً من بعض أخواننا، أين ذاهب؟ والله إلى دول الخليج، كم سنة سوف تظل هناك؟ خمس سنوات، وزوجتك، يقول: أتركها في الشام، هل هذا الكلام معقول؟ هناك حاجة أساسية، والإنسان يجب أن يكون دقيقًا، هذه فطرة، لأن يبقى مع زوجته بدخل معقول أفضل من أن يغتني، ويكون هناك خلل في البيت، وهو غائب، هذه حقيقة أساسية، فاستفيدوا منها، أقصى سفر أربعة أشهر، أما تركها خمس سنوات، هي إن شاء الله عفيفة، لكنها احترقت حرقًا في غيابك ، وأنت احترقت في غيابها، ما هذا العمل؟ المفروض أن يجتمع شمل الأسر .

إذا لم يكن دخلك في بعض دول الخليج يساوي ستة آلاف أو ستمئة دينار يُمنَع أن تجلب زوجتك، أصبح له أول سنة والثانية والثالثة، دخله أقل من ستمئة دينار، هكذا النظام، هذا النظام لا ينبع من الإسلام، الإسلام يجب أن تجتمع الأسر، أن يجتمع الأزواج مع الزوجات، فبعض الدول إذا لم يكن لك دخل معين يجب أن تعيش بلا زوجة، أفتعيش منفرداً في هذا البلد بلا زوجة ؟ وزوجتك وحدها في بلدها، فالله الغني، والرزاق واحد، أينما كنت فهو الرزاق، هذا كلام دقيق، وله علاقة بحياة الإنسان، فإنه لم يغب أحد عن زوجته سنوات إلا وسُمع أحاديث، وبُثَّت الإشاعات ، طبعاً العفيفة الطاهرة تبقى على عفتها، لكن هناك خطأ ارتكبه زوجها .

اجتهاد عمر في مسألة إذا سرق الجندي أثناء المعركة :

مع أن الاعتراف سيد الأدلة، لكن سيدنا عمر، قال مرة: ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أجعته، أو أخفته، أو حبسته أن يقِر على نفسه زوراً، لذلك في المحاكمات الآن إذا قال الإنسان : أنا اعترفت تحت

الضغط، يعد اعترافه باطلاً، "ليس الرجل بمأمونٍ على نفسه إن أجعته، أو أخفته، أو حبسته أن يقر على نفسه زوراً، وهذا الإقرار لا قيمة له إطلاقاً .

له اجتهاد خطير جداً، فسيدنا عمر لا يرى أن يقام حد قطع اليد في أثناء المعركة، طبعاً اقتباساً من رسول الله عليه الصلاة والسلام، لو أردت أن تعاقب هذا الجندي في ساحة المعركة، فأهون له أن ينضم إلى الأعداء ويرتد، وينقل أسرار المسلمين إلى الأعداء، لذلك لا يجوز أن يقام الحد، ولا سيما قطع يد السارق في أثناء الحرب، وهذا اجتهاد سليم وصحيح .

لا يقاد الوالد بولده ، أي لا قصاص :

قد نأخذ المذنب بذنبه، لكن أحياناً هناك خلفيات للذنب، ودوافع كبيرة، مرة جيء بغلمان صغار سرقوا ناقة رجل من مزينة، فلا يكاد يراهم صُفر الوجوه، ضامري الأجسام حتى يسأل: من سيد هؤلاء، فقالوا: فلان، قال: إلي به، فلما جاء سيدهم، قال: أنت سيد هؤلاء، قال: نعم، قال: كدت أنزل بهما العقاب لولا ما أعلمه من أنكم تؤدبونهم وتجيعونهم، لقد جاعوا فسرقوا، ولن ينزل العقاب إلا بك، ثم سأل صاحب الناقة: يا مزني كم تساوي ناقتك؟ قال: أربعمئة دينار، قال عمر: اذهب فأعطه ثمانمئة .

أحياناً قد يرتكب الإنسان خطأ، لكن تحت ضغط كبير، فلا ينبغي للقاضي أن يتغافل عن الضغط الشديد، فقد يكون الأب مضطرًّا لإجراء عملية لابنه الذي على وشك الموت، ولم يعطه أحد، يقع في خطأ، والخطأ خطأ، لكن يجب أن يكون هناك أسباب مخففة، دوافع فطرية إنسانية .

له كلمة شهيرة: " لن يغير الذي وليت من خلافتي شيئاً من خلقي إنما العظمة لله وحده وليس للعباد منها شيء "، ولو كنت خليفة عليكم، إني عبدٌ من عبيد الله، ولن تغيِّر الخلافة أخلاقي أبداً، لأن العظمة لله وحده، وللعباد ليس لهم منها شيء، ما هذا الكلام؟ كأننا أمام أساطير .

مواقف عمر :

قال مرة: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب، من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، من أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً، أي تعالوا إليَّ .

مرةً قال لبعض ولاته: بلغني أنه فشت لك فاشية في هيأتك ولباسك ومطعمك ومركبك ليست للمسلمين، فإياك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة مرَّت بوادٍ خصيب فجعلت همها في السمن وفي السمن حتفها .

الإنسان أحياناً يكون حتفه في مكاسبه، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر، خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً، فالإنسان يجب أن يعتدل في مطالبه، وإلا كان عندئذٍ ضحية مطالبه .

مرة رأى امرأةً تبكي ميتاً بالأجرة يسمونها نائحة، فقال: إنها لا تبكي بشجونكم، إنما تبكي بدراهمكم .

مرة سأل أحد أولاد هرم بن سنان، وهو رجل مدحه زهير بن أبي سلمى في الجاهلية مدحًا كبيرًا، فقال عمر: إن كان ليحسن فيكم القول، فقال ابن هرم: ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء، فقال عمر: لقد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا عمر بن الخطاب - الدرس (7-7) : تواضعه الشديد وخدمته الدؤوبة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-03-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

انظر إلى تواضع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب في المأكل وفي المجلس :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والأخير من سيرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، الموضوع الأخير في سيرة هذا الصحابي الجليل هو التواضع الشديد، والخدمة الفائقة التي كانت تلمح من شخصية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

هذا الصحابي الجليل كان يجلس حيث ينتهي به المجلس، ينام حيث يدركه النوم فوق الحصير في داره، أو فوق الرمال، أو تحت ظل النخيل، يأكل ما يجد، شريحة من لحمٍ مقدد، أو شريحةٌ من خبزٍ مبللة بالزيت، حينما يرى عجوزاً تحمل مكتلاً يؤودُها حمله يتقدَّم منها، ويحمله عنها بعض الطريق، ويضحك ملء نفسه، وهو يسمعها تقول شاكرةً له: " أثابك الله الخير يا بُنَي، إنك لأحقُّ بالخلافة من عمر " .

خدمته الفائقة للرعية :

ذات ليلة خرج في جولةٍ من جولاته التي كان يخرج بها وحيداً، والناس نيام ليطمئنَّ على قومه ويرى أحوالهم، وعند مشارف المدينة رأى كوخاً ينبعث منه أنين امرأة فاقترب يسعى، ورأى رجلاً يجلس على باب الكوخ، وعلِم منه أنه زوج السيدة التي تئن، وعلِم أنها تعاني كرب المخاض، وليس معها أحدٌ يعينها، لأن الرجل وزوجته من البادية، وقد حطا رحالهما هنا وحيدين غريبين، رجع عمر إلى بيته مسرعاً، وقال لأم كلثوم زوجته بنت الإمام علي: يا أم كلثوم، هل لكِ في مثوبةٍ ساقها الله إليكِ؟ هل ترغبين في عمل صالح؟، قالت: خيراً، قال: امرأة غريبة تمخض، وليس معها أحد، قالت: نعم إن شئت.

وقام فأعد من الزاد والماعون ما تحتاجه المرأة من دقيقٍ وسمنٍ ومزق ثيابٍ يلف بها الوليد، وحمل أمير المؤمنين القدر على كتف والدقيق على كتف، وقال لزوجته: اتبعيني، ويأتيان الكوخ، وتدخله أم كلثوم زوج أمير المؤمنين لتساعد المرأة في مخاضها، أما أمير المؤمنين فجلس خارج الكوخ، وينصب الأثافي (ثلاثة أحجار للطبخ)، ويضع فوقها القدر، ويوقد تحتها النار، وينضج للمرأة طعاماً، والزوج يرمقه شاكراً ولعله كان يحدث نفسه هو الآخر بأن هذا العربي الطيب أولى بالخلافة من عمر .

وفجأةً صدح في الكوخ صراخ الوليد لقد وضعته أمه بسلام، وإذا بصوت أم كلثوم ينطلق من داخل الكوخ عالياً، يا أمير المؤمنين بشِّر صاحبك بغلام، ويفيق الأعرابي من الدهشة، ويستأخر بعيداً على استحياء، ويحاول أن ينطق بالكلمتين "أمير المؤمنين"، لكن شفتيه لا تقويان على الحركة من فرط المفاجأة، ويلحظ عمر كلَّ هذا، فيشير إلى الرجل أن ابق مكانك، لا ترع، ويحمل أمير المؤمنين القدر، ويقترب من باب الكوخ منادياً زوجته: خُذي القدر يا أم كلثوم، وأطعمي الأم وأشبعيها، وتطعمها أم كلثوم حتى تشبع، وتردُّ القدر إلى عمر بما بقي من طعامٍ، فيضعها عمر بين يدي الأعرابي، ويقول: كُل واشبع، فإنك قد سهرت طويلاً، وعانيت كثيراً، ثم ينصرف هو وزوجته بعد أن يقول للرجل: إذا كان صباح الغد فأتني بالمدينة لآمر لك من بيت المال بما يصلحك، ولنفرض للوليد حقه، لذلك قال عنه عليه الصلاة والسلام:

" أُرِيتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَنْزِعُ بِدَلْوِ بَكْرَةٍ عَلَى قَلِيبٍ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ نَزْعًا ضَعِيفًا وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ حَتَّى رَوِيَ النَّاسُ وَضَرَبُوا بِعَطَنٍ قَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ الْعَبْقَرِيُّ : عِتَاقُ الزَّرَابِيِّ وَقَالَ يَحْيَى : الزَّرَابِيُّ الطَّنَافِسُ لَهَا خَمْلٌ رَقِيقٌ (مَبْثُوثَةٌ) كَثِيرَةٌ "

(أخرجه البخاري في الصحيح)

هذه قصة، قصة من أروع القصص رحمة وتواضعًا وعدالة، يتمتع بها أمير المؤمنين رضي الله عنه .

النبي أنجز أبطالاً :

مرة كان يمشي في طرق المدينة، وقد رأى غلماناً صغاراً يجتمعون، وكان صاحب هيبة شديدة، فلما رأوه تفرقوا، وقال حينما وصل إلى واحدٍ منهم، وهو سيدنا عبد الله بن الزبير قال: يا غلام، لمَ لم تهرب مع من هرب؟ قال: أيها الأمير، لست ظالماً فأخشى ظُلمك، ولست مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك .

النبي عليه الصلاة والسلام ترك أبطالاً، ما اجتمعت البطولة في عصر كما اجتمعت في عهد النبي، والعهد الذي جاء بعد عهد النبي، شيء لا يصدق طفل صغير يقف أمام خليفة ويقول له: أيها الأمير، لست ظالماً فأخشى ظلماً، ولست مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك .

عمر حقاً عبد يخشى الله :

سيدنا عمر كان خليفة للمسلمين وإماماً لهم، فتح الله له فتحاً مبيناً، حتى هابته ملوك الأرض، وتدحرجت عند قدميه تيجانها، وجرت بين يديه الأموال كالأنهار .

زاره وفد من العراق، ومعه الأحنف بن قيس، فيفاجؤون به، والحر شديد، والصيف قائظ، وهو منهمكاً في تطبيب بعيرٍ من إبل الصدقة، يطليه بالقطران، ثم لا يكاد أن يرى ضيوفه، وفيهم الأحنف حتى يناديه: ضع ثيابك يا أحنف، وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير .

استغرب سيدنا الأحنف، وكان تابعيًّا، فإنه من إبل الصدقة وفيه حق للأمة والمسكين واليتيم، فيقول له رجل من الوفد، وقد أذهلته المفاجأة: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، إن عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا الأمر، فهذا ليس عملك، فيجيبه عمر: وأيُّ عبدٍ أعبد مني، ثم يستأنف تطبيب البعير .

مع كلِّ هذه العظمة، كان بهذا التواضع، وهذه الخدمة، وهذا الحرص، وتلك الخشية من الله عزَّ وجل .

يأبى عمر زخارف الدنيا وزينتها :

سيدنا عمر حينما توجه إلى بلاد الشام، واقترب من مشارفها، وقد خرج أهلها لاستقباله ، فيلقاهم رجل في الطريق، قد امتطى جملاً، يجلس فوق غطاء من صوفٍ خشن، وقد دلى رجليه من شعبتي رحله، بلا وجافٍ، ولا ركاب، يلبس قميصاً من قطنٍ، كثير الثقوب، كثير الرقاع، لما خف أهل الشام لاستقبال عمر في الطريق رأوا رجلاً على ناقة فقيرة، ويقبل الناس على هذا الرجل، ويقولون: أين أمير المؤمنين؟ ألم تلق موكبه في الطريق؟ فيجيبهم: أمير المؤمنين أمامكم، لم يقل: بمقابلكم، قال: أمامكم فيغضون السير إلى الأمام، حتى يأتيهم الخبر من ورائهم بعد حين أن أمير المؤمنين قد وصل أيلة، ونزل بها فيعودون مهرولين، ويدخلون على أمير المؤمنين حيث كان يجلس مع الناس، وتكاد تصعقهم المفاجأة، فما أمير المؤمنين إلا الرجل الذي لقيهم يمتطي ناقة، والذي سألوه عن أمير المؤمنين، فقال: إنه أمامكم، وهو يقصد نفسه، هم فهموا (أمام)، ومشوا إلى الأمام، ووصل إلى أيلة، ولما دخلوا عليه رأوا الرجل نفسَه .

ويؤتى له ببرذون، عليه سرجٌ جميل، ورحلٌ أنيق، بحسب مقامه كخليفة، فيرفض ركوبه، ويقول: نحوا عني هذا الشيطان، فإذا قيل له: إن هذه بلاد لا تصلح فيها الإبل، ثم يركب البرذون، ولكن بعد أن جردوه من كل حلية وزخرف، ووضع مكانهما الكساء من الصوف، الذي كان يتخذه غطاء له إذا ركب، ووسادة ينام عليها إذا نزل .

تذكير عمر الولاة بسيرتهم الأولى :

وفي رحلته الأولى إلى الشام يلقاه على أبواب مدينة القدس قادة جيشه وأمراؤه، ممتطين صهوات الخيل، وقد تمنطقوا بحللٍ من الديباج، فلا يكاد عمر يرى المشهد حتى ينزل من فوق دابته سريعاً، ويده على الأرض تأخذ من طوبها وحصاها، ويرمي الأمراء والقادة، ثم يقبل عليهم قائلاً: سرعان ما فُتنتم، أبهذا الزي تستقبلون عمر؟ سرعان ما ندَّت بكم البطنة والترف، وأنتم الذين لم تشبعوا إلا من عامين .
فما رضي لهم هذا الوضع، وتلك الزينة، وهذا الترف، وهذه الصحة، لأنه أرسل مرةً إلى أحد الولاة، وقال له: أما بعد، فقد فشت لك فاشية، احذر يا عبد الله أن تكون كالدابة، مرت بوادٍ خصب، فجعلت همَّها في السمن، وفي السمن حتفها .

رأفته بالقوارير :

ويلتقي ذات ليلةٍ بسيدةٍ تسير وحدها في المدينة، حاملةً قربة كبيرةً، فيقترب منها، ويسألها عن أمرها، فيعلم أنها ذات عيال، وليس لها خادم، وأنها تنتظر حينما يرخي الليل أستاره، فتخرج لتملأ قربتها ماءً، فيأخذ منها القربة، ويحملها عنها، وهي لا تعرف من هو؟ حتى إذا بلغ دارها، قال وهو يناولها قربة الماء: إذا أصبح صباح غد فاقصدي عمر يرتِّب لكِ خادماً، قالت: إن عمر كثير شغله، وأين أجده؟ قال: اغدِي عليه، وسوف تجدينه إن شاء الله تعالى، وتعمل بمشورة الرجل الطيب، لكنها لا تكاد تذهب إلى عمر وتقف بين يديه حتى تصيح مبهورةً: أأنت هو إذاً؟ ويضحك أمير المؤمنين، ثم يأمر لها بخادمٍ ونفقةٍ .
أيها الأخوة الكرام، أحياناً الإنسان يفعل مثلَ هذا، يفعل هذا استعراضاً، يفعل هذا تمثيلاً ، يفعل هذا لينتزع إعجاب الناس، لكن هذا الخليفة العظيم حينما فعل هذه المواقف المتواضعة كان يحرص فيها على طاعة الله عزَّ وجل، وعلى خدمة الخلق، أليس هو القائل مرةً لأحد الولاة: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارقٍ أو ناهب؟ فقال هذا الوالي وفق السنة والشريعة: أقطع يده، قال عمر : إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائعٌ أو عاطل فسأقطع يدك، قال له: يا هذا إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسُدَّ جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفِّر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها في الطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.
وبعد ألف سنة أو أكثر كتبت حقوق الإنسان، ومن هذه الحقوق حق العمل .

الأمر الإلـهي الموجه للأمة :

أيها الأخوة، لا أرى عملاً أعظم في هذه الدنيا من أن توفر الأعمال للشباب، الشاب حينما يعمل يصير له دخل، فيفكر في الزواج، أسس أسرة، الآن بنيتْ لبنةٌ في الإسلام أسرة، وهذا الشاب حينما عمل، وصار له دخل تزوج، ولما تزوج حل مشكلة فتاة، وهنا حلت مشكلته عن طريق هذا العمل، لهذا توفير الأعمال للناس عمل عظيم، وما قوله تعالى :

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

(سورة النور الآية: 32)

آية قرآنية، ما نوع فعل أنكحوا، وما معناه؟ أنكحوا أي زوجوا، وهذا فعل أمر، فالله عزَّ وجل يأمر مَن؟ هذه واو الجماعة، أنكحوا، أي زوجوا الأيامى، الأيامى جمع أيِّم، فمَن هو الأيم؟ هو الإنسان الذي لا شريك له، أي امرأة أيِّم ليس لها زوج، أو شاب ليس له زوجة، الشاب اسمه أيم، والفتاة اسمها أيم، والمرأة المطلقة اسمها أيّم، والأرملة اسمها أيّم، أي من الجنسين، ذكرًا كان أم أنثى، ليس له زوجة أو زوج، فهذا هو الأيِّم، الأمر الإلهي:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

(سورة النور الآية: 32)

فهذا الأمر حينما وُجِّه للمجموع بدليل واو الجماعة، فمَن هم المقصودون؟ المجتمع المسلم، أي يا أيها المؤمنون أنكحوا الأيامى منكم، ماذا يفعل الإنسان الذي عنده بنت؟ كيف يزوجها؟ لم يأتِها خاطب، عنده شاب وليس معه ثمن بيت يزوجه فيه، فالأمر في علم الأصول إذا وجِّه إلى مجموع الأمة فهو موجهٌ حكماً إلى أولي الأمر فيها، ماذا يعني هذا الأمر لأولي الأمر؟ إنّ الله عزَّ وجل خاطب أولي الأمر: يا أولي الأمر أنكحوا الأيامى، هل تصدقون ما معنى هذا الأمر؟ توفير الأعمال، وتوفير البيوت، فإذا وجد الشاب عملاً، ووجد مسكنًا تزوج على الفور، وإذا قلَّ الزواج راجَ السفاح، وإذا كان الزواج مسدوداً صارت طرق السفاح سالكة .

من مشكلات الأمم في هذا العصر :

اسأل الآن شخصًا يعمل في الأمن الجنائي، لماذا نسب الدعارة مرتفعة جداً؟ لماذا نسب الجريمة مرتفعة جداً؟ لأنه كلما ضاقت سبل الزواج، وسبل العمل حلَّ محلها سبل السرقة والزنا، وبالمناسبة، لماذا الربا محرم أشد التحريم؟ لأن المال في الربا يلد المال، وأنت قاعد تضع هذا المبلغ في البنك، وتأخذ ربحًا عليه مجزيًّا، أما لو فتحت محلاً تجاريًّا فأنت تريد محاسبًا، وتريد موظفًا، تحتاج لفواتير،

تحتاج لمطبعة، تحتاج إلى وسيلة نقل للبضاعة، تحتاج إلى مستودع، يمكن لمحلٍّ صغير أنْ يشغل عددًا كبيرًا من العمال، أنا لا أبالغ، وأنت لا تدري .

لذلك كلُّ طريقةٍ يلِدُ المال فيها المال أورثتْ البطالة في المجتمع، والآن أكبر مشكلة في العالم هي البطالة، وقد يقول لك شخص: أنا معي مليون، أو عشرة ملايين، والفائدة بالمئة ثمانية عشر، المليون يعطي مئة وثمانين ألفًا، العشرة ملايين تعطي مليونًا وثمانمئة ألف، وهذا المبلغ يكفي مصروفًا طوال السنة، فلا داعي لأعمل، حينما وضع هذا المبلغ في البنك لم يعد أحد يشتغل ، فانتشرتْ البطالة، هو يعدُّ عالة على المجتمع، لماذا؟ فإنْ كان غنيًّا لم يقدِّم أيَّة خدمة للأمةِ، فالنجار مثلاً صنع بابًا، والخياط قدّم ثيابًا، فهذان قدّما خدمة للناس، أمّا المرابي فلم يقدِّم للمجتمع شيئًا، وهذه قضية اقتصادية، انظر ودقق في الآية:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

(سورة النور الآية: 32)

يا أيها الناس، هذا الأمر موجَّه إلى مجموع الأمة، وهو إذًا موجَّه حكماً لأولي الأمر، مهمتهم أن يوفِّروا المساكن والأعمال .

كلمة سيدنا عمر: إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، وتوفير الأعمال للشباب هذا أعظم إصلاح اقتصادي، لذلك الزكاة التي يدفعها المسلمون أكمل ما فيها أن تحوِّل قابض الزكاة إلى دافع الزكاة، الإنسان عندما أنتج، دفع زكاة ماله، وأنقذ غيره، وهذه لفتة من لفتات سيدنا عمر قال : إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها في الطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

نصيحة من عمر لبعض ولاته :

من لفتاته أيضاً، مواقف تدل على عمقٍ في الرؤية، فقد نصح بعض الولاة، وقال له: لا تغلق بابك دونهم فيأكل قويُّهم ضعيفَهم .

أنت مدير مستشفى فرضاً، إذا كان أي إنسان يتمكن مِن أن يصل إلى المدير، والباب مفتوح، لم يعد أيّ طبيب مثلاً، أو موظف، أو محاسب في هذا المستشفى أن يُسيء، وعلى الفور تقدم شكوى ضده لمديره العام، أما إذا مُنِع أن تقابل المدير العام، فكل هؤلاء الموظفين يفعلون ما يشاؤون .

لله درك أيها الصحابي الجليل ، أي رجل أنت ؟

يقولون في معركة نهاوند، والقصة مروية بروايتين، المسلمون كانوا ثلاثة وثلاثين ألفًا، وكان الجيش الفارسي مئة وثلاثين ألفًا، ليس بين القوتين تناسب، فكان سيدنا عمر يُرى في المدينة يمشي ذهاباً وإياباً، وهو في قلقٍ شديد، وكان لا يستطيع أحد أن يكلمه من شدة هيبته، لأنه قلق على جيش المسلمين، ويتمنى لهم النصر، ولكن الفرق كبير بين أعداد المسلمين وأعداد الكفار، إلى أن جاء رسول من نهاوند، وذكر له أن الأمير قُتل، ونائبه قتل، ومات خلقٌ كثير، وذكر أسماء بعضهم، ثم قال: مَن هم الذين ماتوا أيضاً؟ ثم قال: يا أمير المؤمنين إنك لا تعرفهم بأسمائهم، عندئذٍ بكى عمر بكاءً شديداً، وقال: وما ضرَّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم، هذا هو الإخلاص لله .

أيها الأخوة، لله درُّ هذا الصحابي الجليل الذي كان مثلاً أعلى في البطولة، وفي التواضع ، وفي العدل، وفي الشجاعة والإقدام، وفي الإدراك العميق للأشياء، نحن لا نقرأ هذه السير إلا من أجل أنْ نقتدي بها في حياتنا اليومية، الحقيقة أنّ الدين ليس قصصاً تتلى، ولا متعة تستفاد، إنما هي دروسٌ وعبر نأخذها من أجل أن تكون قدوةً لنا في حياتنا، وأنا أنصح أخوتنا الكرام أن يقفوا عند السيرة وقفة متأنية .

هذا موقف عمر بن الخطاب من جبلة بن الأيهم حينما ضرب أعرابي :

لمّا جاءه جبلة بن الأيهم مسلماً وهو مَلِك من ملوك العرب، سيدنا عمر رحّب به، ولماذا رحّب به؟ لأن النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

" أنزلوا الناس منازلهم "

(ورد في الأثر)

ومن الأدب أن تعطي كل ذي حقٍ حقه، ولكل إنسانٍ مكانته ومقامه، رحّب به أشد الترحيب، وفي أثناء الطواف بينما كان جبلة يطوف البيت، فإذا ببدوي من فزارة يدوس طرف ردائه دون أن يقصد ذلك، فانخلع الرداء من على كتف هذا الملك، فالتفت نحو هذا الأعرابي وضربه ضربةً على أنفه فهشمته، هذا البدوي من فزارة ليس له إلا أمير المؤمنين، فتوجه إليه شاكياً، فما كان من عمر الخليفة إلا أن استدعاه، وقال: أصحيحٌ ما ادعى هذا الفزاري الجريح؟ قال: نعم، لست ممن ينكر شيئاً، أنا أدّبتُ الفتى، أدركت حقي بيدي، أنا ملك، قال له: أرض الفتى، لا بدَّ من إرضائه، ما زال ظفرك عالقاً بدمائه، أو يهشِّمنَّ الآن أنفك، وتنال ما فعلته كفك، فصعق جبلة، وقال: كيف ذاك يا أمير المؤمنين؟ هو سوقةٌ، وأنا عرشٌ وتاج، هذا من عامة الناس، وأنا عرشٌ وتاج، كيف ترضى أن يخِرَّ النجم أرضًا؟ قال له سيدنا عمر: هذه نزوات الجاهلية، ورياح العنجهية قد دفناها أقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحراراً

لدينا وعبيدًا، قال جبلة: كان وهماً ما جرى في خلدي، أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتدٌ إذا أكرهتني، فقال له سيدنا عمر: عنق المرتد بالسيف تحزُّ، عالمٌ نبنيه، كلُّ صدعٍ فيه بشبا السيف يداوى، وأعز الناس بالعبد الصعلوك تساوى، عدل ورحمة .

موعظة ينبغي أن نقتبس منها العبر :

أيها الأخوة الكرام، الذي أرجوه من الله عزَّ وجل أن تكون هذه السير قدوةً لنا في تعاملنا، فكلما وقفت على موقفٍ دقيقٍ دقيق، اسأل نفسك هذا السؤال: أنا ماذا فعلت حيال هذا الموقف، هل قلدته؟ هل كنت بهذا التواضع؟ هل كنت بهذا الإنصاف، وبهذا العدل؟ هذا الذي ينفعنا من قراءة السيرة، ومن دراستها، لأنها والله إسلامٌ مجسَّد، وكما كنت أقول لكم دائماً: إذا كان الكون قرآناً صامتاً، وإذا كان القرآن كوناً ناطقاً، فالنبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي، وصحابته رضوان الله عليهم مسلمون متحركون، أتريد أن ترى مسلماً حقيقياً متألقاً؟ انظر إلى صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، هذا هو المؤمن المسلم، أحيانا تشاهد رقص ميلوية، فهل هذا هو الإسلام؟ يلبس ثوبًا فضفاضًا، فلما يدور دورة سريعة يصبح مثل المظلة، هذا هو الإسلام فهل الإسلام رقص ودوران وطرب ومظاهر؟ حقيقة الإسلام كما كان أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

فهذه السيرة ميزتها أنْ يترسب بأعماق كيانك نموذج كامل للمسلم، هذه أحوال سيدنا عمر ، وقد فعل ما فعل، بجرأةٍ وتقشفٍ، وكبرياءٍ وعلو شأنٍ، سيدنا عمر رأى واحد حانِيًا رأسه وكتفه فضربه بالدرة، وقال له: يا هذا لا تُمِتْ علينا ديننا، الإسلام عزيز، فارفع رأسك، فمظاهر التذلل والخضوع والخنوع هذه مرفوضة عند سيدنا عمر .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا ويلهمنا رشدنا إنه على ما يشاء قدير، والحمد لله رب العالمين .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا عثمان بن عفان - الدرس (1-3) : من فضائله سخائه في الإنفاق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-12-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف ندرس تاريخ المسلمين ؟

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأول من دروس الصحابي الجليل سيدنا عثمان بن عفَّان، بادئ ذي بدء لا يستطيع أن يؤرِّخ للأبطال إلا من كان بطلاً، لماذا؟ لأن الخطر يكمن في أن تفهم تاريخ الأبطال بمقياس آخر، أن تفهم أصحاب المبادئ بمقياس أصحاب المصالح، أن تفهم أصحاب القيم بمقياس أصحاب الحاجات، والأهداف الأرضية، فإذا تدخَّلت المقاييس الحديثة في التاريخ القديم فقد نصل إلى نتائج ليست واقعية، وليست صحيحة، فهذا الصحابي الجليل سيدنا عثمان نال منه بعض أعداء الدين بعض النيل، ولو أننا درسنا تاريخ هذا الصحابي الجليل دراسة على ضوء عصره، لا على ضوء مقاييس نعيشها اليوم، قد تكون مقاييسنا مقاييس مادية، وقد تكون مقاييسنا أساسها المصالح، لكن لو نظرنا إلى هذا الصحابي الجليل بمقياس عصره، بالقيم التي عاشها، والقيم التي أمضى حياته من أجلها لعرفنا قدر هذا الصحابي الجليل، والنبي عليه الصلاة والسلام كما أذكِّركم دائماً يقول:

" إذا ذكر أصحابي فأمسكوا " .

(ورد في الأثر)

فنحن علينا أن نأخذ من تاريخ المسلمين الصفحات المشرقة كي تكون هذه الصفحات باعثاً لنا، وحافزاً على البطولة، أما أن نُعنى بتاريخنا على أنّه حالةٌ لا تُرضي فلعله افتراء، ولعله تزوير، ولعله مبالغة، هذه الصفحات التي يمكن أن تشوِّش علينا يجب ألاّ نلتفت إليها، هذا التاريخ كما قلت لكم من قبل هو عبء علينا، وليس حافزاً لنا، فنحن إذا قرأنا التاريخ الإسلامي نريد أن نستشفَّ روح التاريخ، أن نستشفَّ عظمة الأبطال كي يكون هؤلاء الأبطال مُثُلاً عُليا أمامَنا، أما أن نعنى بالجزئيَّات والتفاصيل التي قالها زيد، وأنكرها عُبيد، ووردت في الكتاب الفُلاني، أو الكتاب الآخر، فهذا ليس مما يعنينا إطلاقاً، الإنسان عليه أن يصطفي لأن الوقت قصير والمهمة خطيرة .

إذّا: نحن لا يعنينا من التاريخ وقائعه وجزئيَّاته، يعنينا روح التاريخ، لا يعنينا من الشخص لونه ولون عينيه ونوع شعره وطوله، يعنينا بطولته، الذي يليق بنا أن نضع أيدينا على الجوهر لا على العَرَض،

أن نقف على اللُب لا على القشور، فلكل شيء قشور ولباب، فالبطل والعاقل هو الذي يمسك بلُبِّ الأشياء لا بقشورها، هذه أول نقطة في دراسة سيرة سيدنا عثمان رضي الله عنه .

اضرب لكم هذا المثال للتوضيح :

فتصورَّ أنّ إنسانًا لديه مكتبة ضخمة جداً، بمساحة أربعة جدران، وبارتفاع السقف، كلها زاخرةٌ بالكتب، وعنده امتحانُ تَخَرُّج بعدَ شهر، ومقرراً عليه أربعة كتب ينبغي أن يؤدي امتحاناً لينجح فيها، لو أنه أمضى وقته في تصفُّح هذا الكتاب وذاك الكتاب، ونسي الكتاب المقرر، فما أفلح ولا أنجح، فما دام الوقت محدودًا، والمهمة خطيرة، والنتائج باهرة فعلى الإنسان أن يصطفي ، يجب أن تصطفي فأنت مؤمن، دائماً المؤمن يصطفي مما حوله بالقدْر الذي يخدم هدفه، والمؤمن له هدف واضح، هو إرضاء الله عزَّ وجل، هدفه معرفة الله عزَّ وجل، هدفه معرفة منهج الله عزَّ وجل، هدفه أن يزداد علماً، وأن يزداد قرباً، هدفه أن يحقق ما أراد الله من الإنسان، هدفه أن تكون خطواته نحو الآخرة خطواتٍ ثابتة ومتسارعة، لذلك عليه أن يصطفي، يصطفي اللقاءات ، يصطفي السهرات، يصطفي المطالعات، يصطفي الأصدقاء، يصطفي مجالس العلم، فكل مَن يسعى بلا هدف فحياته في ضياع .

من تعاريف الدين :

أجمل تعريف للدين تعريفٌ عرَّفه أحد أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال: إنه طريقٌ وضعنا النبي عليه الصلاة والسلام في أوَّله، وهذا الطريق يفضي بنا إلى الجنة، وعلى هذا الطريق مسارب كثيرة، وعلى رأس كل مسربٍ رجل يدعو إلى هذا المسرب، هذا المسرب يأخذنا إلى النار، تصورَّ طريقًا عريضًا، هذا الطريق لو وقفتَ في أوله، وسرت عليه لا نتهى بك إلى الجنة، هذا هو الحق، وهذا هو الصراط المستقيم، على جوانب الطريق مسارب كثيرة، وعلى رأس كل مسرب مَن يدعو له؟ هناك من يزيِّن لك الدخول في هذا المسرب، ولكن كل هذه الطرق إذا خرجت عن الطريق المستقيم انتهت بك إلى جهنَّم، فلذلك على الإنسان أن يحتاط، فأسلَمُ شيء في حياته أن تكون على منهج الله، وأن تكون على صراط الله المستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات والأرض، الآية الكريمة:

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

(سورة الشورى الآية : 52-53)

صراط الله؟ أي هل تعرف مَن تصاحِب؟ حينما تجلس في مجلس علم، حينما تستمع إلى كلام الله، حينما تستمع إلى سنة النبي، هل تعرف مع مَن تجلس؟ مع خالق الكون، مع منهج الله .

الميزان الصحيح لتقييم الناس هو بما عند الله وليس بما عند البشر :

قلت في درس سابق: إن الذي يدعو إلى الله عزَّ وجل ويأتي عمله مطابقاً لدعوته، منطلقاً من إيمانه وإخلاصه فهو في قمة المجتمع البشري عند الله، ولو كان عند الناس في أدنى درجة من السُلَّم الاجتماعي، ولو كان حاجبًا، ولو كان ضارب آلة كاتبة، ولو كان موظَّفًا بسيطًا جداً، ولو كان عاملاً بأجر محدود، لقوله تعالى :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت الآية : 33)

ما هي التجارة التي لن تبور ؟

أيها الأخوة، إذا شعرت أن أخاً كريماً سعى سعياً حثيثاً، واجتهد اجتهاداً طويلاً لهداية أخ واحد، ولكن لهداية حقيقية، وليست غايته (تباركنا بكم يا سيدي)، والمعاصي مِن حوله، وتحوم حواليه، فكثير من الناس لهم كلمات لطيفة لكن ليست لها معنى إطلاقاً، مثل: تباركنا، والبيت أنور بوجودك يا سيدي، وتجد هذه الأجهزة من حوله، والمعاصي، والنساء السافرات، والاختلاط، فأي بركة هذه؟ نحن إذا قلنا:

" لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس"

(ورد في الأثر)

فالمقصود الهداية الحقيقية، فالإنسان حينما يتعرَّف إلى الله معرفة حقيقية، وحينما يرى دائماً أن الله لا إله إلا هو، يرى التوحيد، حينما يرى أن الله معه دائماً، حينما يرى أن له في الدنيا مهمة عظيمة، فأنت حق ممن عرف الناس بربهم، واستقام على أمره، وسعد بقربه، وأسعد مَن حوله .

أيها الأخوة، هذا العمل الذي تفعله، ولو استغرق من وقتك طويلاً، و من جهدك كثيراً، ومن خبرتك وطاقتك الكثير الكثير، فو الله لأنتَ مِن أسعد الناس، وأنت مِن أربح الناس، وهذه هي التجارة التي لن تبور، وكل واحد حجمه عند الله بحجم عمله قال عليه الصلاة والسلام:

" وما أحدث رجلٌ أخاً في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة "

(ورد في الأثر)

لكل عصر ظروفه الخاصة وله اجتهاده بما يلائم تلك الوقائع التي تقع فيه :

دخل على سيدنا عثمان بن عفّان ذي النورين رجلٌ من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعند هذا الصحابي الجليل رجل يعطيه عطاء، فالداخل بكى، قال له: لمَ تبكي ؟ قال: يا أمير المؤمنين كنتُ عند عمر، وجاء هذا بالذات فلم يعطه، وها أنت تعطيه، سبحان الله تغيَّر الزمان، فما كان مِن هذا الخليفة العظيم إلا أن قال له: عمر منع لله، وأنا أُعطي لله .

فهذا اختلاف اجتهاد، لهذا أقول دائماً: إنّ الله سبحانه وتعالى أجلُّ وأعظمُ مِن أن يجتهد عبد اجتهاداً مخلصاً، ويرفضه الله عزَّ وجل، أصبت أو لم تُصب، فما دام الاجتهاد مخلصًا، وما دام الاثنان يريدان وجه الله عزَّ وجل، هذا الكلام يسع الناس جميعاً .

فلكل عصر قيَمُه ومقاييسه، لا نستطيع أن نفهم عظمة أصحاب رسول الله إلا إذا كنا معهم بالقيم التي عاشوها، بالصفاء الذي عاشوه، بالإخلاص الذي تمثّل في سلوكهم .

إليكم هذا المثال للتوضيح :

هناك أمثلة أوضح من ذلك، أن سيدنا عمر عزل سيدنا خالدًا، فلماذا عزله؟ فهل هو خائف منه أم غير خائف منه؟ هل خاف أن يقوم بعمل تكتُّل ضده، أو يتنكّر له، أو يقوم بانقلاب عليه؟ كل هذه الأفكار أفكار معاصرة، هذه لا تليق بصحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فسأل سيدنا خالدٌ لسيدنا عمر: لمَ عزلتني يا أمير المؤمنين؟، قال له: والله ما عزلتك إلا مخافة أن يفتتن الناس بك، لكثرة ما أبليت في سبيل الله، لأن النصر في جميع المعارك التي قادها اقترن في أذهان الناس بسيدنا خالد، فخاف على الناس أن يتوهَّموا أن النصر من عند سيدنا خالد، وهو من عند الله، فعزله، وأراهم كيف أن النصر لا يتغيَّر؟ فبين أن يفهم الإنسان هذا الحادث فهماً معاصراً ، فهمًا مصلحيًّا، فهمًا أساسه الخوف، أو القلق، أو السيطرة، أو الأنانية، وبين أن يفهم أنّ هذا الحادث أساسه إنقاذ عقيدة التوحيد .

فأنا أقول لكم دائماً: إنك لن تستطيع أن تتذوَّق مواقف أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام إلا إذا كنت على شيءٍ من الإيمان، إلا إذا كنت على شيءٍ من القرب من الله عزَّ وجل، فأحياناً الإنسان يقرأ قصة عن صحابي، فالمؤمن الصادق تجده يقول: والله أنا لا أستطيع أن أفعل هذا، فأنا مؤمن بسيط، وحجمي صغير جداً، وقد أتيت في زمان متأخر، ولا يُعقل أنْ أفعل هذا لضآلة طاقاتي، أيليق هذا بأصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ ففي عصرنا أحد المقاييس نفسها التي بين جنبيه، منها ينطلق، ولها يعمل .

من أبرز صفات هذا الخليفة الراشد :

1- كان رجلاً غنياً :

أيها الأخوة، هذا الصحابي الجليل كان من السابقين إلى الإسلام، ولقد كان سيدنا عثمان غنيًّا، لكن العجيب أن هناك صحابيًّا غنيًّا وآخر فقيرًا، وفيهم صحابي متقدِّم في السن، وآخر شاب ، وصحابي صبي، وصحابي طفل، وهناك صحابي ألمعي، وآخر بسيط، ولكن كلُّهم على العين والرأس، فتنوُّع الصحابة يعطيك تنوُّع النماذج البشرية .

فكل واحد منكم بوضعه، بإمكاناته، بثقافته، بانتماءاته، بحرفته يمكن أن يحقق أعلى درجات البطولة، هذه البطولة أبوابها مفتَّحةٌ لكلِّ مؤمن، فلا تقل: إنّ البطولة كانت في عصر الصحابة، والآن أُغلقت أبوابها، الله عزَّ وجل هو هو، وشرعه هو هو، والقرآن هو هو، فبإمكانك أنْ تبذل من مالك، ومن وقتك، ومن خبرتك، وبإمكانك أن تصلي، وتقرأ القرآن، وتحفظه، وتفهمه ، وتشرحه، وبإمكانك أن تعتني بأهلك، وبأولادك، وبزوجتك، فالذي استطاعه أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام تستطيعه أنت، وما عليك إلا أن تنطلق، فالآيات الكريمة:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين الآية : 26)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات الآية : 61)

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الذاريات الآية : 50)

يعني شمِّروا فإنَّ الأمر جد، تأهبوا فإنّ السفرَ قريب، والنبي عليه الصلاة والسلام وصف هذا الصحابي الجليل بأوصاف رائعة جداً، وانتبهوا إلى هذا الكلام، فهو عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، بينما أيُّ إنسان آخر يمكن أن ينطق عن الحق، وعن الهوى، أما النبي عليه الصلاة والسلام لا في غضبه، ولا في رضائه، ولا في شدَّته، ولا في بحبوحته ينطق عن الهوى، قال تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم الآية : 3-4)

فإذا وصف النبي صحابياً جليلاً بصفاتٍ رائعةٍ، فهذا الوصف حق وصدق، لا شكَّ فيه أبداً، فالمؤمن علامته أنه إذا صحَّ عنده قولٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، فهذا القول عنده حقٌ، لا يرقى إليه شكٌ أبداً .

2 - كان رجلاً أخلاقياً :

فأحياناً الإنسان قبل أن يستمع لإنسان، قبل أن يستمع لأفكاره، وإلى أدلته، قبل أن يناقشه ، قبل أن يحاوره، هناك شيء يسبق الحوار والمناقشة، وهو أخلاق الرجل، فأحياناً يكون المؤمن صامتاً، لكن سمته الحسن، وأخلاقه العالية، ووفاؤه، وصدقه، وأمانته، وورعه، وانضباطه وإتقانه لعمله، وتفوُّقه في عمله، هذه الصفات هي التي تجلب النظر إليه، هي التي تدعو الناس للالتفاف حوله، هي التي تجعل الناس يرمقونه بنظرات الإكبار والإجلال .

فسيدنا عثمان بن عفان كان شخصًا أخلاقيًّا، فلما سمع بدعوة النبي عليه الصلاة والسلام سارع إلى تصديقها والإيمان بها، فكان خامس صحابي من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام دخل الإسلام، يقول كتّابُ السيرة: كان محمد صلى الله عليه وسلّم قبل أن يكون رسولاً يملأ الأفئدة الذَّكية الصافية روعةً وتأثيرا، وكان لعثمان فؤادٌ من هذا الطراز، يحمل لمحمد صلّى الله عليه وسلّم أروع الصور وأبهاها .

إذا استقمت على أمر الله ، مقامك يدل على الله :

أيها الأخوة، والله بإمكانك أن تكون أكبر داعية، وأنت ساكت دون أن تقول كلمة، فلك سمعة، لك سلوك، لك كلام منطقي، لك كلام مهذَّب، ولو أقام معك شخص خمس سنوات لم يسمع منك مُزاحًا سيء، ولم يسمع كلمة نابية أو تعليقًا ساخرًا، وما سمع تهكُّمًا أبداً، بل أنت دائماً جاد، فهذا الذي يجهد أن يقول كاملاً هو داعية إلى الله، وهو لا يدري، داعية بكل معنى لهذه الكلمة، هذا الكلام استنبطته من أن هذا الصحابي الجليل سارع إلى الإيمان برسول الله عليه الصلاة والسلام، لا لأنه سمع منه الكثير، وناقشه كثيراً، فالقضية أقوى من ذلك، فأخلاق النبي العالية، وسماته العظيمة، وسمعته الطيبة، وكماله هي التي جذبتْ أصحابه إليه، فقوة الجذب تكون أحياناً بالتواضع، وتكون أحياناً بالكرم، وأحيانًا بإطعام الطعام، وبالتسامح، وبالعطف، وبالرحمة، وبالإنصاف، وبالعدالة .

قد يخطر ببالي أن صهر النبي الكريم صلّى الله عليه وسلّم (أبا العاص) وقع أسيراً في قبضته، وقد جاء ليقاتله وأصحابه، وهو زوج ابنته، فلما استعرض النبي الأسرى نظر إليه، ووقف عنده، وقال:

" واللهِ يا أبا العاص ما ذممناك صهراً "

(ورد في الأثر)

ماذا فعلت هذه الكلمة في نفسه؟ ما هذا الإنصاف؟ لعل هذه الكلمة تركت أثر في نفس هذا الزوج، وقد كان وقتها مشركاً، وهذه الكلمة المنصفة هي التي رفعته ورفعته إلى أن صار من أصحاب النبي عليهم رضوان الله .

فأنت لا تيئس، وقل كلمة الحق، هذا الذي أسلم، وهو فرنسي، وكان زعيماً لحزب علماني إلحادي بفرنسا، لماذا أسلم؟ قال: كان هناك جندي مغربي مسلم، وذلك قبل ثلاثين سنة، وقد أُمِرَ هذا الجندي بقتله بعد أسره، وهذا الجندي بدافعٍ من إيمانه وإسلامه رفض أن يقتله، وقام بتهريبه، فأنقذ حياته بدافع من دينه، فتساءل: ما هذا الدين؟ هذا الكلام المقصود منه أنك من الممكن أن تكون داعية، وأنت ساكت، ومِنَ الممكن أن تجذب الناس بأخلاقك، بإنفاقك، بكرمك، بتواضعك، وممّا يحيِّر العقول في زماننا أنك تجد شخصًا يحضر مئة جلسة، تحتوي على إقناعات ، وأسئلة، وأجوبة، ويستمع إلى أشرطة، ثم يقول لك: أنا لست مقتنعاً بهذا كثيراً، فقد يملأ نصف عمره بالمناقشات .

لكن الصحابة ألم يصلوا إلى أعلى مستوى مِن الإيمان؟ فما الذي دفعهم إلى الإيمان السريع برسول الله عليه الصلاة والسلام؟، قلت لكم: تألُّق النبي، تألُّق أخلاق النبي، ولو كان الدعاة متألّقين بأخلاقهم وقيمهم لرأيت الناس يلتفُّون حولهم التفافاً آخر غير هذا الالتفاف .

من مبشرات هذا الخليفة الراشد الرؤيا الصالحة :

سيدنا عثمان رأى رؤيا، قال: ذات يوم، وهو قادمٌ من الشام جلس يقيل في مكانٍ ظليل، أي يستريح، غلبه النوم هو ورفاقه، فإذا به يسمع في حُلُمه منادياً ينادي النائمين: أن هُبّوا أيقاظاً فإن أحمد قد خرج بمكة .

أقول لكم هذا الكلام، وأرجو أن يبقى في أذهانكم، قول النبي عليه الصلاة والسلام:

" الرؤيا الحسنة من الرجلِ الصالح، جزءٌ من ستة وأربعين جزءا من النبوة " .

(أخرجهما البخاري ومسلم عن أنس بن مالك في الصحيح)

أي أن الله عزَّ وجل لكرامتك عليه أحياناً يُريك رؤيا إعلامية مباشرة، هذه الرؤيا إيَّاكم أن تستهينوا بها، إذا كانت هذه الرؤيا واضحة وضوح الشمس، نداءٌ يدعوك في النوم إلى طاعة الله، إلى سلوك طريق الإيمان، فاعلم علم اليقين أن هذه الرؤيا هي إعلامٌ من الله عزَّ وجل، كيف أن الأنبياء يأتيهم الوحي؟ الرؤيا الصادقة جزءٌ من ستة وأربعين جزءًا من النبوة ، ما بقي من النبوة هذه الأيام إلا الرؤيا الصالحة، يراها الرجل الصالح، أو تُرى له، فإذا رأى المسلمُ رؤيا صالحة واضحة تماماً وضوح الشمس، تأتي كفلق الصبح، عليه أن يعبِّرها، ويتفاءل بها .

سيدنا عثمان سمع في منامه منادياً، يقول: أيها النائمون أن هُبّوا أيقاظاً فإن أحمد قد خرج بمكة، هذه بشرى .

3- كان رجلاً سخياً :

كان هذا الصحابي الجليل سخياً إلى درجة تأخذ بالألباب، كان سخياً إلى درجة لا تصدَّق ، ففي بعض مواقف سخائه أمام النبي عليه الصلاة والسلام، قال عليه الصلاة والسلام:

" ما ضرَّ عثمان ما صنع بعد اليوم ، اللّهم ارض عن عثمان ، فإني عنه راضٍ " .

(ورد في الأثر)

هل توجد مرتبة أعلى من هذه المرتبة، أن يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

" اللّهم ارض عن عثمان فإني أمسيت عنه راضِيًا " .

(ورد في الأثر)

هل هناك مرتبة أسمى مِن أنْ يقول النبي عليه الصلاة والسلام: " ما ضرَّ عثمان ما صنع بعد اليوم" هذا القول قد يفهم فهماً معكوساً، وهو أنه بعد أن أنفق هذه النفقة لو ارتكب كل المعاصي، فهذه المعاصي لا تضرّه، ليس هذا هو المعنى، هذا السخاء الكبير جعله على درجة من القرب كبيرة جداً، هذه الدرجة لن تسمح له أن يفعل شيئاً ، هذه الدرجة العالية من القُرب لن تسمح له أن يقترف ذنباً، أي أن كل أفعاله لا تمتّ إلى الذنوب بصلة، " ما ضرَّ عثمان ما صنع بعد اليوم ".

انظر إلى المفارقة بين الرواية الصحيحة وبين الرواية المغلوطة في قصة عثمان :

هناك قصة تروى روايةً محرَّفة، أن النبي عليه الصلاة كان جالساً، وقد حسر عن فخذه ، فدخل سيدنا الصديق فلم يفعل شيئاً عليه الصلاة والسلام، ودخل سيدنا عمر ولم يفعل شيئاً، ثم دخل سيدنا عثمان فقال: ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة، وأسدل ثوبه .

فاسمعوا الرواية الصحيحة،

" فعن أم المؤمنين عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى فِرَاشِهِ لابسٌ مرطَ عَائِشَةَ فَأَذِنَ لأَبِي بَكْرٍ وَهُوَ كَذَلِكَ فَقضَى إِلَيْهِ حَاجَتَهُ ثُمَّ انْصَرَفَ فَاسْتَأْذَنَ عُمَرُ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَقضَى إِلَيْهِ حَاجَتَهُ ثُمَّ انْصَرَفَ ثُمَّ جَاءَ عُثْمَانُ ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَجَلَسَ وَقَالَ لِعَائِشَةَ اجْمَعِي عَلَيْكِ ثِيَابَكِ فَقضَى إِلَيْهِ حَاجَتَهُ ثُمَّ انْصَرَفَ فَقَالَتْ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لِي لَمْ أَرَكَ فَزِعْتَ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ كَمَا فَزِعْتَ لِعُثْمَانَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ عُثْمَانَ رَجُلٌ حَيِيٌّ ، وَإِنِّي خَشِيتُ إِنْ أَذِنْتُ لَهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ أَنْ لا يَبْلُغَ إِلَيَّ فِي حَاجَتِهِ ، أَلا أَسْتَحِي مِمَّنْ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلائِكَةُ "

(أخرجه أحمد عن عائشة في مسنده)

نحن تكلّمنا من قبل وقلنا: إن المزية لا تعني الأفضلية، فهذا الإنسان طبعه شديد الحياء ، فلو رأى النبي على حاله تلك لما دخل، وطبعاً سيدنا الصديق إنسان عظيم جداً، فنوع العلاقة بين رسول الله عليه الصلاة والسلام والصديق تختلف عن نوع العلاقة بين سيدنا عثمان بسيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام، فكل صحابي له نمط، وله طبع وسلوك معيَّن، فالنبي كان يعرف أصحابه واحداً واحداً .

فلو فرضنا أنك دخلت بيتَ إنسان فلبس بدلته الرسمية مسرعًا، وتهيأ لك، وقام بحسن استقبالك، فهل تقابله بثياب البيت؟ لا تقدر، فما دام تهيأ بهذا التهيّؤ واهتم بهذا الاهتمام، فأنت تجد أنه من المناسب أنْ تقابل اهتمامه بك باهتمام مماثل، ففوراً ترتدي ثيابك، أما إذا كان الشخص في بينك وبينه محبةٌ رائعة، فدخلت إليه، وكان يرتدي ثياباً نظيفة أنيقة مرتَّبة، ولكن لم يغيِّر ثيابه، فلو جاءك أنت، وما غيَّرت ثيابك فلا مانع، لكنَّ ثوبَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان محسوراً عن فخذه الشريف، ودخل سيدنا الصديق، ولم يغيِّر من وضعه، ودخل بعدها سيدنا عمر فلم يغيِّر كذلك، ولما دخل سيدنا عثمان أسدل الثوب، فهذه حالة خاصَّة، وعللها رسولُ الله عليه الصلاة والسلام .

النبي عليه الصلاة والسلام، يقول في وصف هؤلاء الصحابة الكرام:

" أرحم أمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر، وأشدُّها حياءً عثمان".

(ورد في الأثر)

يقولون: إنّ العلماء مثل الفواكه، فهذه زائدة الحلاوة، وهذه قليلة الحموضة، وهذه فيها طعم معيَّن، فكذلك أصحاب النبي كالفواكه، كل واحدٌ منهم له طبع، وله نموذج، وله أسلوب في التعامل مع الآخرين.

لم يتخل عثمان عن إيمانه على الرغم من مكانته في قومه :

تطالعنا مسألة مهمة جداً، وهي أن هؤلاء السابقين لا يستوون أبداً مع اللاحقين، فالإسلام عندما يقوى وينتشر، ويصبح في الدرجة العليا قوياً عظيماً، والناس يرمقونه بأبصارهم فهذه حالة، وحينما يكون الإسلام ضعيفاً يحتاج إلى من يدعمه، وإلى من يحمل معه هذه حالة ثانية ، والشيء الثابت أن السابقين ليسوا كالمتأخرين، ليسوا سواء، قال تعالى:

(لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة الحديد الآية : 10)

فإذا كان الإنسان قدم سبقٍ في الإيمان، فهؤلاء الأوائل الذين انضموا في وقت مبكّر، لهم فضلٌ كبير، فسيدنا عثمان من السابقين، والسابق له فضلُه الكبير، سيدنا عثمان له مكانة اجتماعية كبيرة جداً في قومه، بدليل أن النبي عليه الصلاة والسلام عندما نشبَ سوءُ تفاهم بينه وبين قريش أرسل أحبَّهم إلى قريش، وهو سيدنا عثمان، وهو يتمتع بحكمة ومكانة اجتماعية وبعلوِّ قدر .

لذلك إذا كان الإنسان من عامة الناس ضُيِّق عليه، وعذِّب فهذا حال، وإذا كان الإنسان من علية القوم ضغط عليه، وخدشت كرامته فالأمر مختلف، فهذا له أجر أكبر، لأنه شيء لا يُحتمل، فسيدنا عثمان يروى أن الحكم بن أبي العاص أوثقه بالحبال وبالسلاسل، وصرخ في وجهه : أترغب عن ملة آبائك إلى دينٍ محدث، والله لا أحل وثاقك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين، فيجيب عثمان بن عفان الذي عرف طريق الله عزَّ وجل بكلامٍ ثابت الجنان: والله لا أدع دين الله أبداً، ولا أُفارقه، ويوالي الحكمُ تعذيبَ عثمان وهو عمّه، ويوالي عثمان إصراره على دين الله .

لا بد للمؤمن من محنة قبل المنحة :

فالإنسان إنْ آمن بالله عزَّ وجل فلا بد أنْ يُمتحن، وليس مِن إنسان يؤمن بالله عزَّ وجل إلا وله معارضة، هناك من يسخر منه، هناك من يضغط عليه، أحياناً الأب كان ينوي تزويج ولدِه ، فلما تمسَّك بالدين ألغى تزويجه، كان ينوي أن يعطيه عطاءً، فلما أصرَّ على موقفه حرمه، هذا شيء ثابت، وعلى كل مؤمن أنْ يوطِّن نفسه أنه إذا عرف الله حقيقةً، واستقام على أمره فعلاً، فهناك مضايقات، وهناك امتحانات، وهناك ابتلاء، من أجل أن ترتفع الدرجات، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا)

(سورة البقرة الآية : 214)

النبي عليه الصلاة والسلام من شدة رحمته بأمته رأى أن أصحابه لا قِبل لهم بهذا التعذيب، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة، وكان هذا الصحابي الجليل عثمان بن عفان وزوجته بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام، التي زوَّجه إيَّاها بعد الإسلام، أوَّل من هاجر إلى الحبشة، لذلك وقف النبي عليه الصلاة والسلام يودِّعه هو وابنته، ويقول:

" إن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط " .

(أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن أنس بن مالك)

إليكم بعض أعمال هذا الصحابي الجليل :

1- شراء بئر رومة وجعلها وقفاً على المسلمين :

عندما هاجر النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة لم يستقرّ بها حتى فاجأته مشكلة المياه في المدينة، فالمياه كانت قليلة جداً، وكان بالمدينة عين تفيض بماءٍ عذبٍ طيِّب المذاق، تدعى بئر رومة، ويملكها رجل يهودي، يبيع ملء القربة بمدٍ من قمح أو شعير، فالماء ثمين جداً، وتمنّى النبي عليه الصلاة والسلام لو يجد بين أصحابه من يشتري البئر حتى يفيض ماؤها على المسلمين بغير ثمن، وسارع عثمان رضي الله عنه إلى تحقيق رغبة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فعرض على اليهودي صاحب البئر أن يبيعها له فأبى، فساومه عثمان على نصفها، واشترى النصف باثني عشر ألف درهم، وهو مبلغ ضخم، على أن تكون لليهودي يوماً ولعثمان يوماً، فكان المسلمون يستسقون في يوم عثمان ما يكفيهم يومين، وهكذا رأى اليهودي نفسه، وقد خسر زبائنه وسوقه التي كانت رائجة، عندئذٍ عاد يعرض على عثمان أن يشتري النصف الثاني، فاشتراه، وأصبحت بئر رومة كلُّها للمسلمين يشربون منها الماء العذب بقدر ما يحتاجون بلا ثمن، و هذا أول عمل قام به .

لذلك فموضوع السبيل، أي هذا الذي يوقف سبيلَ ماءٍ في مسجد، أو في بيتٍ، أو في طريقٍ هذا عمل طيِّب، أن تشرب كأس ماء صافيًا عذبًا بلا مقابل، هذه نعمة لا يعرفها إلا من سافر خارج هذه البلدة، ففي بعض البلاد، وحتى في أيام الحج، الماء الذي يستعمل في البيت لا يشرب إطلاقاً، فهو مجمَّع في حوض على مستوى أرض البناء، فإذا ألقيت على هذا الحوض نظرةً وجدت الأعشاب، وبعض الحشرات، وهذا الماء يضخ إلى الأعلى، ويسيل في الصنابير، ومن المستحيل أن تشربه، فلا بد أن تشتري هذه القوارير من أجل أن ترتوي، وكل قارورة ثمنها يبلغ ثلاثة ريالات، أي ما يساوي خمسين ليرة، بينما هنا في الشام والحمد لله نفتح حنفية الماء فينزل الماءُ من غير حساب، وبثمن زهيد جداً، فموضوع الماء العذب الزلال أمرٌ يهم الناسَ، فتوفير المياه للناس، وأن يشربوا ماءً طيباً عذباً فراتاً سائغاً فهذا شيء ثمين جداً، وهذا أول عمل قام به سيدنا عثمان، فاشترى هذه البئر، وجعلها للمسلمين، يشربون بغير حساب، معنى ذلك أنه دفع ثمنها البالغ أربعة وعشرين ألف دينار .

2- وسع المسجد النبوي :

لما كثر المسلمون الداخلون في دين الله بالمدينة صار المسجد يضيق بهم، فتمنّى النبي عليه الصلاة والسلام لو يجد من بين أصحابه من يشتري الرُقعة المجاورة كي تُضَمَّ إلى المسجد، أي كما يحدث في كل زمان، قام هذا الصحابي الجليل واشترى بيتًا إلى جوار المسجد، وضمَّه إلى المسجد، فتم توسيع المسجد، وبالمناسبة في الحياة أربعة أنواع من القوة: فالمال قوة، والعلم قوة، والقوة قوة، وأخيرًا قوة السلطان، أو أن القوى ثلاث: قوة العلم، وقوة المال، وقوة السلطان، وهذه القوى الثلاث يمكن أن توظَّف في سبيل الله، والدار الآخرة، فإذا ملَكَ الإنسان المال، والمال شقيق الروح، فينبغي أن تتيقَّنوا أن الذين يملكون المال يستطيعون أن يصلوا به إلى أعلى المراتب، وذوو العلم يستطيعون بعلمهم أن يصلوا إلى أعلى المراتب، والأقوياء إذا وضعوا قوَّتهم في خدمة الضعفاء وكانوا منصفين بقوَّتهم يصلون إلى أعلى المراتب .

3- وسع الحرم المكي :

حينما فتح الله مكة للنبي عليه الصلاة والسلام، وعاد إليها ظافراً كريماً، رأى أن يوسِّع البيت الحرام، فعرض على أصحاب بيتٍ ملاصقٍ للمسجد أن يتبرعوا لتوسعته، فاعتذروا بأنهم لا يملكون غيره، وليس لهم مالٌ يشترون به سواه، ومرة ثالثة كان عثمان الذي لم يَكَد يبلغ مسامِعَه النبأ حتى سارع إلى صاحب الدار الواسعة العريضة، واشتراها منه بعشرة آلاف دينار، فتمَّ توسيع الحرم النبوي، والحرم المكي كذلك، ووفَّر الماءَ بلا مقابل للمسلمين بالمدينة، وهذه كلها أعماله الطيبة .

فمرة دخلت إلى مسجد، فأيّ مسجد والحمد لله فيه دروس علم، وفيه خطب وفيه حلقات ذكر، فوجدت أنه لولا الذين بنوا هذا المسجد، وجعلوه مكاناً لطاعة الله، ومكاناً للعمل الصالح، لولا هؤلاء الذين جمعوا التبرعات، لولا هؤلاء لما اجتمعنا في هذا المكان، فالعمل الصالح يحتاج إلى ظرفٍ يحتويه، فإذا كانت الدعوة إلى الله عملاً عظيمًا، والصلوات والذكر والتدريس هي أعمالٌ عظيمة كذلك، فليس أقلَّ عظمة من هذا العمل إلا من أسس هذا البناء، وساهم فيه، فتوسعة المسجد شيء ثمين جداً .

4- جهز جيش العسرة :

وفي العام التاسع الهجري ولّى هِرقل الإمبراطور الروماني وجهه صوب الجزيرة العربية، متوجهاً برغبةٍ شريرة في العدوان عليها، والتهامها، وكان الدين الجديد برسوله العظيم، ورجاله الشجعان

البواسل قد ملؤوا حياته وحياة بيزنطة كلها قلقاً وخوفاً، أي أن المؤمنين أصبحوا مصدر قلق للرومان، فهذا الإمبراطور بعد أن انتصر على بلاد فارس قرر أن يسير إلى الجزيرة العربية، ليستولي عليها، فأمر قوَّاته بالاستعداد وانتظار أمره بالزحف، وترامت الأنباء إلى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، فنادى أصحابه للتهيّؤ للجهاد، وكان الصيف حاراً يصهر الجبال، وكانت البلاد تعاني من الجدب والعسر فيما تعاني، فإذا قاوم المسلمون بإيمانهم وطأة الحر القاتل، وخرجوا إلى الجهاد عبْرَ الصحراء الملتهبة، فمِن أين لهم العتاد والنفقات الباهظة التي يحتاجها القتال؟ .

فالقضية خطيــرة جداً، فرأى النبي عليه الصلاة والسلام أنّه لا بدَّ أن يذهب لملاقاتهم وإلا يستضعفونه، وهذه الغزوة التي كانت في أشهر الصيف، والوقت شديد الحرارة، والبلاد مجدبةٌ، فالسنة سنة محل، فلا مال لديهم ولا عتاد كافٍ بين أيديهم، فنظر النبي عليه الصلاة والسلام إلى الصفوف الطويلة العريضة من الذين تهيَّؤوا للقتال، وقال:

" من يجهِّز هؤلاء، ويغفر الله له ؟ " .

(ورد في الأثر)

فكل واحد منهم يحتاج إلى فرس ليركبه، وسيف، وعتاد، ومؤونة، هذا اسمه جيش العسرة، وما كاد عثمان يسمع نداء النبي صلَّى الله عليه وسلَّم حتى سارع إلى مغفرة الله ورضوانه، وهكذا وجدت العُسرة الضاغطة عثمانَها المعطاء، وقام رضي الله عنه بتجهيز الجيش كلّه، حتى لم يتركه بحاجةٍ إلى خطام بعيرٍ أو عِقال فرسٍ، يقول ابن شهاب الزهري: " قدَّم عثمان لجيش العسرة في غزوة تبوك تسعمئةٍ وأربعين بعيراً، وستين فرساً أتمَّ بها الألف "، وبالتعبير الحديث ألف مدرَّعة .

ويقول حذيفة: جاء عثمان إلى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم لتجهيز جيش العُسرة بعشرة آلاف دينار، صبَّها بين يدي النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، فجعل النبي صلَّى الله عليه وسلَّم يقلِّبها بيده ويقبلها، ويقول:

" غفر الله لك يا عثمان ما أسررت، وما أعلنت، وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة " .

(ورد في الأثر)

طبعاً موقعة تبوك لم يقع فيها قتال بين الطرفين، فهذا الإمبراطور جاءه ما يشغله عن مهاجمة الجزيرة، فصرف النظر عن الدخول إلى الجزيرة، وكفى الله المؤمنين القتال، ولكن هناك تعليق لطيف، فسيدنا عثمان، ومع أن الحرب لم تقع، والجيش لم يحارب، لم يسترد شيئاً مما أعطى، وهذا الذي أعطاه بقي للمسلمين، فالإنسان إذا أعطى أعطى، قال عليه الصلاة والسلام:

" فالعائد من هبته كالعائد في قيئه " .

(أخرجه النسائي وأبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص في سننهما)

شهادة التاريخ لعثمان يوم أنفق ثلث ماله لتجهيز جيش العسرة :

فالنبي عليه الصلاة والسلام قبَّل المال الذي جاء به عثمان، وقال:

" غفر اللهُ لك يا عثمان ما أسررت، وما أعلنت، وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة " .

(ورد في الأثر)

ويقول عبد الرحمن بن عوف: **" شهدت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقد جاءه عثمان بن عفّان لتجهيز جيش العسرة بسبعمئة أوقيةٍ من الذهب " .**

(أخرجه أبو يعلى والطبراني في المعجم الأوسط عن عبد الرحمن بن عوف)

وكان بعض كتَّاب السيرة، يقولون: " إنه كان يبدو وكأن عثمان بن عفان هو الممول الوحيد للأمة الجديدة والدين الجديد " .

فهناك شخص أعطاه الله طلاقة لسان، وهناك شخص ليست عنده هذه الطلاقة، ولكن عنده المال، أنت بالمال ترقى، وبالتعليم ترقى، وبنصرة الضعيف ترقى، يجب أن تتفوّق في شيء ، وأن تبذله في سبيل الله حتى ترقى، هذا هو الهدف، فالله عزَّ وجل، قال:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(سورة البقرة الآية : 3)

أمر عجيب ومدهش !

أيها الأخوة، لا أعجب إلا من غني يضنُّ بماله في سبيل الله! فهذا المال لمن تتركه؟ لأولاد طائشين ينفقونه على المعاصي والآثام، وعلى شرب الخمور، وارتياد الملاهي، ونوادي الليل، تعيش فقيراً لتموت غنياً، أين عقلك؟ فالغني عنده إمكانية ليسبق الناس كلُّهم بإنفاق ماله، وبإمكانه أن يمسح الدموع من آلاف العيون، وأن يدخل السرور لقلوب آلاف البيوت، وذات يومٍ دخلت بيتا، وكان الأخ صاحب البيت مصابًا بمرض عُضال، ويحتاج لإجراء عملية تكلّف ربع مليون ليرة، وهو موظَّف فقير، وقد دخل أولاده أمامي، وعليهم كآبةٌ واضحة تغشى وجوههم، وقد علم بحاله إنسان محسن، فاتصل بالطبيب الأول، وقال له: اتصل بفلان، وحَدِّدْ له موعداً لإجراء العملية، فقال لي: يا أستاذ، وأنا قاعد في البيت جاءني اتصال هاتفي، وعرَّفني صاحبُه باسمه، وأنه الدكتور فلان، فقال له: أنا مكلَّف بإجراء عملية لك مجاناً، فهناك جهة لم تعلن عن اسمها، قد تكفَّلت بإجراء العملية، والعملية باهظة، ومن فضل الله عزَّ وجل قام هذا الطبيب بإجراء هذه العملية بنجاحٍ باهر، وتماثل المريضُ للشفاء، ومن غرائب الصدف أنْ زرتُه في البيت بعد العملية ، رأيت الفرحة على وجوه أبنائه بعد تلك الكآبة الساحقة، كما وجدتُه في غاية الانتعاش والسرور

فهذا الذي يقيم عرسًا في فندق، ويدفع فيه ثلاثين أو عشرين مليوناً من الليرات، وأقل شيء خمسة ملايين، يمكنه بهذه الملايين الخمسة أن يمسح الدموع عن خمسين شخصًا، وأنا أعجب من غني معه المال الوفير! كيف لا يرقى به إلى أعلى عليين؟ والشيء الثابت:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

(سورة سبأ الآية : 39)

زبدة القول عن هذا الخليفة الراشد عثمان بن عفان :

هذه بعض أعماله رضي الله عنه، كان يتّسم بالحياء الشديد، وكان يتّسم بالسخاء الشديد، حياءٌ ما بعده حياء، وسخاءٌ ما بعده سخاء، ودعوةٌ من النبي ما دعاها لأحدٍ قبله ولا بعده:

" ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم "

وقد قال:

" غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة " .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا عثمان بن عفان - الدرس (2-3) : أوبته إلى الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-12-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

بين الحسن والأحسن :

أيها الأخوة الكرام، ومع الدرس الثاني من سيرة سيدنا عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، في الدرس الماضي بيَّنتُ لكم جانباً من فضائل هذا الصحابي الجليل، وهي فضائل سخائه وإنفاقه ، وذكَّرتكم كيف أن السخاء حسن، لكن في الأغنياء أحسن، وأن الصبر حسن، لكن في الفقراء أحسن، وأن التوبة حسنة، لكن في الشباب أحسن، وأن الورع حسن، لكن في العلماء أحسن، وأن العدل حسن، لكن في الأمراء أحسن، وأن الحياء حسن، لكن في النساء أحسن؟.

فهذا الصحابي الجليل كان من أغنياء الصحابة، ولا تنسوا أن الإنسان كما يمتحن بالفقر ، يمتحن بالغنى، قد ينجح الغني في غناه، وقد يرسب الفقير في فقره، والله سبحانه وتعالى، يقول :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

(سورة الملك الآية : 2)

ما المقصود من حديث النبي، لو أن لنا ثالثة لزوجناك إياها يا عثمان؟

في هذا الدرس ننتقل إلى جانبٍ آخر من جوانب هذا الصحابي الجليل، وهو جانب أوبته إلى الله، ورحمته بالخلق، وكما تعلمون فالنبي صلى الله عليه وسلَّم زوَّجه ابنته رُقية، ولما توفاها الله إليه زوجه ابنته الثانية أم كلثوم، ولما انتقلت هذه الزوجة الثانية إلى الرفيق الأعلى أسف النبي صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن له كريمةٌ أخرى يزوِّجها لهذا الصحابي الجليل، فقال عليه الصلاة والسلام قولته المأثورة:

" لو أن لنا ثالثةً لزوَّجناك إيَّاها يا عثمان " .

(ورد في الأثر)

أقف هنا قليلاً، الزوج المثالي إنسان عظيم، وإنسان يستحق من الله الإكرام، هذه المرأة الضعيفة التي جعلها الله تحت يدي الرجل، بإمكانه أن يقسو عليها، وبإمكانه أن يظلمها، وبإمكانه أن يستعلي عليها، وبإمكانه أن يفعل كل شيء، لكن الله سبحانه وتعالى له بالمرصاد، فلولا أن هذا الصحابي الجليل كان زوجاً من أكمل الأزواج، ومن أرحم الأزواج، ومن أفضل الأزواج، لما سارع النبي صلى الله عليه وسلم إلى تزويجه بالبنت الثانية، وقد روي هذا الحديث بصيغةٍ أخرى :

" لو أن لي أربعين بنتاً لزوجتهن عثمان واحدةً بعد واحدة " .

(ورد في الأثر)

ماذا يفهم من هذا النص أو من هذا القول الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلّم، يفهم أنه زوجٌ مثالي .

انظر إلى تعامل النبي مع أهل بيته :

أيها الأخوة، إن الأبوة المثالية، أعتقد أنها كافيه لإدخال صاحبها الجنة، وأن البنوَّة المثالية كافيةٌ لدخول الابن الجنة، ويضاف أن الزوج المثالي برحمته، وإكرامه، وحلمه، وحكمته، وحرصه على زوجته، وحرصه على دينها، وعلى استقامتها، وعلى إقبالها، وحرصه على راحتها ، فالزوج المثالي ربما كان هذا العمل كافياً له لدخول الجنة، فالنبي عليه الصلاة والسلام أشاد بهذا الصحابي الجليل .

أيها الأخوة، الرجل ليست بطولته أن يكون في البيت جباراً، ولا شرساً، ولا صيَّاحاً، ولا صخَّاباً، ولا مزمجراً، ولا مرعداً، النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

" خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي " .

(أخرجه ابن ماجة عن ابن عباس في سننه)

كان إذا دخل بيته بسَّاماً ضحاكاً، كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته لف ثوبه لئلا يوقظ أهله، هل تصدقون أن حفيف الثوب يوقظ امرأةً نائمة؟ إنما كان يلفُّ ثوبه لشدة لطفه، لشدة إحساسه، ولشدة رحمته، ولشدة رغبته أن يستميل قلب زوجته، ولشدة حرصه على أن تُصْغي إلى كلامه فيتراحمان .

أيها الأخوة، لا يقدر الأب ولا الزوج أن يقول لأولاده أو لأهله كلاماً ويُسْمَع إلا إذا كان محسناً، إلا إذا كان رحيماً، إلا إذا كان سخياً، إلا إذا كان إنساناً كاملاً .

متى يكون سلوك الإنسان أخلاقياً و متى يكون سلوكه مدنياً :

اسمعوا مني هذا الكلام، أكثر الناس بل معظم الناس يستطيعون أن يتصرفوا في علاقاتهم الخارجية تصرفاً مقبولاً سليماً ذكياً، لماذا؟ لأنهم حريصون على سمعتهم، وعلى مكانتهم وعلى صلاحهم في المجتمع .

لكن الإنسان عادةً إذا دخل بيته ليس هناك رقابة، ربما يصيح، ربما يزمجر، ربما يكسِّر ، ربما يضرب، ربما يرتدي ثياباً مبتذلة مثلاً، يقول لك: أنا قاعد في بيتي، وأنا غير مقيَّد، نعم في بيتك ليس عليك رقابة، ولا مَن يحاسبك، ولا من يسألك، لكن لو دخل عليك ضيف بادرتَه بالترحيب، اختلف الوضع، النغمة تحسَّنتْ، والكلام هادئٌ رتيبٌ، وارتديتَ ملابسَ لائقة من فورك ، فالإنسان في بيته لا رقابة عليه، فإذا كان في بيته كاملاً، منضبطاً، أديباً، إذا كان مع زوجته الضعيفة رحيماً، إذا كان معها منصفاً، فأنا ما قرأت في حياتي أجمل من تفسير، قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آَتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة النساء الآية : 19)

ما المعاشرة بالمعروف؟ هل تظن أنك أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها؟ لا، بل المعنى أن تحتمل الأذى منها، يقول عليه الصلاة والسلام

: خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي "

(أخرجه ابن ماجة عن ابن عباس في سننه)

يعني خيرية الإنسان لا تبدو إلا في بيته، أما خيريته خارج بيته فلعلها حِرصٌ على سمعته، ولعلها حرصٌ على مكانته، ولعلها سلوكٌ مدنيٌ ذكي، لكن الإنسان حينما يتحرر من القيود والمراقبة والنقد والمسؤولية، فهنا تظهر حقيقته .

مثلاً عندما تجد مدينة أوروبية منضبطة وفق القوانين، هل هذا مقياس؟ أقول لك: هذا ليس مقياساً، لذلك انقطعت الكهرباء في إحدى مدن أمريكا، ارتُكِبَتْ مائتا ألف سرقة في ليلةٍ واحدة ، معنى ذلك أنّ الرقابة صارمة، وكلُّ الصالات مراقَبَة بكاميرات، فالسلعة التي تشتريها إنْ لم تدفع ثمنها تُصدِرُ صوتاً عندما تخرج، لها صوت مزعج، أما إذا دفعت ثمنها، هناك جهازٌ يمحو أثر هذه المادة، فإنْ دَفَعَ الثمن هل نقول عنه: أنتَ طيب الأخلاق؟ لا، لا تفسر هذه أبداً بطيب الأخلاق، وإنما تفسَّر بالخوف من الفضيحة، وكذلك الإنسان، حينما يكون تحت المراقبة، أو يحرص على مكانته أو سمعته، فهو يسلك السلوك الصحيح، لكن متى يعدُّ السلوكُ في الإنسان كمالاً؟ حينما يكون كاملاً من دون رقابة .

ولقد ذكرت لكم في هذا المسجد بالذات حديثاً مطولاً عن الأمانة بتعريفها الدقيق، وأشرت إلى هذا الموضوع في جامع النابلسي بعد سنة تقريباً، وقبل يومين أو ثلاثة وأنا أستعرض الأوراق التي في حوزتي فإذا بورقة كتب عليها صاحبها جزاك الله عنا خيراً، لقد استمعت إلى درس الأمانة في جامع العثمان، ورددت مبلغ عشرين مليون ليرة لورثةٍ لا يعرفون أين هذا المبلغ ؟ وليس في حوزتهم أية وثيقة ضدي، رددته خوفاً من الله عزَّ وجل .

فالإنسان إذا استجاب إلى الرقابة فهذا سلوك مدني، أي هو اختار لنفسه الأحسن، أما حينما لا يكون سلوكه مدنياً، عندئذٍ يكون أميناً، وعندئذٍ يكون أخلاقياً، والذي أريد أن أقرره لكم هو أن الإنسان لا يعدُّ خَيِّراً إلا إذا كان في بيته محسناً .

العمل الصالح بابه غير مغلق أيها الإنسان :

الزوج أحياناً يكون في قلبه رحمة فيرى أن زوجتَه شريكة حياته، وأن هذه المرأة عاشت معه على السرَّاء والضراء، وأن هذه المرأة ضعيفة، وأن هذه المرأة بإمكانه أن يصل بها إلى الله عزَّ وجل، وبإمكانه أن يدلّها على الله بإحسانه، ما دام النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا دخل بيته لفَّ ثوبه، وهل يعقل أن يوقظ حفيفُ الثوب امرأةً نائمة؟ ومع ذلك حرصه على راحتها ، وحرصه على مودتها، وحرصه على أن يأخذ بيدها إلى الله، وحرصه على أن تكون شريكته في الجنة، يعمل هذا العمل، أنا أتعجب! وأمام كل واحد منا آلاف مؤلّفة من الأعمال الصالحة، مع زوجته هناك أعمال صالحة لا تنتهي، مع أولاده، مع والدته، مع والده، مع جيرانه، مع أقربائه، مع أخواته البنات، مع بنات أخواته البنات، مع من يتعامل معهم، أنت متاح لك آلاف الأعمال الصالحة، وما عليك إلا أن تتحرك، ولن تتألق إلا بالعمل الصالح .

نداء إيماني لمعشر الأزواج :

فأنا أرجو الله سبحانه وتعالى تطبيقاً لهذا النص، وتطبيقاً لهذه السيرة العطرة لهذا الصحابي الجليل، أن تعاملوا زوجاتكم بالمودة، وبالمحبة، وبالصبر عليهن، أحياناً النبي عليه الصلاة والسلام يكون في مهنة أهله، والمهنة كما تعلمون ليست الحرفة، ولكنها خدمة الزوجة، فلما يساهم الزوج بشكل، أو بآخر مع زوجته في بعض أعمال المنزل تطييباً لخاطرها، فليس الموضوع أن تقوم بإنجاز العمل، بل الموضوع أن تطيِّب خاطرها .

قد يكون الإنسان رب عمل، تاجرًا كبيرًا، عنده محل، وعنده صانع صغير، المحل يحتاج إلى تنظيف، فإذا أمسك صاحب المحل أداةً لينظّف، فهذا الصانع الصغير يخرج من جلده، رغبةً في أن يأخذ عن سيده العمل، لكن هذا عمل ولو كان دقيقة واحدة، فيه تطييب قلب، فإذا أعان الزوجُ من حين للآخر زوجتَه فهذا من السُّنة .

فهناك أشخاص يفرِّغون العمل الصالح، يفرغونه من مضمونه، ويجعلونه خنوعًا، يجعلونه ضعفًا في الزوج، لا، فالنبي عليه الصلاة والسلام مأثورٌ عنه أنه كان في مهنة أهله، كان يكنس داره، ويحلب شاته، ويخصف نعله، ويعجن عجينه، قضية مشاركة، قضية تودد، قضية أن تكون زوجاً مثالياً .

" مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَإِذَا شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لِيَسْكُتْ وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ إِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا "

(أخرجه مسلم عن أبي هريرة في الصحيح)

لم تغر الدنيا عثمان :

كان عثمان يصوم أكثر أيامه ويقوم الليل إلا هجعة من أوَّله، هذا الصحابي الجليل من الصحابة الأغنياء جداً، الغني جداً كل ربع ساعة يُؤتى له بكأس من العصير، وفنجان قهوة، وشاي من الدرجة الأولى، فهذا الصحابي الجليل على علو قدره، وعلى كثرة ماله، كان في أكثر أيامه صائمًا، والغني إذا أراد أن ينام فله فراش وثير، ففي بعض الفنادق سرير يجري للنائم عليه آلياً تدليك، أجهزة معقدة جداً، وأزرار وشاشات، طبعاً إذا كانت حالته ميسورة يمكن أنْ ينام على أفخم فراش، بأجمل غرفة نوم، أما سيدنا عثمان أكثر ليله قائم، وأكثر أيامه صائم، هذا مما يضاعف له الأجر .

أعرف رجلاً آتاه الله عزَّ وجل من المال ما لا يُعدُّ ولا يحصى، إذا سافر إلى بلد بحكم عمله، يتنقل من الفندق إلى المكتب إلى بلده، بإمكانه أنْ يسهر في أفخر مطعم، ويذهب إلى أجمل مكان، لكن كلها أماكن مزدحمة بالمعاصي، لذلك رغم غناه الكثير فهو منضبط، والقوي الغني يحتاج إلى الصبر أكثر من الفقير الضعيف، لأنّ هذا الغني أمامه خيارات كثيرة بسبب وفرةِ المال

كان عثمان إذا قام الليل وقرأ هذه الآية تهُزُّه إلى أعماقه، وهي:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً)

(سورة الكهف الآية : 45)

ومنذ عدة أيام حضرت تعزية، البيت الذي عزَّيت فيه لا يوصف بأناقته، وعلو فرشه، وزينته قدرت بخمسين مليون، أين صاحبه؟ تحت أطباق الثرى، فهذه الدنيا عطاء ثم سلب، قال تعالى:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً)

(سورة الكهف الآية : 45)

عثمان ينفق من ماله للصدقة :

هذا الصحابي الجليل نراه يُمضي مع نفسه ميثاقاً لا يخلفه طوال حياته، هو أنه يُعتق كل جمعة عبداً ويحرر رقبةً، يشتري العبد من سيده بأي ثمن، ثم يهبه حريَّته مبتغياً وجه ربه الأعلى

لنا أخ من أخواننا، ماذا يعمل؟ يذهب إلى سوق العصافير يشتري عددًا كبيرًا من الطيور، ويطلقها في سبيل الله، العصفور الذي ألف حريته، ثم وضع في قفص، هذا العصفور يتألَّم، فكان يشتري بعضها،

ويعتقه لوجه الله، فهذا العمل بشكل مصغَّر، أتمنى أن يكون للإنسان عمل يومي، وإذا لم يكن يوميًا فليكنْ أسبوعيًا، الآن هناك حيوانات ليس لها من يطعمها، فبعض الأشخاص يشترون حبوباً، ويضعونها على أسطح منازلهم من أجل الطيور، فهناك أعمال صالحة تصل إلى الحيوان، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام حينما وصف رجلاً كان قد أصابه عطشٌ شديد، فنزل بئراً، وشرب ماءً، ثم خرج فرأى كلباً كاد يأكل الثرى من العطش، فقال في نفسه: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي، ثم نزل البئر، وملأ خفَّه ماءً، وأمسكه بفيه، ونزل البئر فسقي الكلب، فشكر الله له، فغُفر له، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً؟ قال:

" فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ " .

(أخرجه البخاري في الصحيح)

لا تستغربوا، فقد ينجِّيك الله مِن حادث أليم نظير أنَّك نجَّيت حيواناً ضعيفاً من حادث أليم ، وقد يدفع الإنسان ثمناً باهظاً لو أنه أساء لحيوان، فالمؤمن معطاء، لا يؤذي نباتاً ولا حيواناً ولا مخلوقاً، ألم تسمعوا قول النبي عليه الصلاة والسلام:

" عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ فَقَالَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِهَا وَلا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ " .

(أخرجه البخاري في الصحيح)

أنت لو سقيت النبات فهذا عمل صالح، لو أطعمتَ الطير فهذا عمل صالح .

إليكم العبرة من هذه القصة :

أيها الأخوة، أكثر شيء يؤلمني في أثناء السفر، أحياناً يتحاشى السائقُ الغنمة أن يدهسها، وكذلك الدجاجة، لأن لها أصحابًا ، أما بعض الكلاب فلا مبالاة قد يدوسها السائقُ، وقد سمعت قصة، وذكرتها لكم من قبل، وهي مؤثرةً جداً، سمعتُها من رجل شاهد عيان، قال لي: واللهِ كنت أركب سيارةً مع إنسانٍ غير ملتزم دينًا، وفي طريقه إلى المطار، وفي أيام الشتاء، وعلى طرف الطريق كان جرو صغير قابعاً على جانب الطريق الأيمن، لم أكن منتبها، فوجدته قد انحرف فجأةً بالسيارة انحرافاً شديداً، ومرَّ فوق يدي هذا الجرو الصغير فقطعهما، وأطلق ضحكةً، وأنا اضطربت اضطراباً شديداً، والسائقُ أقوى منه، ولا يستطيع محاسبته، ثم قال لي: وفي الأسبوع الثاني أقسم لي أن الحادث كان يوم السبت ظهراً، ففي الأسبوع الثاني، وفي يوم السبت ظهراً، هذا الإنسان نفسه وفي المكان نفسه تعطَّلت عجلة من عجلات سيارته، فرغ هواؤها، فنزل من سيارته، ورفع السيارة بهذا الجهاز (الكريكو)، وفك هذه العجلة، وهو

يفكها تعطل جهاز رفع السيارة، فوقعت العجلة على يديه والسيارة فوق العجلة على رسغيه، وأخذ بحالة إسعاف إلى المستشفى، فإلى أن وصل إلى المستشفى اسودت يداه ، فكان لا بدَّ من قطعهما .
فالظلْمُ والطغيان عاقبتهما مخيفة، أحد الأشخاص غضب من هرَّة فألقاها من الطابق السابع، وأغلب الظن أنها نزلت ميّتة، بعد أيام فقد بصره .

عثمان يحاسب محتكري الأرزاق :

كان سيدنا عثمان إذا رأى بعض التجَّار يحتكرون الأرزاق، فماذا يفعل؟ يرسل قوافله لتعود محمَّلة بما يفسد عليهم احتكارهم، جاءت مرةً رواحله من اليمن أو من الشام محمّلة بالخيرات، وتَواكَبَ حوله تجَّارُ المدينة، ودخل معهم في مساوماتٍ شيِّقة، وما أجمل أن نطالع الآن إحداها، يرويها لنا ابن عباس رضي الله عنه، قال: " قَحِط الناس في زمن أبي بكر، فقال الخليفة لهم: إن شاء الله لا تمسون غداً حتى يأتيكم فرج الله، فلما كان صباح الغد قدمت قافلة عثمان، فغدا عليه التجَّار، فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه، وسألوه أن يبيعهم قافلته، فسألهم: كم تربحونني؟ قالوا: العشرة اثني عشر، قال: قد زادني، قالوا: العشرة خمسة عشر، قال : قد زادني، قالوا: من الذي زادك ونحن تجَّار المدينة؟ قال: إنه الله، زادني بكل درهمٍ عشراً، فهل لديكم أنتم مزيد؟ فانصرف التجَّار عنه وهو ينادي: اللهم إني وهبتها فقراء المدينة بلا ثمن وبلا حِساب .

انظر إلى تواضع الخليفة الراشد عثمان بن عفان :

أيها الأخوة، لا تظنوا أنّ أحدًا يكون قريبًا من الله إلا وله عمل طيب، أو عمل صالح، فالله لا يقرِّب عبدًا إلا بعمل كبير، ومع العمل إخلاص، ومع الإخلاص استقامة، فلا أحدَ يصل إلى أشياء عظيمة عند الله بالكلام، وبلا انضباط، وبلا مؤاثرة، وبلا تضحية، هذا شيء مستحيل .
يقول شرحبيل بن مسلم: " كان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة، ويأكل هو الخل والزيت "، وقال عبد الله بن شدَّاد: " رأيت عثمان يخطب يوم الجمعة، وعليه ثوبٌ قيمته أربعة دراهم أو خمسة دراهم، وإنه يومئذ لأمير المؤمنين " .
أحد أخواننا الدعاة إلى الله سافر إلى بلد إسلامي، قال: دعاهم رجلٌ على طعامٍ متواضع جداً وعلى الأرض، ومظهره متواضع، بعد أن تناول الطعام ذكروا له أن هذا الرجل أنشأ مجمّعاً إسلامياً بما يزيد عن أربعين مليون ليرة، مجمع إسلامي ما بين مسجد ومعهد تحفيظ قرآن ومكتبة ومشغل لطلاَّب العلم ومستوصف ومدرسة، والله هذا شيء جميل، فليس يوجد عنده بذخ، أطعمهم وأكرمهم، لكن كل شيء

باعتدال، إلا أن إنفاقه في سبيل الله من دون اعتدال، لا إسراف في الخير ، بالعمل الصالح لا يوجد تقنين ولا اعتدال وليس هناك موقف وسط .

عثمان قدوته الرسول عليه الصلاة والسلام :

مرة هذا الصحابي الجليل غضب على خادمٍ له، فعرك أذنه حتى أوجعه، ثم سرعان ما يقُضُّ ضمير العابد مضجعه فيدعو خادمه ويأمره أن يقتصَّ منه، فيأبى الخادم ويولّي مدبراً، لكنّ عثمان يأمره في حزمٍ فيطيع، وقال: اشْدُدْ يا غلام، فإن قصاص الدنيا أرحم من قصاص الآخرة .
فهل تجد أحدًا في منصب رفيع؟ ويخطئ مع خادم أو حاجب، أو مع إنسان بسيط جداً، ويخاف الله عزَّ وجل، ويقول له: اقتصَّ مني في الدنيا، فإن قصاص الدنيا أرحمُ من قصاص الآخرة، إلا أنْ يكون ممّن يخاف الله خوفاً شديداً، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام حينما غضب من غلامٍ له:

" يا غلام لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك " .

(ورد في الأثر)

سيدنا عبد الله بن عمر كان إذا قرأ الآية الكريمة:

(أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)

(سورة الزمر الآية: 9)

يقول: هو عثمان بن عفان .

أوصلنا للرحم عثمان :

يقول بعض أصحابه عنه وهو الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه: أوصلَنَا للرحم عثمان، أنا من أعماقي ممتن لأخواننا الكِرام، من أسبوعين ألقيت درسًا متعلّقًا بصلة الرحم، وسمعت واللهِ أكثر مِن أخٍ في الليلة نفسها بدأ يزور أقاربه، في الليلة نفسها، أنا واللهِ طبَّقت هذا الكلام، وزرت كلّ أقربائي في هذا الأسبوع، زيارة، وصِلة، ومساعدة، ودعوة إلى الله، هذه الدروس لا قيمة لها إنْ لم يكن بعدها تطبيق عملي .
سمعت ذات مرة كلمة من أحد العلماء تأثّرت بها، قال: أيها الأخوة سماعكم لا قيمة له ما لم تطبِّقوا، وكلامي لا قيمة له إطلاقاً ما لم أطبِّقه، فلا كلامي له عند الله وزن، ولا سماعكم له عند الله وزن، أما إذا قلت شيئاً وطبَّقته أرقى عند الله، وإذا استمعتم إلى شيءٍ وطبقتموه ترقون عند الله، فمقياس الرقي والنجاح والفلاح هو الاستجابة لأمر الله عزَّ وجل .

مواعظ الخليفة الراشد عثمان بن عفان في خطب الجمعة :

يقول هذا الصحابي الجليل: أيها الناس، اتقوا الله فإن تقوى الله غنيمة، وإن أكيس الناس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، واكتسب من نور الله نوراً لقبره، وليخشَ عبدٌ أن يحشره الله أعمى وقد كان بصيرا .

وفي خطبة أخرى، يقول هذا الصحابي الجليل: إن الله أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطكم الدنيا لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى وإن الآخرة تبقى، فآثروا ما يبقى على ما يفنَى .

ويقول هذا الصحابي الجليل: إن الدنيا منقطعة، والمصير إلى الله وحده .

هنيئاً لك أبا عمرو بيعة الرضوان :

هذا الصحابي الجليل حينما أعاده النبي عليه الصلاة والسلام إلى بيته بدلَ أن يغزو في معركة بدرٍ، فأمره النبيُّ عليه الصلاة والسلام أن يبقى إلى جانب زوجته، وكانت في مرضٍ شديد، وهي ابنة النبي عليه الصلاة والسلام، ماذا يستنبط من هذا الكلام؟ هل هي قضية شخصية أم قضية حكم شرعي؟ هي حكم شرعي، أي كأن الذي يرعى زوجته المريضة في مرتبة المجاهد في سبيل الله، فلما انقضت موقعة بدر ووزَّع النبي الغنائم، عدَّ عثمان كأنه مع المقاتلين وأعطاه نصيبه من الغنائم، هذا لتعلموا مدى ثواب رعاية الزوجة عند الله .

وحينما أوفد النبي عثمان إلى قريش في صلح الحديبية، وشاع الخبر أنهم قد قتلوه، وهبَّ الصحابة الكرام ليعاهدوا النبي صلَّى الله عليه وسلَّم على أن يقاتلوا قريشاً، وأخذوا العهد واحداً واحداً، فالنبي أمسك بيده اليسرى ثم جاء باليمنى، وقال:

" وهذه عن عثمان، وهذه بيعة عثمان "

(ورد في الأثر)

لأنه كان غائباً، فلما عاد عثمان سليماً معافى، أرسلت قريش سفيراً جديداً، هو سهيل بن عمرو الذي أبرم مع النبي صلى الله عليه وسلَّم معاهدةً عُرفت بصلح الحديبية .

سؤال غريب :

هنا سؤال غريب: لماذا أبى سيدنا عثمان حينما انقض عليه هؤلاء المجرمون أنْ يدافع عنه أصحابُ النبي عليه الصلاة والسلام؟ قال: لأنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلَّم مرّةً ، وقد كان واقفاً على جبل أُحد، فقال:

" أثبت أحد فإنما عليك نبيٌ وصديقٌ وشهيدان " .

(ورد في الأثر)

نبي هو رسول الله عليه الصلاة والسلام، وصديقٌ هو أبو بكر، وشهيدان هما سيدنا عمر وسيدنا عثمان، وقد تروي بعض الأخبار أنه قد رأى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم قُبيل مقتله، قال:

" يا عثمان أما آن أن تأتي إلينا " .

(ورد في الأثر)

فقد كان من شدة الوجد والحب والشوق إلى الله ورسوله حيث تخلَّى عن حقه في نصرة أَحَدٍ له، وهذا موضوع قد نعالجه في درسٍ قادم إن شاء الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا عثمان بن عفان - الدرس (3-3) : خلافته وفتوحاته العظيمة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-01-03

بسم الله الرحمن الرحيم

لمن أقر عمر بالخلافة من بعده ؟

أيها الأخوة، مع الدرس الثالث من سيرة سيدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وقد تحدثنا في درسين سابقين عن شمائل هذا الخليفة العظيم، وعن عبادته وحبه لله عزّ وجل، واليوم ننتقل إلى خلافته، وإليكم هذه القصة الرائعة حول الطريقة التي تسلّم فيها هذا الخليفة العظيم خلافة المسلمين .

سيدنا عمر رضي الله عنه، وهو يجود بأنفاسه الأخيرة أبى أن يستخلف أحداً، وحينما ألحَّ عليه بعض أصحابه أن يستخلف خليفةً للمسلمين قال لهم: " أأحمل أمركم حياً وميّتاً؟ "، ألا يكفيني أنني حملت أمركم حياً، وتريدون أن أحمل أمركم ميتاً، يعني أن أحمل هذه المسؤولية بعد موتي فهذا أمرٌ خطير، فهذا الخليفة الراشد عملاق الإسلام كان أشدَّ الناس خوفاً من الوقوف بين يدي الله عزّ وجل، وقد ذكّرتكم من قبل أنه من معاني قوله تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

(سورة النازعات الآية : 40)

أن مقام الله عزّ وجل هو وقوف العبد بين يدي الله عزّ وجل للسؤال، فهذا موقفٌ عصيب، الإنسان في الدنيا بإمكانه أن يغيِّر، وأن يبدل، وأن يأتي بالشهود، وأن يلتمس، وأن يسكت، وأن يكتم، وأن يحتال، وأن يدلّس، وأن يغيِّر، وأن يكذب، ولـه أهل، وله أعوان، وله أنصار، وله وسائط، لكن الإنسان يوم القيامة إذا وقف بين يدي الواحد الديان لا يستطيع أن يكذب :

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة يس الآية : 65)

فهذا الخليفة العظيم سيدنا عمر رضي الله عنه كان يقول: " ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيما "، كلما ازددت معرفةً بالله، وبعدالته، وبكماله، وبعِظَم المسؤولية التي تحملها، وبشدة الموقف يوم القيامة، كلما ازددت إيماناً بهذه الحقائق ازددت خوفاً ووجلاً ووقوفاً عند كتاب الله، ثم قال هذا الخليفة الراشد: " ألا إني إن أستخلف فقد استخلف من هو خيرٌ مني (يعني أبا بكر)، وإن أترك (أي لم أستخلف) فقد ترك من هو خيرٌ مني (يعني رسول الله عليه الصلاة والسلام، فالنبي ما استخلف، وسيدنا أبو بكر استخلف، واللهُ حافظٌ دينَه ".

هذا دين الله، لو قصَّر المسلمون فالله سبحانه وتعالى يحفظ دينه، ولو تكالب عليه المتآمرون، ولو اشتد بأس أعداء الدين، ولو قامت حرب عالمية ضد الإسلام في شتى بقاع الأرض، فالله حافظ دينه، هذا دين الله، فإن كان لنا شرف النصر ارتقينا عند الله، وإن تخلينا عن نصرة هذا الدين نصره الله مباشرةً .

لكن سرعان ما برقت بارقة في رأس هذا الخليفة وهو على فِراش الموت، تذكَّر أن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم يومًا قال:

" أيها الناس إن أبا بكرٍ لم يسؤني قط، فاعرفوا له ذلك، أيها الناس إني راضٍ عن عمر، وعن علي، وعن عثمان، وعن طلحة بن عبيد الله، وعن الزبير بن العوَّام، وعن سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والمهاجرين الأولين، فاعرفوا لهم ذلك " .

(ورد في الأثر)

هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم، فقال سيدنا عمر: " عليٌ وعثمان وطلحة والزُبير وسعد وعبد الرحمن "، هؤلاء جميعاً أحياء، والنبي عليه الصلاة والسلام كان راضياً عنهم، وكلام النبي حقٌ من الله تعالى، لا ينطق عن الهوى، فقال عمر: ليكن لهؤلاء الستة الذين منحهم النبي عليه الصلاة والسلام هذا التكريم عاقبة الأمر الذي يشغل الأمير المحتضر، وليضع هذا الأمير (سيدنا عمر) في أعناقهم مجتمعين الأمانة التي حملها طوال خلافته، وهكذا جمع الستة، وقال لهم : " إني نظرت فوجدتكم القادة، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وهو عنكم راضٍ، فإذا أنا متُّ فتشاوروا ثلاثة أيامٍ، ولا يأت اليوم الرابع إلا وعليكم أميرٌ منكم " .

انظر إلى مجلس الشورى في اختيار الخليفة :

شكَّل مجلسًا من ستة أصحاب، توفي النبي عليه الصلاة والسلام، وهو عنهم راضٍ، ووضع أمانة المسؤولية في أعناق هؤلاء الستة، " وليحضر معكم عبد الله بن عمر، ليكن معكم مشيراً، ولا يكون له من الأمر شيء "، أول إنسان استبعده من الخلافة ابنه، أي كفى آل الخطاب ، كفاهم عمر ليحاسَب عنهم .

سيدنا طلحة كان غائباً عن المدينة، فاجتمع بقية الأصحاب الذين وضع فيهم عمر هذه المسؤولية، واقترح عليهم عبد الرحمن بن عوف أن يخلع أحدهم نفسه، ويتنازل عن حقِّه في الترشيح، ليكون صوته مرجِّحاً إذا قام خلاف، هم ستة فإذا عزل أحدهم نفسه، أي خلع نفسه بقي منهم خمسة، هذا أول اقتراح، وبادر فخلع نفسه، ثم تنازل الزبير عن حقّه لعلي، وتنازل سعد بن أبي وقَّاص عن الترشيح، وهكذا انحصر الاختيار بين عثمان وعلي فقط، وفُوِّض عبد الرحمن بن عوف في اختيار أحدهم، وكان على ابن عوف أن ينجز هذه المهمة في الأيام الثلاثة التي أوصاهم الخليفة الراحل ألا يجاوزوها، وكان

عليه خلال هذه المهلة القصيرة أن يجري شورى واسعة واستفتاءً عميماً بين أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام جميعاً، وهكذا راح يذرع المدينة ويقرع أبواب دورها، يقول ابن كثير: نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير الناس ويجمع رأي المسلمين عامَّتهم وقادتهم، جميعاً وأشتاتاً، مثنى وفرادى، سرَّاً وجهراً حتى خَلَصَ إلى النساء المحجَّبات في بيوتهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل الركبان الوافدين على المدينة، أيْ قام باستشارة واسعة جداً، تنفيذاً لقول الله عزَّ وجل:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

(سورة الشورى الآية: 38)

ثم أرسل ابنُ عوف في طلب عثمان وعلي، فقدما عليه، فأقبل عليهما، وقال لهما: إني سألت الناس عنكما فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً "، يعني أنتما في قمة السمعة الطيِّبة، أنتما في قمة الأهلية، ثم أخذ العهد على كلٍ منهما لئن ولاَّه ليعْدلن، ولئن وُلِّي عليه ليسمعنَّ وليطيعن، إن تولَّيت فاعدل، وإن ولي غيرك فأطعْ واستمع، فهُم حقًّا رجال، حينما نظر إليهم النبي عليه الصلاة والسلام في ساعاته الأخيرة، نظر إلى أصحابه، وهم يصلُّون في المسجد، فقال هذه المقولة الشهيرة:

" علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ".

(ورد في الأثر)

ثم خرج بهما إلى المسجد، وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عممه بها النبي صلّى الله عليه وسلّم، وتقلّد سيفاً، وبعث إلى وجوه المهاجرين والأنصار، ونودي في الناس كافةً الصلاة جامعة، وتراصَّ الناس حتى غصَّ بهم المسجد، وحتى لم يبق لعثمان موضعٌ يجلس فيه إلا في أُخريات الناس، وكان رجلاً حيياً، ثم صعد عبد الرحمن بن عوف مِنبر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فدعا دعاءً طويلاً، ثم تكلَّم فقال: أيها الناس إني قد سألتكم سراً وجهراً فلم أجدكم تعدلون بعلي وعثمان أحداً، فقم إليَّ يا علي، وأخذ عبد الرحمن بيده، وسأله: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكرٍ وعمر؟ قال علي: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، ثم قال: قم إلي يا عثمان، فأخذ بيده، وقال له: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكرٍ وعمر؟ فقال عثمان: اللهم نعم، فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان وقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان، وازدحم الناس على عثمان يبايعونه، وكان أول يمين شدَّت بالبيعة على يمينه، أول يمين بايعت عثمان سيدنا علي، وتتابع المسلمون جميعاً يبايعون .

عثمان بن عفان هو الخليفة بعد عمر :

هكذا حمل عثمان أثقال الخلافة، حملها وهو على وشك أن يستقبل السبعين من عمره، والأمر في زماننا هذا يتقاعد في سن الستين، ويقال عنه: خرف، وأساس التقاعد أن الإنسان تتجمد ملكاته، ويتكلّس عقله، ولم تعُد عنده إمكانية أن يفكّر، أو يجدد، أو يطوِّر، لذلك في معظم بلاد العالم الإنسان إذا بلغ الستين يحال إلى التقاعد، إلا في بعض البلدان، وفي الجامعة فقط، لأن الإنسان إذا عمل بعقله لم يضمر عقلُه، سيدنا عثمان تسلّم هذا المنصب، وهو في السبعين، اسمعوا إلى هذا الكلام: المؤمن لا يشيخ أبداً، المؤمن شاب دائماً، يضعف بصره، ويشيب شعره، وينحنى ظهره، وتضعف قوته، وتظهر عليه أعراض الشيخوخة، لكنه لا يشيخ، وتبقى نفسه شابة، لأن هدفه كبير .

وسوف تسمعون فيما نستقبل من الحديث ما لا يصدَّق، إنسان في السبعين له عزم الشباب، وهمة الشباب، وتألُّق الشباب، وتوقُّد عزيمة الشباب .

حال الخليفة الراشد عثمان بن عفان عند استلام منصب الخلافة :

سيدنا عثمان تلقَّى البيعة وهو يرتجف، هذا الوجل وهذا التهيُّب فيما يظنُّ كتَّاب السيرة أن سببه الهيبة الشديدة من هذه المسؤولية التي أُنيطت به، يقول لك: مسؤول، والناس في زماننا لا يفقهون حقيقة كلمة مسؤول، ولا المهمة التي على عاتقه، يقول لك: مسؤول كبير، فيظن أنه لفظ فيه مديح، لو وقف عند معناها لا رتعدت فرائصه، ما معنى مسؤول كبير؟ أي عليه مسؤولية شديدة، أي سوف يُسأل عن كل صغيرة وكبيرة .

مرةً دخلت امرأةٌ على سيدنا عمر بن عبد العزيز، فرأته يبكي، قالت له: ما لك تبكي؟ قال: دعيني وشأني، فلما ألحَّت عليه، قال: إني قد ولّيت أمر المسلمين، فرأيت أن الجائع والمريض والعارف والمقطوع وابن السبيل، وعدد أصناف الأشخاص الذي يعانون من بعض المشكلات، قال: علمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً، وأن خصمي دونهم هو رسول الله عليه الصلاة والسلام يوم القيامة، فلهذا أبكي .

يروي بعض الصحابة عن أبيه، قوله: ما رأيت أحداً كان إذا حدَّث حديثاً أتمَّ حديثاً، ولا أحسن من عثمان، إلا أنه كان رجلاً يهاب الحديث، كان إنسان متألّق جداً، حديثه جميل، ولكنه كان يهاب الحديث.

إليكم هذه القصة تبين لم كان عثمان هياباً مع استنباط العبر منها ؟

هناك قصة سأرويها لكم تبيِّن لِمَ كان هيَّاباً؟ قالوا مرةً: أطلَّ هذا الخليفة، قبل أن يكون خليفة، وفي عهد عمر، أطلَّ من نافذة داره، فأبصر على البُعدِ رجلاً يجري في قيظ النهار، وهجير الصحراء، فظنَّه غريباً نزل به كربٌ عظيم، ولبث مطلاً من نافذته حتى يصل ذلك الرجل الملهوف، فيدعوه إلى ظلِّ داره، ويغيثه من لهفته، وكم كانت دهشته وعجبه حينما اقترب الرجل، مَن هو؟ إنه سيدنا عمر، فإذا هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ممسكاً بخطام بعيرٍ يتهادى وراءه .

هذا كلام لا تعرفون وطأته إلا إذا ذهبتم إلى بلاد الحجاز للحج أو العمرة، ماذا يعني السير في الطريق ظهرًا في أيام الصيف؟ وسأله عثمان: من أين يا أمير المؤمنين؟ وأجابه عمر: من حيث ترى، بعيرٌ من إبل الصدقة ندَّ هارباً، فأسرعت وراءه ورجعت به، وعاد عثمان يسأل: يا أمير المؤمنين ألم يكن هناك من يقوم بهذا العمل سواك؟، وأجابه عمر: ومن يقوم مقامي في الحساب يوم القيامة؟ ودعاه عثمان إلى الراحة حتى تنكسر حدة الهجير، فما زاد عمر على أن قال ودموعه الورعة تسيل من مآقيه (هكذا قيل) قال له: عُد إلى ظلِّك يا عثمان، ومضى لسبيله وعينا عثمان متعلقتان به حتى غاب عنهما، وراح عثمان يتمتم قائلاً: لقد أتعبت الذين سيجيئون بعدك، أعان الله مَن يأتي بعدك .

أحيانًا في مجال التعليم يكون هناك مدرسٌ متفوقٌ جداً، يأتي بعده مدرس جيد، ولكنه ليس في مستوى الأول، يتعب كثيراً مع الطلاب، وكذلك مؤسسة يديرها مديرٌ ممتازٌ، يأتي بعده مدير يتعب كثيراً، لذلك إذا أردت أن تصف إنساناً فذاً عظيماً، تقول: أتعب من جاء بعده، وأخمل من جاء قبله، الذي قبله ما عاد يذكرهم أحد، والذين جاؤوا بعده تعبوا كثيراً .

وما علم هذا الصحابي الجليل أنه هو الذي سيجيء بعد عمر، سيدنا عثمان جاء على أثر خليفتين ليس لهما نظير، وجاء بعد عشر سنوات عُمرية، فرض فيها الفاروق على المسلمين منهجه الصارم، وعدله المتين، وحمل ولاته وعُمَّاله على مثل ما حمل عليه نفسه من زهدٍ وتقُّشفٍ وعناء، جاء سيدنا عثمان، والدولة تتسع رقعتها، وتتلاطم تحت راياتها، أجناس شتّى، متباينة الطباع والغايات، جاء والدنيا فُتحت على المسلمين، حيث أصبح دخلهم من التجارة، وأنصباؤهم من الفيء تزيد عن احتياجاتهم، وكان عمر يرى إقبال الدنيا في بداياتها، فيرتجف، ويقول: إن للمال ضراوةً كضراوة الخمر، المال يقسّي القلوب، الغنى أحياناً يبعد عن الواحد الديَّان، وذكر قول النبي صلّى الله عليه وسلّم:

" فوَ اللَّهِ مَا الْفقرَ أخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أخْشَى عَلَيْكُمْ أنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فتَنَافسُوهَا كَمَا تَنَافسُوهَا فتُهْلِكَكُمْ كَمَا أهْلَكَتْهُمْ "

(أخرجه ابن ماجة في سننه)

قد تجد مجموعة مؤمنين متألقين جداً، وهم فقراء، بل معدمون، في بداياتهم بالدراسة أو الجامعة، تجدهم يحبون بعضهم بعضاً، ويؤثرون بعضهم بعضاً، يتفانون في خدمة بعضهم بعضاً، فإذا نالوا الشهادات العالية، وتسلّموا الوظائف الراقية، واغتنوا وتزوَّجوا، وصار كل واحد منهم يشار إليه بالبنان؛ تنافسوا، وتباغضوا، وتحاسدوا، فلذلك البطولة لا أن تصل إلى القمة، بل أن تبقى في القمة، أن تصل إلى قمة النجاح، وأن تبقى في هذه القمة، فكثيراً ما يصل الإنسان إلى القمة، ثم ينزلق إلى الوادي السحيق .

موجز عن خطبة الخلافة :

ماذا قال في خطابه حينما تسلّم الخلافة؟ قال: أيها الناس، إنّ الدنيا طويت على الغرور، فلا تغُرَّنكم الحياة الدنيا، ولا يغُرَّنكم بالله الغَرور، ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة ، فإن الله قد ضرب للدنيا مثلاً، فقال:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

(سورة الكهف الآية : 45-46)

الحقيقة أنّ الظروف التي تسلّم فيها هذا الخليفة العظيم اختلفت، والمسلمون توسَّعت تجاراتهم، والدولة اتسعت رقعتها، والزمن تغيَّر، وهناك ظروف لم تكن من قبل .

نصح الخليفة الراشد عثمان بن عفان لكل من يعنيهم الأمر :

ما الذي فعله هذا الخليفة؟ كتب إلى ولاة الأقاليم، وأمراء الحرب، والأئمة على الصلوات، والأمناء على بيوت المال، كتب إلى كل الموظفين في الحقل العسكري والمالي والإداري، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحثُّهم على طاعة الله، وطاعة رسوله، ويحضُّهم على اتباع السنَّة، وترك الإحداث والابتداع، وكان بيت المال عامراً ممتلئاً، فزاد في عطاء الناس، واتخذ من المسجد سماطاً، يقدِّم عليه بصورةٍ دائمةٍ الطعام الطيِّب للمعتكفين والمتعبِّدين وأبناء السبيل .

الخطر الذي حدق بالمسلمين أثناء استلام الخليفة الراشد عثمان بن عفان الخلافة :

لكن ماذا حدث؟ الذي حدث أن أعداء الإسلام مِنَ الملوك والأباطرة فيما حول بلاد المسلمين علموا أن عمر قد توفي، والأصح قتل شهيدًا، وأن عثمان بن عفّان، وهو رجل شديد الحياء في سن السبعين قد تسلَّم الخلافة، فطمعوا أن يستردّوا شيئاً من بلادهم التي فُتحت، وأن يستعيدوا شيئاً من ملكهم الذي اندثر، لذلك ما إن تسلَّم هذا الخليفة سيدنا عثمان بن عفَّان الخلافة حتى فوجئ بانتفاضات مسلَّحةٍ تنقضُّ على الدولة من كل حدبٍ وصوب .

أيها الأخوة، شيءٌ مشرِّفٌ جداً، وشيءٌ لا يصدَّق، قالوا: سيدنا عثمان لم يضع لحظة إلا وهو يفكِّر، لم يتلفَّت ذات اليمين أو ذات الشمال، لم يسأل أحداً ولا مجرَّد سؤال، ماذا يجب أن يصنع؟ لقد حدد له ضميره المؤمن الطريق، أصدر الأوامر بإطفاء النار وقهر المرتدين، فماذا فعل؟ .

أول عمل قام به، أراد أن يبيِّن للخصوم أن الإنسان لا يقاس بضخامة جسمه، ولا بما يحمل فوق كاهله من سنين وأعوام، إنما يقاس بما وقر في قلبه من إيمان، والآن سوف ترون كيف أن هذا الخليفة المتقدِّم في السن الذي هو أميل للحياء؟ كيف ينتفض وكأنه شاب في ريعان الشباب، كأنه أسدٌ هصور؟ كيف ينتفض ليؤدِّب من حوله من المتمرِّدين .

ماذا فعل عثمان بن عفان لمجابهة هذا الخطر ؟

جابه القوى المتمرِّدة التي حملت السلاح ضد الإسلام ودولته في أذربيجان، الحكم الإسلامي وصل في عهد سيدنا عثمان إلى أذربيجان، فسيَّر إليهما جيشاً بقيادة الوليد بن عقبة فردَّهم إلى صوابهم، ووقعوا معاهدةً بالشروط نفسها التي كان أنزلهم عليها حذيفة بن اليمان، فأول جبهة جبهة أذربيجان وأرمينيا .

وبينما كان جيش سيدنا خالد بن الوليد راجعًا من الكوفة، جاءتهم الأنباء بأن الروم تتحرَّش بالشام، وجاءت هذه الأنباء مشفوعة بأمر الخليفة لخالد أن يجهِّز عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة رجلٍ أمينٍ كريمٍ شجاع، ولننظر ماذا فعل خالد؟ هيّأ الجيش، وأمَّر عليه كما أوصاه الخليفة رجلاً أميناً كريماً شجاعاً، هو حبيب بن سلمة الفِهْري، سار حبيب بجيشه ومعه عشرة آلاف جندي، وكانت زوجة هذا القائد حبيب بن مسلمة معه في الجيش، فالنبي على عادته كان يأخذ بعض أزواجه، فهذا القائد كانت معه زوجته، فلما اقترب القتال، وقبل أن تبدأ المعركة قالت له زوجته: أين ألقاك إذا حمي الوطيس، ومالت الصفوف؟ فأجابها زوجها: في خيمة قائد الروم أو في الجنة، والتقى الجيشان، ودارت بينهما رحى معركةٍ حامية الوطيس، ولم يقف حبيب عند هذه الجولة الظافرة، بل سار متوغلاً في بلاد الروم، يفتح الحصون

الشاهقة، حصناً وراء حصن، ويفتح أبواب الإسلام أمام جماهير عريضة، طالما انتظرت أيام الخلاص، فهذه هي الجبهة الثانية ، وقد أسكَتَها .

ثم إنّ مقاطعة الريّ نقضت هي الأخرى عهدها وتمرَّدت، فزحف عليها جيشٌ بقيادة أبي موسى الأشعري، ردَّ المتمردين إلى الجادّة، وأنزلهم مرةً أخرى على العهد القديم الذي واثقهم عليه حذيفة بن اليمان .

والتفت الخليفة القائم في المدينة عاصمة الإسلام صوب الإسكندرية، التي جاءته أنباؤها أن الأسطول البحري للروم قد أغار عليها، كما أن أعداداً هائلةً من المشاة والركبان يزحفون نحوها، فأرسل الخليفة أوامره إلى عمرو بن العاص واليه على مصر كي يسيِّر بجيشه إلى الإسكندرية، وأنزل بالمتمردين هزيمة استأصلت شأفتهم إلى الأبد، وكان في الوقت نفسه معاوية بن أبي سفيان يفتح قنسرين، وكان عثمان بن أبي العاص يقهر التمرُّد الناشب بعيداً وقريباً ، وأما في شمال إفريقيا فقد أرسل جيشًا بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وأرسل معه عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير .

ورأى الخليفة عثمان رضي الله عنه وأرضاه، أن الأسطول البحري للروم يتخذ من جزيرة قبرص منطلقاً لعدوانه، فقرر غزو قبرص، وهذه أول مرة في التاريخ الإسلامي يصير الغزو بالبحر، ولكن المسلمين لم يمتطوا ثبج البحر من قبل في قتالٍ، وأميرهم العظيم عمر كان كما أسلفنا من قبل ضدَّ كل مخاطرة من هذا القبيل، فلم يخاطرْ سيدنا عمر، تدارس عثمان الأمر مع بعض أصحابه ومشيريه، واقتنع بحتمية هذه المخاطرة، ولأول مرةٍ شهد التاريخ ميلاد البحرية الإسلامية .

أذن الخليفة لمعاوية بغزو قبرص، فأبحر إليها من الشام، وأمدَّه الخليفة بجيشٍ آخر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح من مصر، وأطبقت القوتان العارمتان على الجزيرة، فاستسلمت، ووقعت الصلح الذي فرضه المسلمون، هذا هو الخليفة الشيخ، الكثير الحياء .

أيها الأخوة، هذا هو سيدنا عثمان، هل رأيتم خليفة بهذا الحماس، وبهذا التألُّق، وبهذا الاندفاع، وهذه الغيرة على الإسلام، وهذا التأديب لأعداء الإسلام؟ .

من دلائل نبوة المصطفى غزو قبرص :

هذا الغزو البحري له قصَّة، هذه من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، قالوا:

ذات مرة كان سيدنا رسول الله عند بعض أصحابه، وهو عبادة بن الصامت، وقال يوماً في داره، معنى قال، أي ارتاح بعد طعام الغداء، ونهض النبي عليه الصلاة والسلام من نومه، وهو يضحك، فسألته أم حَرام بنت ملحان، زوجة سيدنا عبادة بن الصامت، ما الذي أضحكك؟ فقال عليه الصلاة

والسلام: " نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الأَسِرَّةِ أَوْ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ يَشُكُّ أَيَّهُمَا قَالَ قَالَتْ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَدَعَا لَهَا ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ قَالَتْ فَقُلْتُ : مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا قَالَ فِي الأُولَى قَالَتْ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ : أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ فَرَكِبَتْ أُمُّ حَرَامٍ بِنْتُ مِلْحَانَ الْبَحْرَ فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا حِينَ خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ فَهَلَكَتْ " .

(أخرجه مسلم في الصحيح)

وهذه الرؤيا انتشرت بين الصحابة في حياة النبي، ولم يفارقهم بعد إلى الرفيق الأعلى، وكانوا ينتظرون تأويلها، ويعجبون كيف سيركبون البحر مثل الملوك على الأسرة؟ حتى جاءت غزوة قبرص، فركبوا ثبج البحر لأول مرة، وكانت سفنهم سفناً كبيرةً، وكانوا فوقها كالملوك على أسرَّتهم، وفي هذه الغزوة خرج عبادة بن الصامت، ومعه زوجته رضي الله عنهما، وتحققت نبوة النبي الصادق الأمين لها، وهنا تستكمل النبوة صدقها الرائع وبهاءها الجليل، فإن أم حرام لم تعش حتى تركب البحر مع الآخرين، لقد ماتت بعد انتهاء معركة قبرص ودفنت هناك، وعُرف قبرها الطاهر فيما بعد باسم قبر المرأة الصالحة، قبرها إلى الآن في قبرص .

هذا هو سيدنا عثمان؛ أول جبهة، وثاني جبهة، وثالث جبهة، ورابع جبهة، وخامس جبهة، ولأول مرة شكَّل البحرية الإسلامية، وغزا قبرص من بلاد الشام، ومن مصر، واحتل قبرص، ووقَّع معاهدة .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا علي بن أبي طالب - الدرس (1-8) : جده وأبوه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-10-11

بسم الله الرحمن الرحيم

انظر كيف تتلاقى الفطرة مع الحق ؟

أيها الأخوة، مع الدرس الأول من سيرة الخليفة الراشد علي كرم الله وجه، هذا الإمام الفتى الذي كان أصغرَ مَن آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ كان بمكة، وقبل الهجرة، له منبتٌ عتيد، له أبٌ اسمه أبو طالب وجدٌ اسمه عبد المطلب، وجميلٌ بنا أن نقف وقفتين عند هذين الأبوين لهذا الإمام الجليل، لأننا لو درسنا حياة هذين الأبوين لوجدنا، ماذا تعني كلمة الفطرة التي فُطِر الناس عليها؟ .

فهذا الأب الجليل أبو طالب والد سيدنا علي حينما كان على فراش الموت أوصاهم بهذه الوصية، وانظروا أيها الأخوة، كيف أن الإنسان حينما تصفو نفسه تلوح له الحقيقة؟ فحياتنا من كثرة التعقيد، ومن كثرة القيل والقال، ومن كثرة المشكلات عكّرت صفاء فطرتنا، فهذا الأب الكريم، وهو على فراش الموت، يقول: " أوصيكم بتعظيم هذا البيت، فإن فيه مرضاة الرب، وقوام العيش"، هذا الرجل لم تصلْه دعوة، بل عاش على الفطرة، " صِلُوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإن صلة الرحم منسأة في الأجل، اتركوا البغي فقد أهلك القرون مِن قبلكم"، البغي هو العدوان، البغي هو تجاوز الحد، البغي هو الظلم، والظلم ظلماتٌ كما تعلمون .

" يا معشر قريش أجيبوا الداعي، وأعطوا السائل، فإن فيهما شرفَ الحياة، وشرف الممات"، دعيت إلى شيء فأجبْ، سُئِلت فأعطِ، دعيت إلى حقيقةٍ ناصعةٍ تقبَّل، دعيتَ إلى خيرٍ عميمٍ فافعل، " عليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، ألا وإني أوصيكم بمحمدٍ خيراً "، بالفطرة رأى فتى صادقاً أميناً يدعو إلى الخير، ما جرب عليه قومه كذباً قط .

أيها الأخوة، السيدة خديجة قالت للنبي عليه الصلاة والسلام يوم جاءه الوحي: " واللهِ لا يخزيك الله أبداً، إنك تصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتعين على نوائب الدهر، فو الله لن يخزيك الله أبداً " .

كيف عرفت هذه الحقيقة؟ الجواب أيها الأخوة، أن فطرة هذه المرأة سليمة، وكل واحد منكم لو رأى ببساطةٍ بالغة شاباً مستقيماً، صادقاً أميناً، منضبطَ المشاعر، منضبط الجوارح، يسعى لخير الناس، ينصحهم، يعين ضعيفهم، يغني فقيرهم، يقدِّم لهم كلَّ ما في وسعه، فإنّ أحدكم يحكم بأن خالق الكون سيتولى هذا الشاب بالتوفيق، والتأييد، والنصر، لأنّ اللهَ سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً)

(سورة الكهف الآية : 30)

أيها الأخوة، ما أردتُ حين اتخذتُ مِن والد سيدنا علي كرم الله وجهه وهو عم النبي، ومن أبيه عبد المطلب، وهو جد النبي إلا لأريكم كيف أن الفطرة السليمة تلتقي مع حقائق الدين لقاء عفوياً؟ وأنت أيها الأخ الكريم بإمكانك أن تستنتج هذه الحقيقة، استقم على أمر الله، انصحْ، اخْدُمْ، وقدمْ كلَّ ما في وسعك لخير البشرية، " فوالله لا يخزيك الله أبداً "، ليس في الكون إلا الله .

وصية أبو طالب عند الموت لذويه باتباع محمد :

عندما سأل النجاشي سيدنا جعفرًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ماذا قال؟ قال ببساطة:

" أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَ فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا فَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبَائِثِ وَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ " .

(أخرجه أحمد عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ في مسنده)

عفةٌ عن المحارم، عفةٌ عن المطامع، نسبٌ عريق، كريمٌ بن كريم بن كريم، ما عرف النبي صلى الله عليه وسلم في سلالته الطاهرة إلا كلَّ محتدٍ عريق ونسبٍ عظيم .

قال أبو طالب: " ألا وإني أوصيكم بمحمدٍ خيراً فإنه الأمين في قريش والصادق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاءنا بأمرٍ، قبله الجنان، وأنكره اللسان "، القلب قبِلَه ، لأن الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام مطابقٌ للفطرة، جاءنا بأمرٍ مطابقٍ للعقل، مطابقٍ للخير، مطابقٍ للحق، هذا حال قريش حينما تلقَّت دعوة النبي، قلبها قبل هذه الدعوة، ولسانها أنكر هذه الدعوة، مخافة أن تدع دين آبائها وأجدادها، و يخسر زعماؤها مراكزَهم، " وايم الله لكأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل

الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظّموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، ولكأني به وقد محضته العرب ودادها، وأعطته قيادها " .

ما هذا التنبُّؤ؟ ما هذا الإدراك العميق؟ ما هذا الاستشفاف للمستقبل؟ لذلك الصعلوك الذي لا يعرف أحدٌ نسبه إذا عرف الله عزَّ وجل رفعه الله إلى أعلى عليين، وخفض من زها على الناس بنسبه وبماله وبمكانته إلى أسفل سافلين، من هو صهيبٌ؟ ومن هو بلالٌ؟ ومن هم هؤلاء الصحابة الفقراء الصغار الذين كانوا مستضعفين في الأرض؟ كلماتٌ بليغة بليغة، دقيقةٌ دقيقة، عميقةٌ عميقة قالها أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وهو على فراش الموت، وهو والد سيدنا علي كرم الله وجهه، يقول أبو طالب: " والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يهتدي بهديه إلا سعد، ولو كان في العمر بقية لكففت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي "، ثم وضع عينيه على أهله الأقربين واختصهم بوصيةٍ أخرى، وقال لهم: " وأنتم يا معشر بني هاشم أجيبوا محمداً وصدقوه تفلحوا وترشدوا " .

هذا كلام أبي طالب، هذا كلام الفطرة، هذا كلام العقل، هذا كلام الإدراك الحصيف، هذا كلام العقل الراجح، ما من حديثٍ يشدني كقول النبي عليه الصلاة والسلام:

" أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً "

(ورد في الأثر)

دعوة للآباء :

توفي أبو طالب، وبقيت في خواطر سيدنا علي كلمات أبيه، "عظموا الكعبة، صلوا الرحم، اتركوا البغي، أجيبوا الداعي، كونوا صادقين، عيشوا أمناء "، أي أنه إذا كان من الممكن أن يكون هناك مؤشرٌ للإيمان، وهناك مؤشرٌ لرجاحة العقل، فإن العقربين يتحركان معاً، عقرب رجاحة العقل يتحرك كما يتحرك عقرب صدق الإيمان، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

" أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً ".

(ورد في الأثر)

في أيام الدعوة الأولى رأى أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ولدَه علياً يصلي خفيةً وراء رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكانت هذه أول مرة يعلّم فيها أن ابنه الصغير السن قد اتبع محمداً، وما اضطرب الطفل حينما رأى أباه يبصره مصلياً، ولما أتم صلاته ذهب تلقاء والده، وقال له في صراحةٍ وثبات: " يا أبتِ لقد آمنتُ بالله وبرسوله، وصدقتُ ما جاء به واتبعته "، ماذا قال الأب؟ قال أبو طالب: " أما إنه لا يدعوك إلا إلى خير فألزمه " .

فما أروع الأب في أيامنا هذه إذا علم أن ابنه التحق بمجلس علم، وأخذ عن أستاذٍ موثوق بعلمه، وأن هذا الابن سلك طريقاً يقوده إلى الفلاح، إلى طريق العفاف، إلى طريق الصدق ، إلى طريق غض البصر، إلى طريق تحرير الدخل، ما أروع الأب الذي يقول لابنه: يا بني ألزم هذا المجلس، فهذا التعليم والتوجيه السليم لنا جميعًا .

يا أيها الآباء إني ليشتدُّ عجبي حينما أرى أباً راجح العقل إن رأى ابنه قد لزم مجلس علم، أو اتبع أهل الحق أقام عليه النكير، لماذا؟ أيرضيك أن يتقلب ابنك في متاهات الضلال؟ أيرضيك أن ينتقل ابنك من مكانٍ إلا مكان لا يرضي الله عزَّ وجل، وأن يصاحب رفقاء السوء، هل أنت راضٍ عنه إذاً؟ .

مرةً ثانية رأى أبو طالب ابنه يصلي، فقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام يصلي وقد وقف عليٌ كرم الله وجهه على يمينه، ولمح من بعيدٍ ولده جعفراً فناداه، حتى إذا اقترب منه قال له : " صِلْ جناح ابن عمك، وصلِّ عن يساره " .

أي إن عليًّا عن يمينه، وأنت عن يساره، هذا درسٌ بليغٌ للآباء، فالأب الذي يرى ابنه قد اهتدى إلى سواء السبيل ينبغي أن يفرح فرحاً لا يقدَّر بثمن، ينبغي أن يغتبط لهذا الحدث، ينبغي أن يمتلئ قلبه سروراً، ولو أن أباً عرف مصير ابنه المهتدي لأدرك أنه حاز شرف الدنيا والآخرة ، لذلك ورد في الحديث الشريف

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنَّ وَلَدَ الرَّجُلِ مِنْ كَسْبِهِ " .

(أخرجه أحمد عن عائشة في مسنده)

موقف أبو طالب من ردة فعل قريش على خبر محمد :

فأبو طالب والد سيدنا علي كرم الله وجهه حينما تبيَّن له أن محمداً صلى الله عليه وسلم صادقٌ، وحينما جاؤوه يطلبون منه أن يقنع ابن أخيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يكُفَّ عن دعوته لئلا يسفه آلهة قريش ويسفه أحلامها، قالوا له يا أبا طالب: " إن لك فينا سناً وشرفاً ومنزلةً ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وعيب آلهتنا، وتسفيه آلهتنا، فإما أن تكُفَّه عنا، أو ننازله وإياك، حتى يهلك منا أحد الفريقين "، فلما عرض على ابن أخيه هذا العرض، قال قولته الشهيرة:

" والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ".

(ورد في الأثر)

هذه العبارة التي قالها النبي هي عبارةٌ خالدة، وهي تعني الثبات على المبدأ، الآن النموذج الرائج بين الناس، شخص يبحث عن مصالحه، يتلّون ألف لونٍ ولون، ويغيِّر كلامه عشرات المرات، لكن الرجل الذي يأخذ بمجامع القلوب هو رجل المبدأ، فإما أن تكون صاحب مصلحةٍ أو صاحب مبدأ، والإنسان الثابت على مبدئه فيه عقلانية ورجولة، وهذا الموقف موقفُ النبي عليه الصلاة والسلام:

" والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ".

(ورد في الأثر)

عندئذٍ قال: **" يا ابن أخي افعل ما بدا لك، واللهِ لن يصلوا إليك "، وكان من أشد الذين حموا النبي صلى الله عليه وسلم .**

ذات مرةٍ رأى النبيَّ كئيباً حزيناً، فتحرّى الأمر، فعلم أن قريشاً قد آذته، وبالغت في إيقاع الأذى به، فنهض من فوره حاملاً سيفه بيمينه، متأبطاً ذراع النبي بيساره، حتى إذا وقف على الذين آذوه، صاح فيهم: " والذي يؤمن به محمدٌ لئن قام منكم أحدٌ لأعالجنه بسيفي ".

الأذى الذي ناله الرسول بعد وفاة عمه :

وحينما توفي عم النبي أبو طالب بالغت قريش في إيذاء النبي، ونالت منه أشد النيل، وبعدها كان الإسراء والمعراج مسحاً لجراحات الماضي، وكان أبو طالبٍ شاعراً أريباً لبيباً، قال مرةً عن ابن أخيه:

لقد علموا أن ابننا لا مكـذّبٌ — لدينا و لا يعنى بقول الأباطل

حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غير طائـشٌ — يوالي إلهاً ليس عنه بغـافل

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه — ثمال اليتامى عصمة للأرامل

حينما اشتدت وطأة المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم وجَّه لعمه تحية بعد موته يستحقها، قال:

" ما نالت مني قريشٌ شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب " .

(ورد في الأثر)

قضى الله في سنته الكونية أن يكون للنصر سبباً :

الحقيقة كان أبو طالب السند الخارجي، وكانت السيدة خديجة السند الداخلي، الإنسان له حياة خارج البيت، وله حياة داخل البيت، فزوجته كانت سنداً له وسكناً، والمرأة كما تعلمون معينة لزوجها، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

" إِنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ " .

(أخرجه النسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص في سننه)

المرأة سكن، الإنسان أحياناً إذا وفّق في زواجه، وحظِيَ بزوجةٍ صالحةٍ مؤمنة، فربما تخفف وتنسيه آلام العمل باهتمامها، ورعايتها وصبرها ورضاها باليسير .

فأريد أن أعلق تعليقاً دقيقاً، الله عزّ وجل حينما ينصر عبداً لا ينصره بلا سبب، ينصره بأسبابٍ أرضية، عندما يقول ربنا عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

(سورة الحج الآية : 38)

كيف؟ بأنْ يلهم إنسانًا يعرفك حق المعرفة، فإنْ نالكَ أعداؤك بسوء يهبّ ليدافع عنك، وهو لا يدري أن الله سبحانه وتعالى وقّت هذا الدفاع، وألهمه هذا الدفاع وقدَّر هذا الدفاع، وأنْجحه :

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

(سورة الحج الآية : 38)

وإنّ الله عزّ وجل إذا أراد أن ينصرك جعل أسباباً أرضية لذلك، وإذا أراد أن يخذل عبداً جعل أسباباً أرضية لخذلانه، والله عزّ وجل هو مسبب الأسباب، وهو خالق الأسباب، لكن نصره وتأديبه وبطشه يتمّ وفق أسبابٍ أرضية، فيقول عليه الصلاة والسلام:

" ما نالت مني قريشٌ شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب " .

(ورد في الأثر)

وقال مرةً يخاطبه بعد موته :

" يا عم ما أسرع ما وجدت فقدك " .

(ورد في الأثر)

فقد كان له دور كبير في حماية النبي عليه الصلاة والسلام .

الرؤية التي رآها عبد المطلب في منامه :

وثمة أمرٌ آخر، فجدُّ النبي عليه الصلاة والسلام عبد المطلب له قصة مشهورةٌ أيضاً، تؤكّد سلامة فطرة آبائه وأجداده، فقد أخرج البيهقي في دلائل النبوة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال، قال عبد المطلب: " إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت، فقال: احفر طيبة، قلت: وما طيبة؟ فذهب عني، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي فنمت به فجاءني، فقال: احفر زمزم، فقلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف ولا تذم، تسقي الحجيج الأعظم عند قرية النمل، قال: فلما أبان له شأنها، ودل على موضعها، وعرف أن قد صدق غدا بمعول ومعه ابنه الحارث ليس له يومئذ غيره فحفر ".

وما كاد يطلع النهار حتى ذهبا يغوصان في الأرض بمعاولهما، فتفجرت مياه النبع المبارك الخالد، الذي هيَّأه الله سبحانه وتعالى ليكون سُقيًا لحجاج بيت الله الحرام، وموضوع زمزم موضوع يلفت النظر، كلُّ الأمطار التي تهطل بمكة وحوالي مكة لا تكفي لمدِّ مصادر هذا النبع، ولا يعلم إلا الله مصادر هذا النبع، وعروق هذا النبع، ومستودعات هذا النبع في أي مكان، وتحت أي إقليم، ووراء أي جبل، وهذا لا يعلمه إلا الله، لكن الذي تعلمونه جميعاً، مهما كثر الحجاج فهم جميعاً يشربون من ماء زمزم، وله طعمٌ خاص، حتى إن الحجاج إذا توجهوا إلى المدينة المنورة يشربون من ماء زمزم، فكلُّ المياه هناك تنقل من نبع زمزم بالسيارات الكبيرة المخصصة لنقله .

فجد النبي عبد المطلب هو الذي حفر بئر زمزم بعد أن رُدم، وكان قد فجّر في عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام .

علام يدل موقف عبد المطلب من أبرهة حينما أراد هدم الكعبة ؟

الحَدَث الشهير الذي تعلمونه جميعاً فهو حادثة الفيل، قال الله عزّ وجل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ *أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)

(سورة الفيل الآية : 1-5)

فقد غزا أبرهة مكة ليهدم الكعبة، وجاء في جيشٍ لجب لا طاقة لقريشٍ بمقاومته، وفزعت قريش إلى شيخها وزعيمها عبد المطلب تسأله الرأي، وقد أدرك عجز قومه عن مجابهة الجيش الزاحف، فأمرهم أن يحملوا نساءهم وأطفالهم ومتاعهم ويغادروا مكة إلى شغاف الجبال، تاركين البلد الحرام مدينة مفتوحةً يتولى ربُّ البيت حراستها، أما إذا حاول الجيش المقتحم أن يتسور الجبال وراءهم ليعتدي على أعراضهم فليسقطوا جميعاً صرعى قبل أن تُمَسَّ أعراضهم بسوء، والموقف نفسُه وقفه من أبرهة عندما طلب أن يتحدَّث إلى زعيم قريش، فذهب إليه عبد المطلب، وهنا ألقى على مسامعه كلمته المأثورة، حين سأله عن إبلٍ له، قال: " أما تخشى أن يهدم هذا البيت؟ قال: أمّا الإبل فهي لي، وأما البيت فله ربٌ يحميه " .

وإني لأجل في المؤمن غيرته على المسلمين، وغيرته على هذا الدين، ولكن أُطمئن كل يائسٍ، وكل ضعيفِ النفس، وكل من وهنت قوته، وكل من ضعفت نفسه أن لهذا الدين رباً يحميه ، وأن الإسلام دين الله، وأن هذا الدين كالطود الشامخ، يصمد أمام كلِّ المكائد التي تبتغي أن تهدمه، لا ينبغي للمؤمن أن ييأس، قال تعالى:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران الآية : 146)

يُروى عن سيدنا خالد، أنه كان يقول: " والله لو كانت أعداد جيوش الروم أضعاف ما هي عليه لم آبه لها، لكنه يؤلمني أن تصاب حدوة فرسي بعطب "، لأنه يعلم علم اليقين أن الله سينصره على هؤلاء جميعاً، فمعنويات المؤمن العالية مهمة جداً في إيمانه، أنت مع خالق الكون، أنت تنفّذ تعليمات خالق الكون، أنت في مرضاة رب العالمين، واللهُ سبحانه وتعالى لا يتخلى عنك ، فعليك أن تبذل المستطاع المتاح، ثم تفوِّض الأمر لله سبحانه، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

ولم يطلب أن تعدُّوا لهم القوة الكافية، والإنسان حينما يبذل قصارى جهده يتولى الله ما بقي عليه من نقصٍ فيرمِّمه سبحانه وتعالى .

حينما علم عبد المطلب خطورة الأمر وعزم أبرهة على هدم الكعبة، توجه إلى بيت الله الحرام فوراً، وأخذ بحلقتي باب الكعبة وناجى الله سبحانه وتعالى في إيمانٍ عجيب، وقال: " اللهم إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك، إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمرٌ ما بدا لك " .

كان عبد المطلب إذا أمسكت السماءُ المطرَ كان يضرع إلى الله عزّ وجل، ويقول: " اللهم هؤلاء عبيدك، وأبناء عبيدك، وقد نزل بنا ما ترى، فأَذْهب عنا الجدب، وائتنا بالمطر والخصب "، هذا الموقف من عبد المطلب دليل الفطرة الصافية النقية التي لم تعكرها الشوائب .

ما هذه البشرى التي هزت الكون طرباً ودخلت على فؤاد عبد المطلب سروراً ؟

وعبد المطلب هذا جد النبي عليه الصلاة والسلام، حينما بُشِّر بمولد النبي حفيده محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، حمل الوليد فوق ذراعيه وصدره وذهب مسرعاً به إلى الكعبة، حيث صلى صلاة الشكر وراح، يقول:

الحمد لله الذي أعطانـــــي هذا الغلام الطيِّب الأردان

قد ساد في المهد على الغلمانِ أعيذه بالله ذي الأركـانِ

حتى أراه بالغَ البنيان

ومما يؤثر عن هذا الجد، جد النبي، أنه قال لأبي طالب عم النبي، وهو والد سيدنا علي : " يا أبا طالب سيكون لابني هذا شأنٌ فاحفظه، ولا تدع مكروهاً يصِلِ إليه ".

من معاني هذه الآية :

أيها الأخوة، هذه المواقف التي وقفها أبو طالب ووقفها عبد المطلب من حفيده سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، تدل على أن الفطرة السليمة تلتقي مع هذا الدين الحنيف، والدليل قول الله عزّ وجل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم الآية : 30)

من معاني هذه الآية، أن الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن نقيم وجوهنا، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

(سورة الروم الآية : 30)

فإقامة الوجه أعلى درجات الاهتمام، أحياناً يكون أمام الإنسان عدَّاد، وهذا العداد ينبئ بخطر، كمقياس الضغط مثلاً، فالإنسان قلق جداً على ارتفاع ضغطه، فإذا أراد أن يقيس ضغطه تكاد عيناه تخرجان من محجريهما، وينظر إلى العقرب ليرى نسبة الضغط، فهذا المنظر يدل على اهتمام الإنسان، فمعنى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

(سورة الروم الآية : 30)

معنى حنيفاً أي مائلاً إليه، كارهاً لغيره، أن تقيم وجهك للدين حنيفاً؛ باهتمامٍ بالغ، بشعورٍ صادق، بحرصٍ كبير، قال: هي نفسها فطرة الله التي فطر الناس عليها، فتطابقُ النفس مع أحكام الدين تطابقٌ عجيب، تطابق تام، والإنسان حينما يهتدي إلى الله يجد نفسه قد اطمأنتْ، والطمأنينة سببها أن الإنسان سلك في الطريق الذي أُعدّ لها، فتصور سيارة تمشي في طريق وعر، صخور ناتئة، وحفر كثيرة، ورمال عميقة، فتجهد، أما إذا انتقلت إلى الطريق المعبَّد، تقول: هذا الطريق لهذه السيارة، هذا الطريق مصمم خصيصاً لهذه المركبة، تنطلق السيارة على الطريق المعبد بسرعةٍ، وهدوءٍ، وراحةٍ، وصوتٍ لطيفٍ، واستقرارٍ في أجهزتها، وعدم اضطرابٍ لحركاتها، أمّا إذا سلكت هذه المركبة طريقاً وعرةً فإن هذه الطريق تتناقض مع طبيعتها .

والمؤمن حينما يستقيم على أمر الله يجد نفسه، ويجد أن نفسه قد اطمأنت وقلبه قد استراح ، أي إن كل أخ من أخواننا الكرام، إذا ذكر الساعات السعيدة التي تلت توبته، يقول لك: كدتُ أطير سعادةً، الصلح مع الله رائع جداً، التوبة إلى الله مسعدة، الانضمام إلى أهل الحق هو السعادة كلُّها، أن يشعر الإنسان أنه على الطريق الصحيح، وعلى المنهج الصحيح، فهذا شعور ينبئ بالسعادة الكبرى .

ما الهدف من هاتين القصتين ؟

فلذلك أردت من هاتين القصتين، قصة أبي طالب وقصة عبد المطلب وهما عمُّ النبي وجده، أردت منهما أن الإنسان بعقله المنصف وبفطرته السليمة يلتقي مع الدين القويم الذي هو في حقيقته علاجٌ للنفس وشفاءٌ لها، وفي القرآن الكريم ورد الشفاء عدة مرات، أجسامنا شفاؤها في العسل، قال تعالى:

(فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)

(سورة النحل الآية : 69)

ونفوسنا شفاؤها القرآن، قال تعالى:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الإسراء الآية : 82)

من أقوال سيدنا علي بن أبي طالب وحكمه :

سيدنا علي كرم الله وجهه، وهو من الصحابة المرموقين كان ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان فتى يافعاً، وأنا حينما أرى فتى سلك طريق الإيمان، أقول في نفسي: لهذا الفتى مستقبلٌ عظيم، لأن الهدى يتراكم والقناعات تزداد والقيم تترسخ، ومن لم تكن له بدايةٌ محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، سيدنا علي له أقوال وهي في أعلى درجات الحكمة، حينما كنا في الجامعة علمونا أن أعلى كلامٍ على الإطلاق بعد كلام النبي صلى الله عليه وسلم هو كلام الإمام عليٍ كرم الله وجهه، أُوتي فصاحةً ما بعدها فصاحة، أُوتي بلاغةً ما بعدها بلاغة، كان يقول: " يا بُني العلم خيرٌ من المال لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة " .

ومن أقول هذا الإمام الجليل: " فلينظرْ ناظرٌ بعقله أنّ الله أكرم محمداً أم أهانه؟ فإن قال : أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمه، فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا " .

ومن أقول هذا الإمام الجليل: " يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر ، وكل نعيمٍ دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية ".

ومن أقوال هذا الإمام الجليل: قِوام الدين والدنيا أربعة رجال: عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلم، وغنيٌ لا يبخل بماله، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيَّع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره " .

له أقوال رائعة جداً يتحدث فيها عن الله عزّ وجل، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان كما قال عليه الصلاة والسلام في الفضل والعلم، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيٍّ:

" أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ " .

(متفق عليه عن البراء بن عازب)

مكانة الصحابة الكرام عند الله ورسوله :

ونحن والفضل لله عزّ وجل نحب كل أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، نحبهم حباً لا يوصف، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

" أَصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ وَمَنْ آذَى اللَّهَ أَوْشَكَ أَنْ يَأْخُذَهُ " .

(أخرجه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده)

وعَنْ نُسَيْرِ بْنِ ذُعْلُوقٍ قَالَ، كَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ:

" لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمُقَامُ أَحَدِهِمْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُمْ عُمْرَهُ ".

(أخرجه ابن ماجه نسير بن ذعلوق في سننه)

إكراماً لهذا النبي الجليل، النبي الكريم، لا ينبغي لواحدٍ منا أن ينزلق ويتحدث عن أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام كلاماً لا يليق بهم، هذا ليس من الأدب مع رسول الله عليه الصلاة والسلام في شيء،

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ وَمَنْ آذَى اللَّهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ " .

(أخرجه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده)

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ " .

(أخرجهما البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري في الصحيح)

أي نصفه .

ينبغي على المسلم أن يصون لسانه عن التكلم عن أصحاب رسول الله :

أرجو وأتمنى على كل أخواننا الكرام، ألاّ يتعرضوا لهذه الخلافات التي كانت بين أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام إطلاقاً، ولا أن يذكروها، إنها لا تعنينا ولسنا بحاجةٍ إليها ، نحتاج أن نأخذ من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام مواقفهم الرفيعة الكاملة .

دعوني أقلْ هذه الكلمة: تاريخ الطبري، ذلك التاريخ المشهور الذي أخذ عنه معظم المؤرخين، في مقدمة هذا الكتاب الواسع الجامع في التاريخ كلمة دقيقة، يقول مؤلف الكتاب، وهو الإمام الطبري ما معناه: " أنه جمع للقارئ كل ما وقع تحت يده من روايات، ويدع أمر تمحيصها ومعرفة صحيحها من زائفها إلى القارئ " .

كنت أقول: إن هذه المقدمة ينبغي أن تكتب على رأس كل صفحة في هذا الكتاب، فما الذي حصل بعد هذا؟ يأتي الرجل فيفتح كتاب الطبري، ويقرأ عن خلافاتٍ وقعتْ بين الصحابة، وينسى أن المؤلف نفسه، قال في مقدمة الكتاب: " جمعت لك كل ما وقع تحت يدي من روايات وعليك أيها القارئ أن تمحصها، وأن تأخذ الثمين منها وأن تدع الغث " .

هذه المقدمة نُسِيَت، ونسينا جميعاً أن الإمام الطبري يتحفظ على بعض الروايات، هو يصمم بعضها بأنها موضوع، وأنه مختلق، فلذلك قبل أن نخوض في الحديث فيما جرى بين أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهذا موضوع دقيق جداً، ويحتاج إلى تفحُّص ، وإلى دقة في التأمُّل قبل أن نأخذ صورة لا ترضينا عن أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام،

فعن جابر مرفوعا: " إنَّ اللَّهَ اخْتَارَ أَصْحَابِي عَلَى الْعَالَمِينَ سِوَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَاخْتَارَ لِي مِنْ أَصْحَابِي أَرْبَعَةَ - يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلي - فَجَعَلَهُمْ أَصْحَابِي " .

(أخرجه البزّار في مسنده)

وفي رواية أخرى عن عويم بن ساعدة، قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" إن الله عز وجل اختارني ، واختار لي أصحابي ، فجعل لي منهم وزراء ، وأختانا ، وأصهارا ، فمَن سبَّهم فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين ، ولا يقبلُ اللهُ منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا " .

(ورد في الأثر)

وما رأيت مؤمناً كاملاً إلا ويترفع عن الخوض في مسألةٍ خلافيةٍ بين أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، لأنهم جميعاً عدولٌ، ولأن الله رضي عنهم جميعاً بنص القرآن الكريم، قال تعالى:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

(سورة الفتح الآية : 18)

ينبغي عند دراسة التاريخ أن نعتمد على المنهج الموضوعي وليس المنهج الذاتي :

كل من يتجرَّأ على نقد أصحاب رسول الله وعلى ذمهم أو ذم بعضهم أو على التهجم عليهم فهذا من ضعف إيمانه، وكما ذكرتُ أنه عليه الصلاة والسلام، قال:

"إن الله اختارني واختار لي أصحابي ".

(ورد في الأثر)

وتحدثنا عن الحكمة البالغة في عزل سيدنا عمر بن الخطاب سيدنا خالد، وبعض المؤرخين يلغطون في هذا الحدث، ويتحدثون كلاماً لا يرضي الله عزّ وجل، ويعزون هذا العزل إلى تاراتٍ في الجاهلية وإلى خلافاتٍ قديمة، وحينما تسلَّم هذا الخليفة العظيم سيدنا عمر بن الخطاب شفى غليله وأبعده عن مركز القيادة، هذه التفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان، وقد عثرت على نصٍ ذكرته يوم الجمعة، وأذكره كثيراً، قال خالد بن الوليد لسيدنا عمر: " يا أمير المؤمنين لِمَ عزلتني؟ قال: واللهِ يا أبا سليمان إني لأحبك، قال: يا أمير المؤمنين لِمَ عزلتني؟ قال : والله إني أحبك، فلما قالها الثالثة، قال: واللهِ ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك، لكثرة ما أبليتَ في سبيل الله " .

هذا العزل إنقاذ للتوحيد، فالذي يؤرِّخ ينبغي أن يكون في مستوى المؤرَّخ له، فإذا كان المؤرَّخ له بطلاً، فينبغي أن يكون المؤرِّخ له بطلاً، ليفهم هذا البطلُ على هذا البطل، أمّا أن يكون المؤرِّخ في مستوى متدن جداً، من سوء الظن، ومن ضعف اليقين، ومن ضعف الإيمان، ثم يؤرخ لأبطالٍ عظام فهذه حال عقيمة وغير واعية .

يُروى أن سيدنا عمر عندما سأل سيدنا الصديق أن يعيد جيشاً جيَّشه النبي عليه الصلاة والسلام قبل موته، يروي التاريخ أن سيدنا الصديق أمسك بلحية سيدنا عمر وهزَّها هزاً شديداً، وقال: " ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، جبارٌ في الجاهلية خوارٌ في الإسلام" .

فهل من المعقول أنّ سيدنا عمر وهو عملاق الإسلام وهو الشخصية الثانية بين المسلمين أن تغيب عنه هذه الحقيقة؟ فهذا الموقف دليل على أنهما متفاهمان على هذا الرأي، فالصديق أراد أن يشيع في أصحاب رسول الله قوة العزيمة، فأمسكه من لحيته وهزه هزاً عنيفاً، وقال: " ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، جبارٌ في الجاهلية خوارٌ في الإسلام، أتمنعني أن أنفذ جيشاً جيَّشه رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ " .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ سَيْفُ اللَّهِ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَيْمُونَةَ وَهِيَ خَالَتُهُ وَخَالَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ فَوَجَدَ عِنْدَهَا ضَبًّا مَحْنُوذًا قَدْ قَدِمَتْ بِهِ أُخْتُهَا حُفَيْدَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ مِنْ نَجْدٍ فَقَدَّمَتْ الضَّبَّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ قَلَّمَا يُقَدِّمُ يَدَهُ لِطَعَامٍ

حَتَّى يُحَدَّثَ بِهِ وَيُسَمَّى لَهُ فَأَهْوَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ إِلَى الضَّبِّ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْ النِّسْوَةِ الْحُضُورِ أَخْبِرْنَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَدَّمْتُنَّ لَهُ هُوَ الضَّبُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ عَنْ الضَّبِّ فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ أَحَرَامٌ الضَّبُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ قَالَ خَالِدٌ فَاجْتَرَرْتُهُ فَأَكَلْتُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْظُرُ إِلَيَّ " .

(أخرجهما البخاري ومسلم عن ابن عباس في الصحيح)

ولكن ما العلاقة بينهما؟ ليس هناك علاقة فيما يبدو، سيدنا خالد أدرك ببصيرته الثاقبة أن هناك معارك طويلة سوف يخوضها نشراً لهذا الدين، وأن الصحراء ماذا بها؟ ما بها إلا هذا الحيوان - الضب - وليس محرماً أكله، فأكل هذا اللحم ليعوِّد نفسه، وليكون قدوةً لجنوده في تحمُّل كل المشاق من أجل نشر هذا الدين، النبي عليه الصلاة والسلام أدرك بحكمته البالغة أمر خالد عندئذٍ وصفه النبيُّ بأنه سيفٌ من سيوف الله .

البطولة في تفسير التاريخ أن يفسر تفسيراً صحيحاً، فنحن دائماً نحتاج إلى التفسير الصحيح .

ولا تقف ما ليس لك به علم :

يروي التاريخ أيضاً، أن سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم كان عمه العباس في مكة، وكان عمه العباس عين النبي في مكة، وما من قرارٍ خطير اتخذه كفار قريش إلا ووصل إلى النبي اللهم صلى عليه، لأن عمه العباس يطلعه على ذلك، وينقل له أخبار مكة بأسرع من لمح البصر، فلذلك النبي لا يفاجأ بأفعال قريش، فلما جاءت موقعة بدر، لم يستنكف العباس عن الخروج مع الكفار لحرب النبي، فماذا يكون؟ لو استنكف لانكشف أمره، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام، قال: لا تقتلوا عمي العباس، لأنه قد أسلم، فقد كشَفَ أمره للناس، ولو أن النبي لم يقل شيئاً للمسلمين لقُتِل عمه العباس في الحرب، فماذا فعل النبي؟ قال ولم يزد على هذا القول شيئاً :

" لا تقتلوا عمي العباس " .

(ورد في الأثر)

صحابي نظر، وقال: أيأمرنا ألا نقتل عمه، أو ينهانا عن أن نقتل عمه، ونحن نقتل آبائنا وأخواننا؟ أخذها من زاوية أخرى، على أنها قضية أسرة، فلما كُشِفَ الأمر بعد حين وأن عمَّه العباس أسلمَ قديماً، وأن عمه العباس كان عين النبي في مكة، حيث أسدى له خدماتٍ جليلة، وأنه ليس بإمكانه إلا أن يشترك مع الكفار في موقعة بدر، وليس بإمكان النبي أن يكشفه، ولا أن يسكت عن هذا الأمر فيقتَلَ، فيروَى أنّ

هذا الصحابي، كان يقول: بقيتُ عشر سنوات، وأنا أتقرب إلى الله بالنوافل، وعتق العبيد، والصدقات لعل الله يغفر لي سوء ظني برسول الله عليه الصلاة والسلام .

إذًا: نحن نحتاج إلى تفسير، فإياك أن تتسرع في الحكم، هؤلاء كما قال عليه الصلاة والسلام :

" حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء " .

(ورد في الأثر)

هذا حال المؤمن مع الصحابة :

نحن جميعاً نحسن الظن بهم، ونترضى عليهم، ونجعلهم أُسوتنا وقدوتنا، دون أن نخوض فيما كان بينهم من خلافات، فهذا لا يليق بالمؤمن، وأنا أُحسن الظن بهم جميعاً من دون أن أدخل في هذا المستنقع الذي قد يجرني إلى سوء ظنٍ بأصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، ونحن وإن تحدثنا عن سيرتهم في الدروس القادمة فلن نأتي على بعض الروايات، لأني أظنها غير صحيحة، والتي قد تُسيء فهمنا لما جرى بين أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة إسلام علي بن أبي طالب :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سيرة هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه وأرضاه، هذا الصحابي الجليل انضمَّ إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في السادسة من عمره، وحينما جاءت النبي صلى الله عليه وسلم رسالة الهدى، كان سن هذا الصحابي لا تزيد عن عشر سنين، إذن هو أصغر مَن أسلم، أول من أسلم السيدة خديجة رضي الله عنها زوجة النبي، وأسلم خادمه زيد بن حارثة أيضاً، هؤلاء الثلاثة أول من دخل في الإسلام، سيدنا علي أتى عليه وقتٌ كان ثُلث الإسلام وحده .

رأى النبي عليه الصلاة والسلام يصلي، فقال: ماذا أراك تصنع؟ فقال عليه الصلاة والسلام: " إني أصلي لرب العالمين " سأل عليٌ رضي الله عنه: ومن يكون رب العالمين ؟ بهذه البساطة، فقال عليه الصلاة والسلام: يا علي إنه إلهٌ واحد لا شريك له، له الخلق وبيده الأمر، يحيي ويميت، وهو على كل شيءٍ قدير " .

(ورد في الأثر)

أرأيتم إلى هذا التعريف؟ إنه إلهٌ واحد لا شريك له، له الخلق وبيده الأمر، يحيي ويميت وهو على كل شيءٍ قدير .

انظر إلى تطابق الفطرة مع علوم الوحي :

الأمس وقع تحت يدي كتابٌ في مكتبتي اسمه تاريخ الأديان فتحته لا على التعيين، فوقعت عيني على صفحة تذكر بعض الديانات التي كانت سائدة على عهد فرعون، شيء لا يصدق؛ فيه الخرافة، والأسطورة، والفكر غير المقبول، ثم فوجئتُ أن أحد الفراعنة كان مرهف الحس، وكان لبيباً فاستنبط أن لهذا الكون إلهاً واحداً، وأنه بيده الأمر، وهو إله الخير، يحب الخير لعباده، قرأت صفحات، قلت: سبحان الله، كيف توافقت تطابق الفطرة مع ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام؟ هذا الملك لم يأته وحيٌ ولم يستمع إلى نبي، ولم يقرأ كتاباً دينياً إلا أن فطرته وعقله هداه إلى التوحيد، وشيء ثابت في التاريخ أنّ أحد الفراعنة وَحَّدَ الله عزَّ وجل، ودعا إلى جوهر ما جاءت به الرسالات السماوية، إذًا: يجب أن يطابق النقلُ العقلَ، ويجب أن يطابق الفطرة ، ويجب أن يطابق الواقع .

نشأة علي بن أبي طالب :

هذا الصحابي الجليل، وهو ابن عم النبي الذي انضم إلى بيت النبي، وهو في السادسة من عمره، وحينما جاءت رسالة السماء كان أولَ مَن أسلم مِن الفتيان، وقد تأدَّب بأدب النبي، لذلك شتان بين مَن يسلم وهو في سنٍ متقدم، وبين من يصطلح مع الله عزَّ وجل وهو في سنٍ متأخر، أخطر شيء في الإنسان أن يشبّ على شيءٍ لا يرضِي الله، في الحياة حالة اسمها التكلّس العقلي أو التصلب، والإنسان أحياناً بعد سن معينة لا يمكن أن يقبل شيئاً جديداً، ولا يستطيع أن يغيِّر من عادته التي ألِفها في شبابه، فالبطولة إذن أن تكون وأنت شاب على الحق، فإذا أصاب هذا الإنسانَ ما يصيب الناس عادةً من تصلبٍ ومن تحجُّر، فإذا كان التصلب على الحق فهذا شيء رائع جداً، وما أغبطُ إنساناً كما أغبط شاباً نشأ على طاعة الله، لأن هذا الشاب الذي نشأ في طاعة الله، سوف يحسن اختيار زوجته، واختيار عمله، وجميعَ أساليب حياته، وطرائق إملاء وقت فراغه، ونمط علاقاته الاجتماعية، وهذا الذي عرف الله في سنٍّ مبكرة سوف ينشأ على مفاهيم ومدارك مطابقةٍ للإسلام الصحيح .

لا شك أنكم تعلمون أن

السيدة عائشة لما سألها ابْنٌ عَبَّاسٍ قالَ، قُلْتُ: " يَا أَمَّ الْمُؤْمِنِينَ حَدِّثِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَتْ أَلَسْتَ تَقْرَأَ الْقُرْآنَ فَإِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ " .

(أخرجه أبو داود في سننه)

وبعضهم يقول: **" إذا كان الكون قرآناً صامتاً، وإذا كان القرآن كوناً ناطقاً، فالنبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي " .**

فهذا الصحابي الجليل إن صح التعبير هو ربيب القرآن، القرآن الكريم رباه منذ نشأته وحتى نهاية حياته، حينما انضم إلى النبي ونزلت أول آيةٍ كان في بيت النبوة، لذلك سمي عند علماء السيرة بحقٍ ربيب القرآن، مرةً قال: " سلوني وسلوني وسلوني عن كتاب الله ما شئتم، فو الله ما من آيةٍ من آياته إلا وأنا أعلم متى أنزلت في ليلٍ أو في نهار، وفيما نزلت، ولم نزلت؟ " أي ما أسباب نزولها؟ وما ملابسات نزولها؟ ومن تعني؟ وما تعني ؟ .

إليكم هذه البشارة من رسول الله عليه الصلاة والسلام :

الإمام الحسن البصري رضي الله عنه وصف الإمام علي كرم الله وجهه، قال: " أعطى القرآن عزائمه وعلمه وعمله "، أي إن عزيمته قرآنية، وعلمه قرآني، وعمله قرآني، وهو الكتاب الوحيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكتاب الوحيد الذي لا فقر بعده، ولا غنى دونه، من أوتي

القرآن فرأى أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقَّر ما عظَّمه الله، ولكم بشارةٌ يا من تقرؤون القرآن، ويا مَن تحفظون القرآن من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

" من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت " .

(ورد في الأثر)

مِن مراحل الإنسان مرحلة أرذل العمر، هذه الصفة التي لا تحتمل، ضعفٌ في التفكير، ذاكرة تكاد أن تمحى، نفسية حشرية، كل من حول الإنسان يكرهونه، هذه المرحلة التي سماها القرآن أرذل العمر:

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

(سورة الحج الآية : 5)

هذه المرحلة التي لا يتمناها الإنسان لعدوه، النبي عليه الصلاة والسلام بشَّر المؤمنين الذين يتلون كتاب الله عزَّ وجل ويتدارسونه ويحفظونه، بأنهم لن يردوا إلى أرذل العمر .

شدة تأثر علي بالقرآن :

مرة ذكرت لكم، إن سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام لما واجه أخوته، ماذا قال لهم:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

(سورة يوسف الآية : 100)

ولم يقل: إذ أخرجني من الجُبِّ، أليس هذا أدباً رفيعاً؟ لأنه لو قال: إذ أخرجني من الجُبِّ، لذكَّرهم بجريمتهم .

مرةً كان هذا الصحابي الجليل يقرأ القرآن، فلما وصل إلى قوله تعالى:

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية الآية : 6)

صار يقول: " فبأي حديث، فبأي حديث، لا بحديثٍ غير حديثك نؤمن يا رب كل شيء"، المؤمن الصادق إذا تلا كتاب الله يتفاعل معه، تسمو نفسه، كان عليه الصلاة والسلام يمضي الليل كله في آيةٍ واحدة، فيطرب إليها أشدَّ الطرب، فكل إنسان لا يتفاعل مع كلام الله عزَّ وجل فهذا الإنسان مشكوك في قوة إيمانه، لا أقول: مشكوك في إيمانه، بل بقوة إيمانه، لأن الله عزَّ وجل، يقول:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

(سورة الأنفال الآية : 2)

المزية لا تعني الأفضلية :

لهذا الصحابي الجليل مزية انفرد بها، لكن قبل أن تسبق أفكاركم إلى الموازنة بين سيدنا علي كرم الله وجهه وبين سيدنا الصديق، نذكّر أن العلماء، قالوا : " المزية لا تعني الأفضلية " .

النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن تمت هجرته إلى المدينة، آخى بين المهاجرين والأنصار، وكلكم يعلم أن الأنصار عرضوا على المهاجرين نصف أموالهم، ونصف بساتينهم، ونصف بيوتهم، لكن الشيء الذي لا يصدق أن التاريخ الإسلامي، بل تاريخ صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يسجِّل أن صحابياً مهاجراً أخذ من أنصاريٍ شيئاً، رغم أن العرض صادق، شيء يأخذ بالألباب الأنصار في أعلى درجات التضحية والبذل والسخاء، قال تعالى:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

(سورة الحشر الآية : 9)

والمهاجرون في أدنى درجات الفقر، لكنهم في أعلى درجات التعفف، وثمّة موقف سجله التاريخ لسيدنا سعد بن الربيع، فقد عرض على سيدنا عبد الرحمن بن عوف نصف بستانه، ونصف أملاكه، فقال هذا الصحابي الجليل: " بارك الله لك في مالك، ولكن دُلني على السوق "، ما فتح أحداً على نفسه باب مسألةٍ إلا فتح الله عليه باب فقرٍ، قال الشاعر:

ملك الملوك إذا وهب قم فاسألن عن السبب

الله يعطي من يشـاء فقف على حدِّ الأدب

قال العلماء: لما تمَّت هجرة النبي عليه الصلاة والسلام آخى بين المهاجرين والأنصار ، وجعل لكل أنصاريٍ أخاً من المهاجرين، حتى إذا فرغ عليه الصلاة والسلام مِن دمجهم في هذا الإخاء العظيم رنا بصره تلقاء شابٍ عالي الجبهة، ريَّان النفس، مشرق الدين، وأشار النبي لهذا الشاب أن أقبل، فأقبل عليه، أجلس النبي علياً إلى جواره وربت على كتفه وضمَّه إليه، وهو يقول:

" وهذا أخي " .

(ورد في الأثر)

هذه مزية، لكن لا يذهبن بكم الظن إلى أن هذه المزية تقتضي الأفضلية، فأصحاب النبي كالنجوم، كل واحد له مزية، وكل واحد له شيء تميَّز به عن سواه .

انظر إلى هذه الشخصية الفريدة لم تجد فيها ازدواجية :

حينما كنا في الجامعة علمونا أن أفصح كلامٍ بعد كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإطلاق هو كلام الإمام علي، والحقيقة كتاب نهج البلاغة، وإن كان فيه نصوصٌ كثيرةٌ منحولة ليستْ للإمام عليّ كرَّم الله وجهه، ورغم ذلك لا يمنعنا هذا أن نطالعه، فهو أعلى درجة من درجات الفصاحة والبلاغة مع المضمون الذي يُعَد، كما قال عليه الصلاة والسلام:

" أنا مدينة العلم وعليٌ بابها " .

(ورد في الأثر)

نهج البلاغة مدروس دراسة وافية، وله فهارس كثيرة جداً، وفيه أقوال لسيدنا علي وخطب، ورسائل بعث بها إلى ولاته، وأجمل ما في هذا الكتاب أقواله المأثورة، فهي حِكَمٌ من أعلى الدرجات، فمن أقواله المشهورة: " يا دنيا إليك عني، طلقتك بالثلاث، غُرِّي غيري "، فإذا ضحكت الدنيا على آلاف الآلاف من عباقرة الدنيا فإنَّ هذا الإمام العظيم ضحك على الدنيا، ولم تضحك عليه الدنيا، " يا دنيا غري غيري طلقتك بالثلاث، أمدك قصير وشأنك حقير، آهٍ من قلّة الزاد، وبُعْدِ الطريق " .

يقول علماء السيرة عن هذا الإمام الجليل: " لم يكن بين ما يقول وبين ما يفعل بُعدٌ ولا مسافة ولا فراغ"، وهذا يعني أن أعظم ما في شخصية الإنسان التطابقُ التامُّ، من البساطة والسهولة أن تتحدث بالكلام اللطيف الطيب، قضية سهلة لا تكلف شيئاً، أي أن ينطلق لسانك بكلامٍ موزونٍ منمَّقٍ عميقٍ، هذا الشيء لا يكلف إلا أن تقرأ وأن تتابع، لكن بطولتك أن لا تكون إلا بهذا التطابق الدقيق بين ما تقول وبين ما تفعل .

لذلك أيها الأخوة، المؤمنون يتفاضلون بشيءٍ واحد، هو مدى التطابق بين أقوالهم وأفعالهم، أمّا الأقوال فهي طيبة، فكل إنسان إذا قرأ وحفظ، وكان قويَّ البيان والحجة يتكلم، لكن مَن الذي يستحق أن يكون داعية إلى الله عزَّ وجل؟ هو الذي لا تجد مسافة بين سلوكه وبين أقواله

فهذه هي الميزة الأساسية في هذا الصحابي الجليل .

وقد صلى الفجر يوماً بأصحابه في الكوفة، وهو أمير المؤمنين، فلما فرغ من صلاته جلس ساهماً حزيناً، ولبث في مكانه ومجلسه، والناس من حوله يحترمون صمته، فلم يتحركوا حتى طلّعت الشمس، واستقر شعاعها العريض على حائط المسجد فنهض الإمام عليٌ رضي الله عنه، وصلى ركعتين، ثم هزّ رأسه في أسىً، وقال بعدَ أنْ قلّب يديه في أسًى وحزن: " والله لقد رأيت أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم فما أرى اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون وبين أعينهم آثار ليلٍ باتوا فيه سجداً لله، يتلون كتابه، ويتراوحون بين جباههم وأقدامهم، وإذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت

أعينهم حتى تبتل ثيابهم " هذا وصف أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقال أحد التابعين: " التقيت بأربعين من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، ما منهم واحدٌ إلا وهو يظن نفسه منافقاً ".

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ قال، قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ وَمَنْ آذَى اللَّهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ " .

(أخرجه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده)

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ قالَ، قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِذَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يَسُبُّونَ أَصْحَابِي فَقُولُوا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى شَرِّكُمْ " .

(أخرجه الترمذي عن ابن عمر في سننه)

إذا وقعت في مطب عند دراسة تاريخ المسلمين ، كيف تنجو ؟

أيها الأخوة، التاريخ الإسلامي لم يتوافر له علماء محقّقون، ممحصون، محصوا رواياته ، واختاروا منها الصحيح، ونبذوا المزيف، هذه مشكلة، التاريخ الإسلامي لم يتوافر له ما توافر لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن علماء مدققين باحثين متشددين، لذلك في التاريخ الإسلامي شيءٌ صحيح، وشيءٌ غير صحيح، أنت كمسلم لا ينبغي أن تجر الماضي إلى الحاضر لأسبابٍ كثيرة، أحد هذه الأسباب أن هذه المشكلة ربما لم تقع أصلاً، وربما أُدخلت تزويراً، وربما وقعت، ولكن في حدود ضيقة جداً، لكن الشعوبيين أعداء الدين بالغوا فيها، وعلى كلٍ ولو وقعت بحجمها الذي قرأته، فماذا يعنينا منها؟ الذي يعدُّ عبئاً يثقلنا، ويثبطنا، ويجعلنا نضطرب، فينبغي أن ننبذها، وألا نقرأها، وألا نعنى بها، لأن الله عزَّ وجل، يقول:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة الآية : 134)

فكثيرٌ مِن الباحثين غير المنصفين عَمَدوا لكل شخصية إسلامية قديمة فكفّروها، ومنهم من بوَّأها أعلى الدرجات، يا ترى هذا الذي كفّرها، هل يخفض مقامها عند الله؟ لا والله، والذي جعلَها في أعلى درجة، هل يرفعها؟ لا والله، فكل إنسان احتل عند الله مقامًا بحسب معرفته بالله، فهذا المقام لا تهزُّه أقوالُ الناس لا مدحًا ولا ذمًّا، وأروعُ آية تتعلق بالتاريخ، قوله سبحانه وتعالى :

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة الآية : 134)

و ينبغي أن ننصرف إلى التاريخ الذي يعدُّ حافزاً لنا، وإذا قرأت حادثة، وتأثرتَ بها أشد التأثُّر، ودفعتك إلى البطولة فهذا هو التاريخ الحافز الذي نحن في أشد الحاجة إليه .

أحد أخواننا المختصين بالتاريخ التقيت به مرة، قال لي: يا أستاذ، هل تصدق أن قصة بحيرة الراهب الذي التقى به النبي عليه الصلاة والسلام في بُصرى حينما كان طفلاً صغيراً، هذه القصة لا أصل لها من الصحة، جملة وتفصيلاً؟ وهو في صدد نشر كتابٍ حولها، وإذا وقعتْ في حجمها الذي قرأته، فخذ منها موقفًا يتناسب مع قول الله تعالى:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة الآية : 134)

هذا الموقف مريح جداً، فقد ضربتُ مثلاً ذات مرة، وهو أنك متجه نحو مدينة في الشمال، ولك في هذه المدينة مبلغ ضخم لتقبضه، والوقت محدد، كأنْ تقبض من حلب مليون ليرة من الساعة الثانية عشر إلى الواحدة، فإذا تأخَّرت عن هذا الموعد ضاع منك المبلغ، فوجدت خلفك مشكلة بين سيارتين، هل من العقل أن تقف وتتفرج، وأنت أمامك مبلغ كبير تنتظر أن تظفرَ به ؟

ما الذي فرق المسلمون ؟

أيها الأخوة، ما الذي فرَّق المسلمون؟ هذه المنازعات، ما الذي أضعفهم؟ هذه الخصومات، ما الذي ثبَّط عزائمهم؟ هذه المهاترات، لذلك ما من بلاءٍ ابتُلِيَ به المسلمون أشد من هذه الخلافات فيما بينهم، التي فتَّتتْ عزيمتهم، وأضعفت قوتهم، وجعلتهم ضعفاء، قال تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة الأنفال الآية : 46)

من خلال سفري الأخير وجدت الكفر في تلك البلاد قويًّا متفوقًا، والمسلمون إن لم يتَّحِدوا، وإن لم يتعاونوا، وإن لم يتفوقوا، فلا مكان لهم في العالم، فالقضية خطيرة جداً، يجب أن ننفتح على بعضنا، وأن نتعاون فيما اتفقنا عليه، وأن يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه .

مواعظ الإمام علي بن أبي طالب :

أيها الأخوة، دققوا في أقوال هذا الصحابي، يقول هذا الإمام الجليل: " تعلموا العلم تعرفوا به، واعملوا تكونوا مِن أهله "، هل لاحظتم الفرق الدقيق؟ إن عملتم بما علمتم فأنتم من أهل العلم، أما إن تعلمتم وتكلمتم فالأمر وبالٌ، " ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرةً، وإن الآخرة قد أتت مقبلةً، ولكل واحدةٍ منها بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا " .

هناك أشخاص يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، أما أمور الآخرة فلا يعلم عنها شيئاً، قال الإمام علي: " كونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا وإن الزاهدين في الدنيا قد اتخذوا الأرض بساطا،

والتراب فراشا، والماء طيِّبا، ألا وإن من اشتاق إلى الآخرة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومَن طلب الجنة سارع إلى الطاعات، ومَن زهد في الدنيا هانت عليه مصائبها، ألا وإن لله عُبَّاداً شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، أنفسهم عفيفة، حوائجهم خفيفة، صبروا أياماً قليلة لعقبى راحةٍ طويلة، إذا رأيتهم في الليل رأيتهم صافِّين أقدامهم، تجري دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى الله في فكاكِ رقابهم، وأما نهارهم فظماء حلماء، بررة، أتقياء، كأنهم القِداح ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى، وما بهم من مرضٍ، ولكن الأمر عظيم " .

هذه من أقوال سيدنا علي البليغة، وذات مرةٍ رأوه يرتدي ثوباً مرقَّعاً، فقال: " هذا الثوب يصرف عني الزهوة، ويساعدني على الخشوع في صلاتي، وهو قدوةٌ صالحةٌ للناس، كي لا يسرفوا ويتبذخوا، ثم تلا قوله تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص الآية : 83)

هناك تعليق على هذه القصة، ففي العهود الغابرة كان مقبولاً مِن المرءِ أن يكون في ثوبه رقعة، أمّا إذا أردنا أن نطبِّق هذا الكلام على أيامنا هذه فبعض الناس أحياناً يرتدي ثيابًا غالية ، ثيابًا ثمنها فوق دخل معظم الناس، فإذا ارتداها وزها بها، واختال بها على الناس فقد جانبَ سواء السبيل، أمّا إذا ارتدى الثياب المعقولة، فلا شيء عليك .

من مواعظه أيضاً لأهل الدنيا :

يقول هذا الإمام الجليل: " إن المضمار اليوم وغداً السباق "، الآن استعداد، كأيام الامتحانات، والامتحان هو الامتحان، وبعد الامتحان يُكرم المرء أو يهان، لذلك قال سيدنا علي: " الغنى والفقر بعد العرض على الله "، ما قيمة الحياة الدنيا كلها إذا قيست بالأبد؟ صفر، ما قيمة الستين عامًا نعيشها في الدنيا؟ ما قيمة ثمانين عامًا؟ ما قيمة مئتي عام؟ لا شيء أمام الأبد، فعندما يضحِّي الإنسان بالأبد أمام حياة قصيرة، يكون في عقله خلل، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

" أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً ".

(ورد في الأثر)

قال: " إن المضمار اليوم وغداً السباق، ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل"، كنت في سفري الأخير إلى تونس، وكنا ننتظر إقلاع الطائرة، فالبضاعة تنزل من الطائرة، ثم نزل صندوق مكتوب المرحوم فلان، أُنزل مع البضاعة، فهذا الإنسان كان شخصًا فأصبح بضاعة، أين وضعوه؟ مع الشحن في الطابق السفلي، وليس مع الركاب، والإنسان يا ترى حينما يتوقف قلبُه ما مصيره؟ يصير خبرًا، "

واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا" كنت في مدينة اسمها فاس، هذه عاصمة إسلامية في بلاد المغرب، أزقتها ضيِّقةٌ جداً، أعجبتني لوحة كتب فيها صلِّ قبل أن يُصَلَّى عليك، أي على المسلم العاقل أنْ يدخل المسجد ليصلي، فإن لم يدخله ليصليِّ، سوف يدخله مرةً ليصلَّى عليه، ثم قال: " فمن قصَّر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خاب عمله "، من قصَّر في أيام أمله، يعني قصَّر في معرفة الله في الدنيا، قصَّر في طاعته، قصَّر في العمل الصالح قبل حضور أجله فقد خاب عمله، " ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة "، معظم الناس عند الشدة يتضرعون، وفي الرخاء لا مشكلة في صحته أبداً، ولا في بيته، ولا في أولاده، ولا في دخله، ولا في عمله، فتجده كسولاً، لكن في الشدَّة: يا رب، يا رب، الأكمل والأجدى، أن تقول: يا رب، وأنت صحيح، أن تقول: يا رب، وأنت غني، أن تقول: يا رب، وأنت معافى، " ألا وإني لم أرَ كالجنة نام طالبُها، ولم أرَ كالنار نام هاربُها، ألا وإنّ مَن لم ينفعه الحقُّ ضرَّه الباطل "، ليس مِن إنسان حيادي تماماً، إذِ الجنة هنا، والنار هناك، والإنسانُ بينهما، فإذا ابتعد عن الجنة اقترب حُكماً من النار، والإنسان إذا لم يلتفت إلى الله عزَّ وجل سيلتفت إلى الدنيا، وإن لم يكن عبداً لله سيكون عبداً لعبدٍ لئيم، وإن لم يمتلئ قلبه بحب الحق امتلأ بحب الخلق، نفسك إنْ لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر، هذا كلام سيدنا علي.

علي طرد الدنيا من قلبه ولم ينسحب منها :

لكن قد تتوهمون أن هذا الإمام الجليل انسحب من الدنيا، وتركها لأهلها، ولم يعتنِ بها، وكأنه عاش على هامش الحياة، لا، فالدنيا خطيرةٌ جداً، وهي مزرعة الآخرة، وعن المستور رضي الله عنه، **قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فتذاكروا الدنيا والآخرة، فقال بعضهم: " إنما الدنيا بلاغ للآخرة، فيها العمل، وفيها الصلاة، وفيها الزكاة " .**

(أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه)

استمعوا بعنايةٍ فائقة إلى وصف هذا الإمام الجليل للدنيا، قال: الدنيا دار صدقٍ لمن صدقها، ودار نجاةٍ لمن فهم عنها، ودار غنىً وزادٍ لمن تزوَّد منها، مهبط وحي الله، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه ربحوا فيها الرحمة واكتسبوا فيها الجنة " فاستمعْ إلى الآية الكريمة تبيَّنْ معناها، فحينما يدخل أهل الإيمان الجنة، يقولون:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

(سورة الزمر الآية : 74)

لولا أننا كنا في الدنيا، وعرفنا الله في الدنيا، واستقمنا على أمره في الدنيا، وتقربنا إليه في الدنيا، وأقبلنا عليه في الدنيا، لما كنا الآن في الجنة، فإذا كان الطبيب لامعًا، ودخله كبيرًا، وكان أيام الدراسة

في الجامعة يمقتها، فلولا هذه الأيام لما كان في هذا المقام، ولولا ذلك الشقاء في نظر الكُسالى لما كان في هذه البحبوحة، قال تعالى:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

(سورة الزمر الآية : 74)

ومما ورد في بعض الأحاديث الشريفة، يقول عليه الصلاة والسلام:

" ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ".

(ورد في الأثر)

لا بد أن تكون على شيء، قيمة المرء ما يحسنه، لك اختصاص، لك مهنة، لك حرفة، متفوق في شيء، فهذا الشيء توظفه في سبيل الله، إن كان مالاً تنفقه في سبيل الله، وإنْ كان علمًا تنفقه في سبيل الله، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(سورة البقرة الآية : 3)

كيف وصف النبي علي ؟

وقد وصف النبي عليه الصلاة والسلام هذا الصحابي الجليل بأنه مخشوشن في سبيل الله،

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: " اشْتَكَى عَلِيًّا النَّاسُ قَالَ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا خَطِيبًا فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَشْكُوا عَلِيًّا فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَأُخَيْشِنٌ فِي ذَاتِ اللَّهِ أَوْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " .

(أخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري في مسنده)

هناك أناسٌ كثيرون مخشوشنون، ولكن ليس في سبيل الله، يقول لك: لا ليس عندي إمكانية، فهذا مخشوشن مقهور في سبيل الدنيا، لكن الصحابي الجليل سيدنا عليّ كان مخشوشناً في سبيل الله، فالإنسان قد يصبر، لكن ليس في سبيل الله، بل يكون مقهورًا ضعيفًا، قهرته الدنيا، وانحنى ظهرُه، لكن اللهَ تعالى يقول:

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)

(سورة المدثر الآية: 7)

تجد شخصًا بإمكانه أن يحطِّم خصمه لكنه يصبر لله عزَّ وجل، ويكظم غيظه، فهذا صبرٌ في سبيل الله .

مرة سيدنا علي قَدِمَ مكة من اليمن ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحجُّ بها حجَّة الوداع، تعجل هو إلى لقاء النبي تاركاً جنوده الذين عادوا معه على مشارف مكة بعد أن أمَّر عليهم أحدهم، بدا لهذا الأمير المستخلف أن يلبس الجند حللاً زاهيةً من تلك التي عادوا بها من اليمن، كي يدخلوا مكة وهم في زينتهم، يسرُّ منظرَهم الأعينُ، وأمرَهم فأخرَجوا من أوعيتهم حللاً جديدة ارتدَوْها، ثم استأنفوا سيرهم

إلى مكة، وعاد الإمام الجليل بعد لقاء النبي ليصحب جنده القادمين، وعلى أبواب مكة رآهم في هذه الحلل، وأسرع نحوهم، وسأل أميرهم: " ويلك ما هذا؟ قال: لقد كسوتَ الجند ليتجمَّلوا إذا قدموا على أخوانهم في مكة، وصاح به الإمام علي، ويلك انزعْ قبل أن تنتهي بهم إلى النبي، فخلعوا حللهم جميعاً وكظموا في أنفسهم مرارةً من عليّ الورع الزاهد الأوَّاب ، ولما دخلوا مكة والتقوا بالنبي عليه الصلاة والسلام شكوه إليه،

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: اشْتَكَى عَلِيًّا النَّاسُ، قَالَ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا خَطِيبًا فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: " أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَشْكُوا عَلِيًّا فَوَ اللَّهِ إِنَّهُ لَأَخْيَشِنٌ فِي ذَاتِ اللَّهِ أَوْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ "

(أخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري في مسنده)

أي أنه قدَّر فيه هذه الخشونة، وقدَّر فيه حفاظه على هذه الغنائم التي غنموها .

مزايا النصيحة :

ذات مرة نصحه أحدهم، وقال: " يا إمام خادِعْهم فإن الحرب خدعة، فقال: لا والله لا أبيع ديني بدنياهم أبداً "، وكان يقول في بعض أقواله: " بئس النصر الذي يكون فيه المنتصر شراً من المنهزم "، أحياناً أنت تنتصر بالخديعة، لكن هذا النصر ليس وسامَ شرفٍ لك، ومن أقواله الرائعة، يقول: " عباد الله أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباده "، وسورة العصر تقرؤونها جميعاً، وفي الآية الثالثة منها:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

(سورة العصر الآية : 3)

ماذا تستفيدون من صيغة تواصوا؟ المشاركة أي أن التواصي بالحق له معنيان: أن توصي أخاك بالحق، ويا أيها الذي نصحك أخوك أن اقبلْ نصيحته، فإسداء النصيحة، وقبولها أمران ضروريان متلازمان، فالتواصي جاء في هذه الكلمة بصيغة المفاعلة، لتدل على أن فضيلة هذه الآية ينالها رجلان، ينالها مَن أوصى بالحق، وينالها من قبل هذه الوصية، فاستجاب لها، قال : " إنها خير ما تواصى به عباده وأقرب الأعمال لرضوانه " والدليل قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

(سورة الحجرات الآية : 13)

المقام الذي يرفع الإنسان عند الله العمل الصالح :

والله عزّ وجل ينبئنا في آية أخرى، أن المقياس الوحيد الذي يقيس به عباده هي طاعته، قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

(سورة الحجرات الآية : 13)

أين النسب؟ أين الوسامة؟ أين الذكاء؟ أين الغنى؟ أين الصحة؟ أين الزوجة؟ أين الأولاد؟ كلُّ هذه القيم التي يعتمدها الناس في التفاضل بين الناس لا أصل لها في القرآن الكريم، قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

(سورة الحجرات الآية : 13)

أيْ أنت مخلوق، وعلة وجودك في الدنيا أن تكون محسناً، كي يكون هذا الإحسان ثمناً للجنة، في الأصل أنت خُلِقْتَ للجنة، والجنة لها ثمن، وثمنها الإحسان، فهل عندكم دليل؟ نعم في القرآن يؤكد هذا المعنى، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة المؤمنون الآية : 99-100)

على ماذا يندم الذي يأتيه ملك الموت؟ على الشيء الأساسي في الدنيا، هل سمعتَ عن رجلٍ جاءه ملك الموت، وهو تاجر، ويقول: يا رب اتركني قليلاً حتى أفرغ من عملي؟ بل يقول:

(لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون الآية : 100)

إذًا: الدنيا كلها من أجل العمل الصالح، والعلماء فسروا العمل الصالح، ما تصلح به الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة الآية : 2)

البر صلاح الدنيا، والتقوى صلاح الآخرة، يصلح به الفرد والمجتمع، فربنا عزّ وجل قرن العملَ الصالح في القرآن الكريم مع الإيمان في سبعين آية .

الترغيب والترهيب اللذان اعتمد هذا الصحابي الجليل عليهما في هذه النصيحة :

قال الإمام علي: " فاحذروا من الله ما حذّركم من نفسه، فإنه حذّر فبأسه شديد، واعملوا من غير رياءٍ ولا سمعة، فإن مَن عمل لغير الله وكّله الله إلى ما عمل، ومَن عمل مخلصاً له تولاّه الله، أعطاه فضل نيته، أشفقوا من عذاب الله فإنه لن يخلقكم عبثاً، ولم يترك شيئاً من أمركم سدى، وقد سمَّى آثاركم، وعلم أسراركم، وأحصى أعمالكم ، وكتب آجالكم، فلا تغرنكم الدنيا، فإنها غرارةٌ لأهلها، والمغرور مَن اغتر بها " .

فإنسان أنشأ دورَ اللهو، فيها كل الموبقات، وما إن افتُتِحتْ حتى جاء أجله بعد أسبوعين ، وانقضت حياته، وأصبح رهن عمله السيء، وكل ما يجري في هذه الدور من موبقات إلى يوم القيامة في صحيفة أعماله السيئة، لذلك أخطر عملٍ هو العمل الذي تتجدد آثامه بعد موت صاحبه، واعظم عملٍ هو العمل الذي تتجدد خيراته بعد موت صاحبه، يقول هذا الإمام الكريم: " ألا إنكم ملاقو القوم غداً فأطيلوا الليل، وأكثروا تلاوة القرآن، وسَلُوا الله الصبر والعفو والعافية "، والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا حزبه أمرٌ بادر إلى الصلاة، وكل واحد منا إذا أقدم على عمل خطير ، على عمل مصيري، فليكثِرْ من ذكر الله والصلاة، وعليه أن يسارع إلى الصلاة كي يتولاه الله عزّ وجل .

قيد الإيمان الفتك لا يفتك مؤمن :

قال بعض كتاب السيرة: " لو شاء هذا الإمام الجليل لكان داهيةً لا يشقُّ له غبار" فالإنسان قد يؤتيه الله عقلاً راجحًا، والعقل الراجح المتألق يعينه على أن يكون داهيةً، وقال أحد محللي سيرة عن سيدنا علي: " لو شاء هذا الإمام الجليل لكان داهيةً لا يشقُّ له غبار، فحدة ذكائه واتقاد بصيرته يعطيانه من الدهاء ما يريد، ولكن تخلَّى عن كل مواهب الرجل الداهية، وأحل مكانها مواهب الرجل الورع " .

ألا تجد مؤمن ذكيًا جداً يقدر أن يخرب بلد، لكن ما الذي يمنعه؟ إيمانه، الإيمان قيد، فالإيمان قيَّدَ الإنسان عن كثيرٍ من هوى نفسه، وقد ترى إنسانًا من أهل الفساد والضلال والدنيا وصل إلى مكان عالي جداً عن طريق اتِّقاد ذكائه، واحتياله، ودهائه، ودخوله، وخروجه، وأساليبه، ومجاملاته، والمؤمن قد يكون أذكى منه، ولو سلك سبيله، أو تقمص سريرته، لكان أعلى منه، لكن المؤمن إذا كان موقعُه أقلَّ من أهل الدنيا فليس لأنه أقل ذكاءً منهم، لا، بل أكثر ورعاً .

أحياناً الإنسان يسترضي شخصًا عظيمًا بزوجته في سهرة، لكن المؤمن يقف عند مليون قيد وقيد، فلا تسمح له قيمُه ولا مبادئه ولا أهدافه النبيلة أن يفرِّط قِيدَ أنملة بمقدساته، مرة أحد أخواننا المحامين حدثني بحديث ترك في نفسي أثراً بالغًا، قال لي: جاءني رجل يريد أنْ يوكّل محاميًا، وله قضية وصدر قانون عفوي، فقلتُ له مخلِّصاً: يا أخي قضيتك لا تحتاج إلى محامي، اذهب إلى القاضي وقدِّم استدعاءً، وينالك العفو من دون أي شيء، فذهب هذا الرجل نفسُه إلى محامٍ آخر، وقال له: هذا الأول لا يفهم شيئاً، أوهمه أنه أمامَ مشكلة كبيرة خطيرة، فدفع له أول دفعة عشرين ألف ليرة، فقلت له: واللهِ هذا وسامُ شرفٍ لك، فالثاني ذكيٌّ، أوهم هذا الموكل أن الأمر خطير، وقد يتعرَّض إلى سجن وغرر به، لكن الأول هل كان أقلَّ ذكاءً منه؟ لا والله، فما الذي قيده؟ دينه .

فأحياناً يا أخوان، إذا فاتك مكسب في الدنيا كبير لأنك ورع، فَفَوْتُ هذا الشيء وسامُ شرفٍ لك، وأهل الدنيا وإن تفوقوا في دنياهم بطرقٍ ملتويةٍ وبأساليب لا ترضي الله عزَّ وجل، فتفوُّقهم في دنياهم وصمةُ عارٍ لهم، أرجو أن أكون قد وفّيت هذه النقطة حقها .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عامة :

أيها الأخوة، مع الدرس الثالث من سيرة الصحابي الجليل علي بن أبي طالب، وقد بينت لكم أن الخلفاء الراشدين هؤلاء قممٌ شامخة من الصحابة الكرام،

فعَنْ عِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْفَجْرِ ثُمَّ وَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا فَقَالَ :" أوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسَنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَالْمُحْدَثَاتِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةَ "

(أخرجه أبو داود في سننه)

إذًا: فهؤلاء الصحابة الأربعة الذين ذكرهم النبي عليه الصلاة والسلام يمكن أن نقتدي بهم في كل أفعالهم وأقوالهم .

ماذا تعني كلمة رجل في القرآن ؟

تحدثنا عن سيدنا علي بن أبي طالب في الدرس الماضي من زاوية علمه ونشأته، واليوم نتحدث عنه من زاوية رجولته وبطولته، ولا تنسوا أن كلمة رجل في القرآن الكريم في أكثر الآيات لا تعني أنه ذكر بل تعني أنه بطل، قال تعالى:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

(سورة النور الآية : 37)

أي إنهم أبطال، وسيدنا سعد يقول: " ثلاثة أنا فيهن رجل وفيما سوى ذلك فأنا واحدٌ من الناس "، وقد اشتقت من كلمة رجل الرجولة، والرجولة هي البطولة .

براعة النبي في تأسيس الصحابة على المبدأ لا على الأشخاص :

فهذا الصحابي الجليل لمّا نزل على النبي صلى الله عليه وسلم قرآن كريم بآية جديدة، و هي قوله تعالى:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

(سورة آل عمران الآية : 144)

فهذه الآية أحدثت في نفس الصحابة الكرام ردَّ فعل قوي، وظن بعضهم أنها تنعي النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك صاح عليُّ بن أبي طالب: " والله لا ننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله، ولئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت " .

ماذا نستنبط من هذا الكلام؟ نستنبط من هذا الكلام أن النبي عليه الصلاة والسلام بث في أصحابه مبدأً ثابتاً، وكان تركيز النبي على المبدأ لا على شخصه، قال تعالى:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

(سورة آل عمران الآية : 144)

لا تنسوا أن لدينا آياتٍ وأحداثًا أتلوها على مسامعكم، وقد تقولون نعرفها، إذْ ليس قصدي من هذه الدروس أن آتيكم بجديدِ أحداثِ السيرة، لا، لأن السيرة سيرة أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام مغلقة وليست مفتوحة، بمعنى أن هناك أحداث وقعت وسجلها التاريخ، وأن هناك أقوال قيلت وسجلها التاريخ، ولكن ما دور الذي يدرس السيرة في آخر الزمان؟ الدور الحقيقي هو التحليل كي نستنبط من أقوال الصحابة، ومن مواقفهم الحقائق والدروس والعبر التي تعيننا على التحرُّك في عصرنا فالنبي عليه الصلاة والسلام مثلاً هذا هو الإنسان الأول، وهو الذي جعله الله سيد الأولين والآخرين، هذا الذي جعله الله سيد الأنبياء والمرسلين، هذا المعصوم، هذا الذي يوحَى إليه، هذا الذي أول خلق الله قاطبة، حينما مات ماذا قال سيدنا الصديق؟ أنا أعتقد أنه ما من رجلين على وجه الأرض يحبّان بعضهما بعضاً كالنبي عليه الصلاة والسلام وسيدنا الصديق، فلما مات النبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال سيدنا الصديق؟ قال: " من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌ لا يموت "، إذاً: ديننا دين مبادئ فقط، قال تعالى:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرين)

(سورة آل عمران الآية : 144)

التلاعب بالمبدأ هو السبب في التمزق والخلاف بين أفراد المسلمين

هناك آية قرآنية في سورة الروم:

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فرحون)

(سورة الروم الآية: 31-32)

عندما تكون الدعوة إلى الذات، ومغلفة بغلاف ديني رقيق يتجمَّع عندنا مجموعة ذوات، ومجموعة أديان ، فإذا دعا الإنسان إلى ذاته فقد فرَّق دين الله عزّ وجل، وصار دين الله شيعاً، ووقعت الخلافات، والمهاترات والطعن، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة الأنعام الآية : 159)

نحن ديننا هو الإسلام، وعندنا مجتمع المؤمنين، وأنت واحدٌ من هذا المجتمع، فإذا ركَّزت على شخصك، وكفَّرت مَن حولك فقد جعلت دين الله شيعاً، وقد مزقت المسلمين شر ممزق .

الولاء لله ولرسوله :

هنا سؤال يَطرح نفسَه: لِمَ لمْ يقل هذا الإمام الكبير؟ واللهِ لئن مات أو قتل لأسيرن على منهجه، واللهِ لئن مات أو قتل لأستمسكنّ بسنته؟ بل قال: " والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت" الحقيقة أن بذل النفس أقصى غاية الجود، أي أن أعلى درجة من درجات التمسك بالدين، وأعلى درجة من درجات الإيمان، وأعلى درجة من درجات الإخلاص أن تقدم نفسك التي بين جنبيك لتحقيق مبدئك وهدفك .

فماذا نستنبط من هذا الموقف؟ نستنبط أنه ينبغي أن تتعلق بالله عزّ وجل، وأن تتعلق برسوله المعصوم، وأن تتعلق بصحابته الذين رضي الله عنهم، وأن تخلص في تعلقك هذا، وأن تنتمي إلى مجموع المؤمنين، وأن تكون رجل مبدأ لا رجل أشخاص، لأن الأشخاص يأتون ويذهبون، ويرتفعون ويسقطون، وينضبطون وقد لا ينضبطون، فالنقطة الدقيقة في قول سيدنا الصديق: " من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت " وأنا أعتقد أن قلبه كان يتفطَّر حزناً على وفاة النبي، ومع ذلك فقد فَصَلَ بين الدين الذي هو مبدأ ثابت، وبين مشاعره الشخصية تجاه النبي عليه الصلاة والسلام .

فأنت أيها المؤمن حينما تعرفت إلى الله، وعاهدته على الطاعة، وأخلصت له، سلوكك واستقامتك مع وجود من يعلّمك، أو مِن دون وجوده، مع وجود أخوانك المؤمنين أو في غيبتهم، مع وجودك في بلدك، أو كنت مسافرًا فأنت أنت، فإذا كنت رجل مبدأ لا يتغير سلوكك، هذا هو الإخلاص في عدم التغيّر، وفي التثبُّت على المبدأ .

انظر إلى أخلاق علي مع خصمه أثناء ساحة الوغى :

في غزوة أُحد يخرج من صفوف المشركين أحد مبارزيهم الأشداء، هو أبو سعد بن أبي طلحة، وينادي علياً ليبارزه، فيخرج عليٌ إليه، ويلتقيان في مبارزةٍ ضاريةٍ حامية، ويتمكن سيف عليٍ رضي الله عنه بضربةٍ تطرحه أرضاً، وهو يتلوى من الألم، وبينما يتهيأ عليٌ كرم الله وجهه ليجهز عليه بضربةٍ قاضية ينحسر جلباب الرجل فتنكشف عورته، فيغمض عليٌ عينيه، ويغضُّ بصره، ويثني إليه سيفه، ويعود إلى مكانه من الصف .

أنتم دائماً، تقولون: الإمام علي كرم الله وجهه، يؤثر عن هذا الإمام العظيم أنه ما رأى عورةً قط، فهذه العين لها عبادة، ومن عبادتها أن تنظر في آيات الله، وأن تغض البصر عن عورات المسلمين، ومن علامة المؤمن أنْ يغضُّ بصره عن النساء، لا يمشي وراء امرأة، ولا يصعد الدرج وراء امرأة، فهو دائماً عفيفٌ في بصره، فكان سيدنا علي كرم الله وجهه عفيفًا، حتى أن التاريخ يروي أن أحد المقاتلين، وهو يبارز سيدنا عليًّا شعر أنه ميتٌ لا محالة، فكشف عن عورته، فانصرف عنه سيدنا علي، فقال أحد الشعراء:

لا خير في ردّ الردى بمذلّةٍ   كما ردّها يوماً بسوأته عمرو

أي أنه رد الموت عنه حينما كشف عن عورته، يقول أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن صافح النبيَّ بيده اليمنى: " واللهِ هذه اليد بعد أن صافحت يد النبي ما مسَّت عورتي إطلاقاً " ما هذا الحب؟ ما هذا التعظيم؟ ما هذا الولاء؟ صافحت يده يدَ النبي، إذًا: هذه اليد يجب أن تكون مقدسة طوال حياته، والحقيقة أنّ القتال مشروع، ولكنْ له آداب، وله مكارم أخلاق، فسيدنا علي ما كان يقبل أن ينتصر في مبارزة إلا إذا توافر مع المبارزة صفات البطولة والمروءة والشهامة والعفة .

إنّ براعة سيدنا عليّ في القتال كانت تزلزل خصومه خوفاً وفرقاً وهلعاً، لكن خصلة شرف المقاتل في سيدنا علي كانت تملأ نفوس خصمه طمأنينة وأمناً، لأنه لا يغدر أبداً، ولا يقسو، ولا يمثّل، فقتاله قتال شريف .

علي يقتدي بالقرآن :

وفي أثناءِ قتاله مع بعض خصومه يومًا قام أحد من رجاله فشتم خصمه، فنهاه سيدنا علي نهياً شديداً، وقال: " يا أمير المؤمنين ألسنا على حق وهم على باطل؟ فقال الإمام علي: بلى ورب الكعبة، قال: فلمَ تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟ قال الإمام علي: كرهتُ لكم أنم تكونوا شتَّامين لعاّنين، ولكن قولوا: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، و اهدهم من ضلالتهم حتى يعرفَ الحقَّ من جهله، ويرعوي عن الغي من لجَّ به " والقرآن الكريم هكذا يقول:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت الآية : 34)

أحياناً بعض الناس قد يقرأ القرآن من غير تدقيق، يقول الله عزّ وجل:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة فصلت الآية : 34)

كلمة (أحسن) ما وزنها الصرفي؟ أفعَل، ما نوع اشتقاقها؟ اسم تفضيل، معنى (أحسن) أي في تعاملك مع خصمك ألف سلوك حسن، فيجب أن تختار الأحسن، قال تعالى:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

(سورة فصلت الآية : 34- 35)

ذكرهم بأيام الله :

حياة الإنسان هي مجموعة مواقف، قد تقول: أنا في حياتي عملت كذا، وتعففت عن كذا، وعاونت فلانًا، وبذلت، وضحيت، معنى ذلك أن الإنسان حجمه عند الله من حجم مواقفه، والإنسان له مع الله أيام، ولله معه أيام، وأيام الله عزّ وجل هي الأيام المباركة التي أكرم الله بها عباده، أو أكرم بها عبداً معيناً، فربما وقعتَ مرة في ضائقة شديدة، فقلتَ: يا رب، فرأيت أن الأمور انفرجت، هذا يومٌ من أيـام الله، أو عانيتَ من مرض عضال، فدعوت الله مخلصاً فشفاك الله بقدرةٍ منه، فهذا يومٌ من أيام الله، أو وقعتَ في أشدِّ حالات الفقر، فسألت الله عزّ وجل بإخلاصٍ وصدق فأغناك الله، فهذا يومٌ من أيام الله، ربنا عزّ وجل، قال:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

(سورة إبراهيم الآية : 5)

فالإنسان عندما تفتر نفسه، وعندما يشعر أن في طاعته لربه تقصيرًا، فأصبحت صلاتُه جوفاء، فماذا يفعل؟ يتذكر أيام الله، اليوم الفلاني أكرمه الله عزّ وجل، واليوم الفلاني أنقذه الله عزّ وجل، واليوم الفلاني حفظه الله عزّ وجل، واليوم الفلاني أعانه عزّ وجل، قال تعالى:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

(سورة إبراهيم الآية : 5)

حدثني رجل متقدم في السن، وهو والد صديق من أصدقائي، عمره ستة وتسعون عاماً، فزرته مرة، وقال لي: الحمد لله أجرينا تحليلاً، وكانت النتيجة سليمة في كل مراحل التحليل، ثم قال لي: واللهِ ما عرفتُ الحرام في حياتي، وكان تاجرًا من تجَّار الغنم، وقال أيضًا: مرة كنا في الصحراء، وضللنا الطريق، وأشرفنا على الموت عطشاً، صلى وسجد، وقال: يا رب أنا قبل عامين عَرَضتْ لي امرأةٌ في البادية ذات جمال، فقلت: إني أخافكَ يا رب، فإنْ كنتَ تعلمُ أنني تعففت عنها خوفاً منك فأنقِذْنا الآن، فلم نلبث أنْ أدركَتنا رحمةُ الله عن قريب، فنجونا .

وهذا توجيه لطيف جداً، أنت عليك أن تذكر أيام الله ، وعليك أن تُذَكّر نفسك بمواقفك مع الله، كي ترتفع معنوياتك، وقد ورد في السنن وفي الأحاديث الصحاح أن الإنسان إذا وقع في ضائقة فليسأل الله عزّ وجل بصالح عمله، كيف أن الله سبحانه وتعالى أسمعك الحق؟ كيف أن الله سبحانه وتعالى أكرمك؟ فيسَّر لك مأوى تأوي إليه، ويسّر لك امرأةً تحصنك، ووهبك أولاداً صُلحاء، فذكّرْ نفسك بهذه النعم التي أكرمك الله بها، حتى تعرف فضلَه عليك فتشكره، فإن النعم تدوم بالشكر، وسيدنا موسى حينما سقى للمرأتين، قال:

(فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

(سورة القصص الآية :24)

فهذه أيامه مع الله، مواقفه المشرفة، وإذا كان للمسلم مواقف مع الله كثيرة، وله خبرات إيمانية، فهذه الخبرات، وهذه المواقف المشرفة تعينه كلما فترت نفسه على أن يتصل بالله عزّ وجل .

لديك موقف أخطر من هذا الموقف ، ماذا تستنتج ؟

حينما أقر النبي عليه الصلاة والسلام أن يهاجر، كان كفَّار قريش يتربصون به، ويتحلّقون حول بيته، وكان ينبغي له أن يغادر، كان سيدنا عليّ الفتى الفدائي، وقد ورد في السيرة أن النبي ألقى كَفًّا من تراب، وقال: شاهت الوجوه، فلم يره أحدٌ حينما خرج، لكن النبي عليه الصلاة والسلام أمر سيدنا علياً أن يستلقي على سريره، وأن يتغطى ببردته، فكلما نظروا إلى بيت النبي يطمئنون أنه في سريره وفي بيته، لكن النبي كان قد خرج من مكة، وصار في أطراف مكة ، وقريش قد عُرفت ببأسها وجبروتها

وقسوتها وحقدها وكرهها، وحينما دخلت إلى بيت النبي عليه الصلاة والسلام فوجِئَت أن النبي قد خرج، وأن سيدنا عليٌّ في الفراش، أليس هناك احتمالٌ كبير أن يُقتَل هذا الإمام العظيم؟ فالاحتمال كبير جداً، فالإنسان حينما يمتلئ حقداً وغيظًا، وحينما يُسقط في يده، وحينما يحبط عمله، وحينما يخيب أمله، قد يفعل فعلاً ارتجاليًّا عشوائيًّا، فهذا موقف من مواقف سيدنا علي، لكن النبي عليه الصلاة والسلام قال له مطمئناً: لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، فاعتبروا يا رعاكم الله .

لِيسألْ كلُّ واحدٍ منا نفسه هذا السؤال، في حياتي كلها ماذا فعلت للإسلام؟ ما الموقف الذي فعلته، وترك في نفسي أثراً؟ فالإنسان حينما يحيا حياةً رتيبةً ليس فيها بطولةٌ، ليس فيها عطاء، ليس فيها مؤاثرة، هذه الحياة لا قيمة لها، وكما تعلمون أن أتفه عمر للإنسان هو عمره الزمني، وقيمة العمر بأعماله الصالحة، والغنى الحقيقي هو غنى الأعمال الصالحة .

ماذا استنبط العلماء من هذه الآيات ؟

يروي التاريخ أن سيدنا صلاح الدين أيضاً حينما التقت امرأةٌ مع زوجها الأسير، فتعانقا، فهذا السلطان الرحيم العادل يروي التاريخ أنه غضَّ بصره، ولم ينظر إليهما، أي أنه أكبرَ هذا الود الذي بينهما، فعفته وشرفُه أبيا أن ينظر إليهما، فغض بصره عنها، وهذا الموقف يشبه موقف سيدنا موسى حينما جاءته إحدى المرأتين، قال تعالى:

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

(سورة القصص الآية : 25)

واستنبط العلماء أن من أدب المرأة في حوارها مع الرجل أن تختصر، وأن تلقي كلاماً لا جواب له، فلا تقل: إننا ندعوك، فيقول: إلى أين؟ إلى بيت أبي، لماذا؟ صار بينهما حوار، بل قالت:

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

(سورة القصص الآية : 25)

وسيدنا موسى تكلم معها كلاماً مختصراً جادًّا مانعاً جامعاً، قال:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا)

(سورة القصص الآية : 23)

ليس في اللغة العربية كلمة أشدّ إيجازاً واختصاراً ودلالة من هذه الكلمة، قال:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص الآية: 23-25)

ويروي التاريخ أنه حينما أرادت أن تَدُلّه على البيت سار أمامها، وأمرها أن تدله على البيت وهي خلفه، ما الذي يلفت نظر المرأة في الرجل؟ عفته وقوته وأمانته، القوة أي أنه يحميها، أما أمانته أي أمينٌ عليها ولا ينظر إلى غيرها، وما الذي يلفت نظر الرجل في المرأة؟ حياؤها، قال تعالى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص الآية : 26)

مدلولات القرآن ومراميه :

فنحن أحياناً نقرأ القصة ونظن أنها قصة، لكنها في القرآن كلها دلالات، منذ أيام تلوْنا آية قرآنية واحدة فيها خمسة آداب للضيافة، قال تعالى:

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

(سورة الذاريات الآية : 26)

إن كلمة (راغ) تعني: انسل خفية، فإذا جاء لك ضيف فالمفروض ألاّ تقول له: أنصنع لك عشاء؟ كلما سألته بصوت عالٍ تجده قد استحيا، ويقول لك: شكراً، قال تعالى:

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)

(سورة هود الآية : 69)

لم يغب طويلاً بل أحضره سريعاً، وعجل حنيذ، أيْ سمين، قال تعالى:

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

(سورة الذاريات الآية : 27)

أيْ عليك أنْ تنسلّ خفية، وأن تأتي بالطعام سريعاً، وأن يكون الطعام طيباً، وأن تقدمه للضيف، وأن تدعوه للأكل، هذه هي آداب الضيافة، وهي آية تحكي قصة، فلو وقفت عند آيات القرآن آية آية، بل كلمة كلمة، بل حرفاً حرفاً، بل حركة حركة، لوجدتَ فيه العجب العجاب .

هنيئاً لك أبا الحسن هذه الراية :

هناك موقف لسيدنا علي، وهو الحقيقة شهادة كبيرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا الصحابي الجليل، إلا أنني كما قلت في الدرس السابق: المزية لا توجب الأفضلية، فما من صحابيٍ اتصل به النبيُّ الكريم، وتعامل معه، واقترب منه إلا وظن هذا الصحابي أنه أقرب الناس إليه؟ وهذه من روائع عظمة النبي عليه الصلاة والسلام ومن حكمته، فسيدنا علي حينما كان يوم خيبر أمام حصنها المنيع، ارتدت أول يومٍ كتيبةٌ قوية يقودها أبو بكر، ثم ارتدت في اليوم الثاني كتيبةٌ أُخرى يقودها عمر بن الخطاب، فلم

يجزع النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما ألقى على الصفوف الحافلة بأصحابه وبجيشه نظرةً متفائلة، وقال:

" لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطى فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ : أَيْنَ عَلِيٌّ ؟ فَقِيلَ : يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ فَقَالَ : أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟ فَقَالَ : انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ " .

(أخرجه البخاري في الصحيح)

حمل هذه الراية سيدنا علي، وتقدَّم الكتيبة يهرول هرولةً، وأمام باب الحصن نادى: أنا علي بن أبي طالب، وقال: " والله، والذي نفسي بيده لأذوقن ما ذاق حمزة أو ليفتحن الله علي "، أي إما النصر وإما الشهادة، وأجرى الله جلَّ جلاله على يد هذا الإمام النصر، وفتح باب الحصن، واقتحمه المسلمون، وتمت نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، وهتف المؤمنون: الله أكبر خربتْ خيبر .

وهذه أكبر شهادة، ولقد كنت مرةً في عقد قران، فقام أحد الخطباء ليتكلم، فذكر نصاً أعرفه، خاطب النبي عليه الصلاة والسلام سيدنا معاذ بن جبل، قال:

" والله يا معاذ إني أحبك "

(ورد في الأثر)

صدقوني ما رأيت في الدنيا شيئاً أثمن من هذا المقام أن يحبك رسول الله عليه الصلاة والسلام، فإذا أحبك رسول الله أحبَّك الله، لذلك النبي الكريم يقول:

" ابتغوا الرفعة عند الله " .

(ورد في الأثر)

قد يكون حجمك في المجتمع حجمًا صغيرًا جداً، يعني إنسانًا بسيطًا، موظف صغير، معلم في مدرسة، تاجر صغير، ولك حجم اجتماعي متواضع جداً، فلست من أصحاب الحول والطول، ولا من أصحاب الأوسمة والرتب، ولا من أصحاب الأموال الطائلة، ولا ممن ينظر إليهم ويشار إليهم بالبنان، إنسان عادي جداً، ولكن إذا كان الله ورسوله يحبك، وأنت على منهج الله، فأنت ورب الكعبة في مقام الملوك يوم القيامة، ودائماً يغيب عن أذهاننا المقياس الرباني الذي يقيس به عباده في القرآن الكريم، قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

(سورة الحجرات الآية : 13)

سيدنا سعد بن معاذ، له قول شهير: " يا رسول الله امض لما أردت، خذ من أموالنا ما شئت ودَعْ منها ما شئت، صل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، سالم من شئت وعادِ من شئت، فو الله إنّ الذي تأخذه منا أحب إلينا من الذي تدعُه لنا " المال الذي تأخذه منا أحب إلينا من الذي تدعه لنا، هكذا كان أصحاب النبي، أما اليهود:

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

(سورة المائدة الآية : 24)

فالإنسان حجمه عند الله بحجم عمله، وإياكم أن تتوهموا أنه لا يمكن في هذا الزمان أن تكون بطولات، فكل زمان له بطولاته، كل زمان له خصائصه، فمِنَ الممكن أن تصل إلى أعلى أهدافك في أي زمن، والبطولة مبذولة، وأسبابها متوافرة، والتقرب من الله عزَّ وجل ممكن، ورب الصحابة هو ربنا، فالمشكلة مشكلة همم، مشكلة عزائم .

لماذا تجد المؤمن في أعلى درجات القوة ؟

هناك أمر هام، إن عند المؤمن قوة، هذه القوة ما أسبابها؟ قد ترى إنسانًا خائر القوة، متهالكًا ضعيفًا خائفًا جبانًا خوَّارًا يائسًا، ليس عنده إمكانية أن يتحرك، فلماذا تجد المؤمن في أعلى درجات القوة؟ فالحقيقة أنّ هناك أسبابًا:

1- أن المؤمن آمن بالله وتوكّل عليه، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود الآية : 55-56)

2- أنّ المؤمن يعلم أنه على حق، فهو في خدمة هدفٍ قامتْ من أجله السموات والأرضُ، لا يسعى لشهوةٍ ولا لنزوةٍ، ولا لمالٍ ولا لدنيا، ولا لمجدٍ زائفٍ ولا لقوةٍ طارئة، بل يسعى لتحقيق هدفه، اسمعوا الآية الكريمة:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل الآية : 79)

3- أنه يؤمن بالخلود، فليست الدنيا أكبر همه، ولا مبلغ علمه، ولا منتهى أمله، ولا محط رجائه، أما لو آمن الإنسان في الدنيا فقط فيكون حينئذٍ جباناً، لكنْ إذا آمن بالآخرة يرى أنّ الدنيا عرضٌ حاضر يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل .

4- أنه يؤمن بالقضاء والقدر، فعن أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

" لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ "

(أخرجه أحمد في مسنده)

5- حينما تشعر أنك مؤمن، وأنك لكل المؤمنين، وأن المؤمنين لك بإمكاناتهم، بخبراتهم، بقدراتهم، فأنت للكل، والكل لك، إذًا: لست وحدك في الحياة، تجد إنسانًا في العالم الغربي يموت، ولا يسأل أحد عنه، قال: أغزر طريق في فرنسا بين باريس وليون، هذا الطريق يقيسونه بعدد السيارات التي تقطعه في الدقيقة، أجروا تجربة، فجاؤوا بسيارة واقعة في حادث، وجاء إنسان فاضطجع أمامها، ووضعوا حبرًا أحمر تمثيلاً منهم محكمًا تماماً، وكأنه في حادث مروِّع، هناك إنسان جريح، انتظروا بعد عددٍ من السيارات تقف إحدى هذه السيارات لتسعف هذا المصاب فلم يقف أحد، فالمجتمعات الغربية مجتمعات كثيفة جداً، لكن الوحشة فيها كثيرة جداً .

فالمؤمن يشعر أنه للجميع، والجميع له، فهذا شعور يبث فيه الأنس والطمأنينة هذه هي أسباب قوة المؤمن .

هذا هو الرجل المغوار :

وقف عليٌّ رضي الله عنه يوم الخندق أمام أحد الفرسان الأعداء، وهو عمرو بن عبد وُدٍّ ، فتسلل هذا المشرك الفارس إلى صف المسلمين، ووقف أمام علىٍ كرم الله وجهه وجهاً لوجه، وقال: " يا عمرو إنك كنت عاهدت الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، فأجابه عمرو: أجل، قال عليٌّ: فإني أدعوك إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام، فقال عمرو: لا حاجة لي إلى ذلك، قال علي: أنا أدعوك إلى النزال، قال عمرو: لمَ يا ابن أخي، فو اللات ما أحب أن أقتلك؟ قال عليٌّ : لكنني والله أحب أن أقتلك، فغضب عمرو، وأخذته حمية الجاهلية، واقتحم عن فرسه وعقره، ثم هجم على علِيٍّ كرم الله وجهه الذي تلقاه بعنفوانٍ أشد، وخاض معه نزالاً رهيباً، لم تطل لحظاته حتى رفع عليٌّ سيفه المنتصر، بينما كان خصمه عمرو بن عبد ود مجندلاً علـى الأرض صريعاً "، ولقد وقف هذا الصحابي مواقف بطولية رائعة جداً، ففي أكثر مواقفه كما يقول الناس: وضع روحه على كفه .

الحقيقة يجب أن توقن أن انتهاء الحياة لا يمكن أن يكون إلا إذا انتهى الأجل، لأن الشجاعة لا تقرب أجلاً، واقتحام المخاطر في سبيل الله لا ينهي حياةً، فسيدنا على كرَّم الله وجهه اقتحم أخطارًا كثيرة، وعرَّض نفسه لمواقف صعبة جداً، كان في كل موقفٍ أقلّ ما فيه أنه يكاد يخسر حياته، فلذلك عندما يقف المسلم هذه المواقف البطولية، يشعر أن الله سبحانه وتعالى راضٍ عنه .

ثقة النبي بعلي وهذه المواقف دليل ذلك :

في فتح مكة، كان الزعيم الأنصاري سعد بن عبادة، يحمل الراية على رأس كتيبةٍ كبيرةٍ من المسلمين، ولم يكد يرى أطراف مكة حتى استفزته ذكرياتٌ قديمة وذكريات عداء قريشٍ للمسلمين، فصاح قائلاً وسط النشوة التي تستخف الأحلام: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، وسمعه بعض أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام فروعهم هذا النداء، وسارع عمر بن الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ونقل إليه كلمات سعد، وقال معقباً عليها: يا رسول الله ما نأمن أن يكون لسعدٍ في قريشٍ صولة، فكأنهم خافوا أن يفتح سعدٌ مع قريشٍ قتالاً، فما كان مِن النبي عليه الصلاة والسلام إلا أنْ نادى علياً كرم الله وجهه على الفور، وقال:

"أدركْ سعداً، وخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها "

(ورد في الأثر)

فسيدنا علي نفَّذ هذه المهمة، وأخذ الراية، ودخل مكة دون أن يهرق دماً مراعاةً لتوجيهات النبي عليه الصلاة والسلام .

هناك مشهد آخر دقيق، سيدنا خالد كان على رأس إحدى السرايا، أمره النبي أن يسير بأسفل تهامة داعياً لا مقاتلاً، وعند قبيلة بني خزيمة بن عامر تصرَّف أحد رجالها تصرفاً فتسرع تجاهه سيدنا خالد فأعمل فيهم السيف، ووصل الخبر إلى النبي عليه الصلاة والسلام فغضب وحزن وبَرئ إلى الله مما صنع خالد، ثم رأى عليه الصلاة والسلام أن يبادر بإرسال رسول سلامٍ، وكان ابن أبي طالب ذاك الرجل دعاه النبي، وقال له:

" يا علي أخرج إلى هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك "

(ورد في الأثر)

المنازعات، العصبية الجاهلية، العنجهية، الخصومات، هذه سماها النبي جاهلية، وهكذا فعل الإمام علي حتى إن هذا الإمام الجليل دفع دية القتلى الذين قتلوا في أثناء فتح مكة .

أبو سفيان الذي حارب النبي عشرين عاماً في أثناء هذه الفترة الطويلة، بعد صلح الحديبية ونقض قريشٍ لهذا الصلح، وتهيؤ النبي لقتال قريش، خاف القرشيّون أن يغزوهم النبي عليه الصلاة والسلام، فذهب أبو سفيان بنفسه إلى المدينة المنورة ليطيِّب قلب النبي وليعيد العمل بوثيقة صلح الحديبية، وليجدده، فدخل على ابنته أم حبيبة، وكانت إحدى زوجات النبي عليه الصلاة والسلام، فأبت ابنتُه أن تُجلسه على فراش رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكان مبسوطاً في فناء حجرتها ساعة دخوله، فطوته عنه، ولما عاتبها في صنيعها، بقوله: " أضننتِ به عليّ، أم ضننتِ عليه بي؟ قالت: إنك مشرك، وفراش رسول الله عله الصلاة والسلام لا يطأه مشرك " .

فهذا الانتماء العظيم، وعاد إلى مكة خائب المسعى، جلس يحدث قريشاً عن محاولته، فقال فيما قال: " جئت ابن أبي قحافة فلم أجد منه عوناً، وجئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو، لقد قال لي: أأنا أشفع لكم عند رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، وجئت علياً فوجدته ألين القول"، فكل صحابي له موقف، وهذا الموقف مبرر، وهذا الموقف له وجهة نظر .

أذكر مرة أن سيدنا عثمان بن عفّان كان في حضرته رجل فدخل إنسان إليه، وسأله حاجة أعطاه إياها، فبكى هذا الرجل، قال: " ما يبكيك؟ قال: الله الله تغير الزمان، كنت في عهد عمر، وسألته هذه الحاجة، فأبى أن يعطيها، فسيدنا عثمان غضب، وقال: أنا أعطيت لله، وعمر منع لله "، يعني اجتهادات .

فنحن إذا وجدنا خلافاً طفيفاً في مواقف الصحابة، فعلينا أن نأول هذا الاختلاف باجتهاد، وكل مجتهد له من اجتهاده نصيب، والمجتهد إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ له أجر، وأنت دائماً إذا رأيت موقفاً من أخيك لم تجد له تفسيراً مقبولاً، قل: لقد اجتهد، لعله اجتهد فلم يصب، برئ نيتك من السوء .

من لوازم إيمان المؤمن محبة هذا الصحابي :

وللنبي عليه الصلاة والسلام قولٌ شهير خاطب به هذا الإمام الجليل، حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ سَعْدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ قالَ، قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيٍّ: " أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى " .

(أخرجهما البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص في الصحيح)

أي كان يده اليمنى، وكان وزير النبي، وحسبكم قول النبي عليه الصلاة والسلام:

" أنا مدينة العلم وعليٌ بابها " .

(ورد في الأثر)

ومحبه هذا الإمام الجليل من لوازم إيمان المؤمن، لأنه لا يبغض أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام إلا المنافق، هم أصحابه الذين اختارهم الله له، والذين كانوا عونه في حروبه، وفي دعوته، وفي كل أحواله، لا ينتقص من قدر أصحاب النبي إلا جاهل أو منافق، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

" اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ وَمَنْ آذَى اللَّهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ " .

(أخرجه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده)

وأجمل ما قيل: " إذا ذكر أصحابي فأمسكوا "، يعني حادثة لا تُعرَف أبعادها، ولم تَكتشِف حكمتها، ظاهرها لا يرضيك عن أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، فالأكمل والأولى أن تطوي عنها الصفح، لأنّه كما قلت قبل قليل، هناك في التاريخ شيءٌ يعد عبئاً علينا، وهناك شيءٌ يعد حافزاً لنا، فاختر من التاريخ ما يحفزك إلى البطولة، ودع منه ما يكون عبئاً عليك ويثبِّط عزيمتك .

خاتمة الدرس :

آخر كلمة أذكركم بها، أن الخلفاء الأربعة الراشدين نعلّق أهمية كبرى على مواقفهم، وعلى بطولاتهم، لأنه ُشرع لنا أن نقتديَ بهم، وببطولاتهم، وبتواضعهم، وبزهدهم، وبورعهم، وبعلمهم، وبجرأتهم، وبشجاعتهم، هؤلاء الأربعة، فعَن الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ،

يَقُولُ: قامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فوَعَظنَا مَوْعِظة بَلِيغَة وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ فقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَعَظتَنَا مَوْعِظة مُوَدِّعٍ فاعْهَدْ إِلَيْنَا بعَهْدٍ فقالَ عَلَيْكُمْ بتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا وَسَتَرَوْنَ مِنْ بَعْدِي اخْتِلَافًا شَدِيدًا فعَلَيْكُمْ بسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحْدَثاتِ فإِنَّ كُلَّ بدْعَةٍ ضَلَالَة " .

(أخرجه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

تلك أمة قد خلت :

أيها الأخوة، مع الدرس الرابع من دروس سيدنا عليٍ بن أبي طالب كرم الله وجهه، أتمنى أن أضع بين أيديكم حقائق بمناسبة وصولنا إلى إمارة سيدنا علي بن أبي طالب، والحقيقة الصارخة الأولى هو أنه لم يتح للتاريخ الإسلامي رجالٌ ثقاة كرجال الحديث، قاموا بتمحيص رواياته وفحصها، ودرسوا الرجال، حتى استقام لهم الحديث الصحيح من الحديث الزائف، وعرفوا الصحيحَ من الموضوع، هذا الذي حصل للحديث الشريف لم يحصل للتاريخ الإسلامي، لذلك تجد في التاريخ الغث والثمين، الصحيحَ والزائف، الذي وقع والذي لم يقع، وتجد الوصف الموضوعي والوصف المبالغ فيه .

فالذي أعتقده أن كثيراً مما كتب عن خلافاتٍ طاحنةٍ، وعن حروبٍ مستعرةٍ بين سيدنا عليٍ وبعض صحابة رسول الله إن لم يكن له أصل فإنّه مبالغٌ فيه مبالغة لا حدود لها، فنحن نَكِلُ أمر ما حدث إلى الله عزّ وجل، لقول الله عزّ وجل:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

(سورة الإسراء الآية : 17)

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة الآية : 134)

كيف نحلل هذا الحدث ؟

أيها الأخوة، إن المؤمن الصادق ينطلق من هذه الحقيقة، تقييم الرجال ليس من شأن البشر بل من شأن خالق البشر، الإنسان أعقد مخلوق، فقد علمونا في الجامعة أن العلوم المادية قوانينها قطعية وثابتة ومطّردة، أما كل علمٍ متعلقٍ بالنفس البشرية فلشدة رقيِّها، ولشدة تعقيدها ولشدة العوامل المتداخلة في صنع قرارها ينبغي أن نقول دائماً فيما يتعلّق بالإنسان هذه الجملة : في الأعم الأغلب، لأن كل القوانين المتعلقة بالإنسان قوانين ظنية وليست قوانين قطعية .

أريد أن أقف الموقف الكامل، إنسان أمامه كونٌ عظيم، وكل ما في الكون ينطق بعظمة الله، وينطق بوجوده، وينطق بكماله، وينطق بوحدانيته، وأمام المؤمن كتابٌ معجز، كل ما في القرآن يشير إلى أنه

كلام الله عزّ وجل، وأمامنا سُنّة صحيحة توافر لها رجال الحديث الألمعيُّون ، هذه السنة تأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن، فهي تفصيلٌ وبيانٌ له، والهدف هو الله، والطريق واضح المعالم، ألا تكفينا فيه آية كريمة:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة الآية : 134)

لكن الإنسان يقيس، والقياس نشاط عقلي، فقد يأتي مؤمن في آخر الزمان والفتن حوله مستعرة، والأمور بالغة التعقيد، ومع ذلك لا يفعل إلا الشيء الذي يرضي الله عزَّ وجل، فكيف بصحابيٍ عاش مع رسول الله عليه الصلاة والسلام واستقى منه الحديث، ورأى من كماله، ورأى من جماله، ورأى من أخلاقه، ورأى من شمائله، أيعقل أن هذا الصحابي الجليل الذي رضي الله عنه والذي بوأه الله مبوأ صدق، أو مقعد صدق، أن يصدر منه شيءٌ يترفَّع عنه مؤمنٌ في هذا الزمان؟ لذلك فالمسلم كلما أحسن الظن بأصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام كلما كان أرقى وأعدلَ .

الحذر الحذر من أن تقع في كمين لأعداء الدين مما روجوه في تاريخ المسلمين :

ذكرت لكم فيما أذكر أن التاريخ يمكن أن يقسم قسمين: تاريخٌ يعد عبئاً علينا، وتاريخٌ يعد حافزاً لنا، ليس من مصلحة المسلم أن ينقّب عن التاريخ العبء، ويدع التاريخ الحافز، فأية روايةٍ، وأية قصةٍ، وأي موقفٍ من التاريخ يحْفزنا إلى البطولة، نتمسك بها، ونعرضها، ونحللها ، أما الشيء الذي يضعنا في حيرة، أو يجعلنا نَرْتَبِك نتركه جانبًا، هذا التاريخ يمكن ولا أبالغ أن يكون لا أصل له، ويمكن أن يكون ذا أصلٍ صغيرٍ جداً وقد بولِغَ في وصفه، طبعاً بولغ من قبل أعداء الإسلام .

ولا تنسوا أن الكيد للمسلمين بدأ من عهد سيدنا عثمان على يد عبد الله بن سبأ، الكيد قديم جداً، ولا تنسوا أن أعداء الدين عجزوا من أن يواجهوا الإسلام مواجهة، لكنهم يسلكون الأساليب الملتوية من أجل الكيد لهذا الدين، لا عن طريق مواجهته، بل عن طريق الدسِّ فيه، واسمعوا مني هذه الحقيقة: الآن العالم كلُّه مجمعٌ على محاربة الإسلام، ولكن فيما أعتقد لا بطريقة المواجهة، بل بطريقة التفجير الداخلي، فهذا مكرُ الماكرين الذين صوّروا الصحابة على أنهم حاقدون على بعضهم بعضاً، يتوارثون العداوة والبغضاء، هذا التاريخ ينبغي أن نتجاوزه لأنه ليس في صالح المؤمنين، وأن يبقروا بطون الكتب ليعثروا على رواياتٍ أغلب الظن أنها غير صحيحة، أو أغلب الظن أنه مبالغ به .

أنصح أخوتنا الكرام، ألا تقرؤوا من التاريخ إلا ما هو مشرق، والذي لا يعجبكم قيسوا أنفسكم عليه، فأنتم أتيتم في آخر الزمان، وكلُّ واحد منكم يتمنى أن يرضي الله عزَّ وجل، ويقف الموقف المشرف الكامل، أفمؤمنون أتوا في آخر الزمان على ضعفٍ منهم يقفون هذه المواقف المشرِّفة، وأصحاب النبي

عليهم رضوان الله الذين عاشوا مع النبي واستقوا من كماله ومن شمائله ومن علمه أيضيِّعون عملهم في الآخرة من أجل خلافٍ بسيط؟ فاحذروا يا أولي الألباب .

إليكم بعض حكم هذا الإمام :

تلوت على مسامعكم خطبة ألقاها الإمام علي كرم الله وجهه حينما توفي سيدنا الصديق ، قال له: " كنتَ أشبَهنا برسول الله عليه الصلاة والسلام خَلقاً وخُلُقاً، سماك الله في كتابه صديقاً صدقته حينما كذبه الناس، قمتَ معه لما قعدوا، واسيته بمالك "، هذا كلامٌ يعبر عن معرفةٍ كبيرةٍ بهذا الصحابي الجليل، وهذه روايةٌ صحيحة لأنها تتناسب مع مقام أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام .
إنني في هذا الدرس سألقي على مسامعكم بعضاً من حكم هذا الإمام الجليل، يقول: "صدر العاقل صندوق سره، والبشاشة حبالة المودة، والاحتمال قبر العيوب "، ثلاث صفات، كما قال عليه الصلاة والسلام:

" استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود "

(ورد في الأثر)

البشاشة حبالة المودة، الوجه الطلق، الوجه البشوش، هذا يسبب تأليف قلوب الناس لك، هذا يسبب اكتساب الأصدقاء، والاحتمال قبر العيوب، أنت فيمن حولك لك أصدقاء، لك أخوان، لك أقرباء، هؤلاء ليسوا معصومين، فإذا حاسبتهم على كل واحدة، ضج الناس من حولك وانفضوا عنك، أما إذا احتملت أخطاءهم، فهذا من كرم الأخلاق ومن علو المقام عند الله عزَّ وجل، الاحتمال قبر العيوب، والبشاشة حبالة المودة، وصدر العاقل صندوق سره .

وصفه للدنيا :

قال هذا الإمام الجليل: " إذا أقبلت الدنيا على أحدٍ أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه ، سلبته محاسن نفسه "، ومما جاء في بعض الحِكم التي قالها بعض حكماء الصين: " اللهم ارزقني حظاً تخدمني به أصحاب العقول، ولا ترزقني عقلاً أخدم به أصحاب الحظوظ "، فإذا وفقك الله عزَّ وجل فكل مَن حولك في خدمتك، وإذا لم يوفقك فمحاسنُك وعقلك لا تنفعك، ومالك لا ينفعك، بل كل ما تملكه يتلاشى، لذلك فسر بعض المفسرين قول الله عزَّ وجل:

(أن اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

(سورة طه الآية : 39)

آية عظيمة جداً، أي إذا ألقى الله عليك محبته، أي ألقى حبك في قلوب الخلق، هذه من أعظم النعم، أعظم نعمةٍ أن يمدحك الناس في غيبتك، لكنَّ الإنسان القوي قد يهابه الناس، ولكنهم في غيبته يذمونه، ويتحدثون عنه بما لا يريد، فمقياس نجاحك مع الناس لا ما يقال في حضرتك ، بل ما يقال في غيبتك، ومِن أجمل التوجيهات اللطيفة لحديث رسول الله عليه وسلم:

" إنّ أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لغائب، أو دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب " .

(ورد في الأثر)

فأنت متى تمدح أخاك في غيبته أم في حضرته؟ لكن طبيعة الحياة والمجاملات تقضي مجاملته في حضرته، أما حينما تمدح أخاً في غيبته، فهذا دليلٌ قطعيٌ على أنه محسن، إذّا: هذا المحسن الذي يُمدَح في غيبته، وإذا دعوت له فأغلب الظن أن الله يستجيب له، بل إن أسرع الدعاء إجابة دعوة غائبٍ لغائب، أو دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب، إذّا: فاسعوا من خلال سلوككم أن يمدحكم الناس في غيبتكم لا في حضرتكم .

بيانه في كيفية مخالطة الناس وكيفية الشكر للمنعم :

قال: " خالطوا الناس مخالطةً إن متم معها بكوا عليكم، وإن عشتم حنوا إليكم "، بعض الناس قد يقبض يده، فأقرب الناس إليه يتمنى موته، وبعض الناسِ أحياناً يبسط يده، فأبعدُ الناس عنه يتمنى حياته، وشتان بين من يعيش بين أُناسٍ يفدونه بأرواحهم، وبين من يعيش مع أناسٍ ينتظرون موته .

قال: " إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه "، موضوع الشكر أيها الأخوة مِن أرقى الأحوال، ألا يكفينا أن الله عزَّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء الآية : 147)

فإذا آمنتَ وشكرتَ فأنت على الصراط المستقيم، فأنت على المنهج القويم، فأنت باتجاه الهدف الصحيح، فأنت تحقق سر وجودك إذا آمنت وشكرت، الشكر مستويات:

1- أبسطها وأدناها أن تعرف أن هذه النعمة من الله .

2- أن يمتلئ قلبك امتناناً وحمداً لله .

3- أن ترد على هذه النعمة الجزيلة بخدمة الخلق .

لذلك أقول لكم دائماً: في اللحظة التي يستقر فيها الإيمان في القلب يعلن عن نفسه بحركةٍ نحو خدمة الخلق والدعوة إلى الحق .

حرصه على الأخوة والحذر من فقدانهم :

يقول هذا الإمام الجليل: " أعجز الناس مَن عجز عن اكتساب الأخوان، وأعجزُ منه مَن ضيَّع من ظفر به منهم "، أقول لكم بصدق: وسائل وأساليب كثيرة، وجهود جبارة، ومواقف ذكية جداً، إذا فعلتها اكتسبت ود أخيك، لكنْ موقفٌ أحمقٌ واحد، أو موقفٌ غير مسؤول، أو موقفٌ فجٌ واحد يصرفه عنك، هذه الآية أرجو من الله عزَّ وجل أن تكون عندكم واضحة، يخاطب الله النبي عليه الصلاة والسلام، يقول له يا محمد:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

(سورة آل عمران الآية : 159)

من هو؟ هو سيد الخلق، وحبيب الحق، المعصوم، الذي يوحى إليه، الذي جاءه القرآن، المؤيَّد بالمعجزات، كل هذه الميزات لو أنه كان مع أصحابه فظاً غليظ القلب لانفض الناس من حوله، فأنت من؟ فإذا كنتَ مؤمناً فلا تملك أي ميزة، فإذا قسوت على الناس فمن باب أولى أن ينفض الناس من حولك، إذًا: التفاف الناس حولك، وانفضاضهم من حولك، مقياسان أشار القرآن إليهما، قال الشاعر:

ما كنت مذ كنت إلا طوع أخواني ليست مؤاخذة الأخوان من شاني

إذا خليلي لم تكثر إساءته فأيـن موضع إحساني وغفرانـــي ؟

أنا أقول لكم هذا الكلام: بطولة أحدكم تتجلى في اكتساب الأصدقاء، حتى إن كتباً أُلّفت في العالم الغربي، وطُبع منها عشرات الملايين مِن النسخ، كيف تكسب الأصدقاء؟ هم يبحثون عن صديقٍ لينتفعوا به، لكن المؤمن يبحث عن صديقٍ ليدله على الله، وشتان بين الهدفين .

أنا ضربت أمثلة في هذين اليومين، أن النجاح شيء عظيم، قد تجد إنسانًا نجح في التجارة لكنه بدأ عاملاً، أو بدأ عاملاً متجولاً، وانتهى إلى تاجر يتكلم بألوف الملايين، فهذا نجح في التجارة، وأحياناً ينجح الإنسان في الصناعة، ويصبح صناعيًّا كبيرًا، وأحياناً ينجح في العلم فيأخذ أعلى الشهادات، و يكتب المؤلفات، ويلمع صيته، ثم ينال درجة نوبل مثلاً، هذا نجاح، فهناك نجاح بالعلم، ونجاح بالمال، حتى في مجال الدعوة إلى الله فهناك نجاح، فالنجاح شيء عظيم، والوصول إلى قمة النجاح لا بدَّ من أن يسلك طريقاً طويلة وشاقّة وصاعدة وملتوية، وفيها حفر، وفيها أشواك، وفيها حشرات، فإذا وصل إلى قمة الجبل أي إلى قمة النجاح، والله الذي لا إله إلا هو هناك عشرات الطرق الزلقة التي تجعله في قعر الوادي فليحذرْ ليبقى في قمة النجاح .

هذه الكلمة أتمنى من كل قلبي أن تكون في كيانكم، بطولتك لا في بلوغ قمة النجاح بل في البقاء في قمة النجاح، فهنا يقول سيدنا علي: " وأعجز منه من ضيَّع من ظفر به منهم " تذكرون أنّ هرقل حينما سأل أبا سفيان: أيتركه أصحابه؟ قال: لا. الإنسان تتنامى علاقاته، تتنامى محبته، يتنامى ولاؤه، يتنامى إكباره، تتنامى استفادته، فالتنامي دليل أن هذا الإنسان على حق، وأنه مطبِّقٌ للسنة فلو حصل انفضاض من حوله فلديه خلل واضح جداً .

هذا الفصل يبين التوحيد الخالص :

قال رضي الله عنه: " من ضيعه الأقرب أتيح له الأبعد "، إنّ الله رحيم فيمتحن الناس، وأقرب الناس قد يتخلى عنك، فإذا كنت مع الله سخَّر لك أبعد الناس، لذلك قالوا: " إذا كان الله معك فمَن عليك، وإذا كان عليك فمَن معك؟ "، كن مع الله ولا تبالي، فإذا رضي الله عنك سخَّر خصومك وأعداءك لخدمتك، وإذا تخلى الله عنك، تخلى عنك أقرب الناس إليك .

وقال: " تذل الأمور للمقادير حتى يكون الحتف في التدبير"، قد يقع الإنسان في غضب الله، وقد يكون مع ذلك ذكيًّا جداً، وقد يكون متفوقًا جداً، وقد يكون مِمَّن يُعِدُّ لكل شيءٍ عدَّته، ثم يكون حتفه في تدبيره، أي إذا أراد الله إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لبٍ لبه، لذلك إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك .

تفسيره للأجل :

قال: " من جرى في عنان أمله عثر بأجله "، حينمـا يفكر الإنسانُ تجد خواطره تذهب عشرين سنة إلى الأمام، وأحياناً ثلاثين سنة، ولا يدري أن أجلَه بعد سنة واحدة، فهذا المتأمِّل أحمق، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام رسم خطًّا خارجًا من مستطيل، وهذا الخط بعضه داخل المستطيل، وبعضه خارج المستطيل، ثم قال: هذا أجله وهذا أمله .

لقد كنت جالسًا يومًا أنتظر في مكان، وإلى جانبي رجلان يتحدثان، قال أحدُهما: فلان أتْعَبَنَا كثيراً في كسوة بيته، قال له الآخرُ: وكيف؟ قال له: هو في حيرةٍ شديدة من التدفئة، أيجعلها ظاهرةً أم باطنة؟ إنْ جعلها ظاهرة فليس هذا من أرقى أنواع الأناقة، وإن جعلها باطنة فربما فسدت فاضطر إلى تكسير البلاط، قال: وبعد ستة أشهر استقر رأيه على أن يجعلها باطنة ، فبعد عشرين عاماً إذا فسدت سيمدِّدها ظاهرة، كان يفكر مؤمّلاً أنْ يعيش عشرين سنة، ومثل هذا كثير، وما مِن إنسان توفاه الله إلا وفي ذهنه

مشاريع إلى آماد طويلة جداً، أما العاقل فإنه يجري في عنان أمله في الدار الآخرة، وينهض في الدنيا ليعمل صالحاً استعداداً لها .

لا تبخس بحق أخيك أيها العبد الفقير :

يقول هذا الإمام الجليل: " أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثرٌ إلا ويد الله بيده يرفعه "، كلام جميل جداً، إنسان له ماض، فهذا حاطب بن أبي بلتعة صحابيٌ جليل، ضُبِط متلبساً بخيانةٍ عظمى، أرسل كتابًا إلى قريش مع امرأةٍ وهذا الكتاب يُفْشي سر رسول الله عليه الصلاة والسلام، يقول لقريش: إن محمداً سوف يغزوكم فخذوا حذركم، هذا الخبر في مقاييس العالم كله خيانةٌ عظمى يستحق الإعدام، جاء الوحي للنبي عليه الصلاة والسلام، وأخبره الخبر، فأرسل أحد أصحابه إلى المرأة وهي في الطريق فانتزع منها الكتاب، واستدعى النبي حاطب بن أبي بلتعة، وقال له: ما هذا يا حاطب؟ فقال سيدنا عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق . والقتل جزاء عادل له، ولكن هنا عظمة رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال : لا يا عمر إنه شهد بدرًا، فالهدر أي أن تهدر للإنسان ماضيه، تهدر له عمله الطيِّب لإساءةٍ كبيرة أو صغيرة، فهذا ليس من المروءة، وقال حاطب: يا رسول الله ما كفرت ولا ارتددت، وذكر له عذره، فالنبي الكريم قال:

" إني صدقته فصدقوه، ولا تقولوا فيه إلا خيراً ".

(ورد في الأثر)

حتى إن كُتَّاب السيرة، قالوا: " نظر عمر إلى ذنبه، ونظر النبي إلى صاحب الذنب، فرأى أن ذنبه لحظة ضعفٍ طارئة ألمّت به، فأعانه على نفسه، وأنهضه، وصلح عمله، وأرسله بعد حين رسوله الشخصي إلى بعض الملوك، واستحق أعلى مراتب الإيمان " .

ماذا يقول هذا الإمام الجليل؟ أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم فما يعثر منهم عاثر إلا ويد الله بيده يرفعه، أي إن الله عزّ وجل وفيٌّ، فإذا كان لك ماضٍ طيِّب، إذا كانت لك استقامتك، وأعمالك الصالحة، ودعوتك إلى الله، ثم حدث خطأ أخذ الله عزّ وجل بيدك ليؤدبك، ولكن الله عزّ وجل لا يتخلى عنك، وهذا من أجلِّ الطمأنينة .

فيا أيها الأخوة الكرام، فالله عزّ وجل ينمي الخير القليل، ويأخذ بيدِ المؤمن كلما عثر، أو كلما زلّت به قدمه، إذًا: فالله عزّ وجل في عليائه يأخذ بيدِ المؤمن إذا عثر، أفأنت لا تغفر له ؟ ولا ترحمه؟ ولا تعفو عنه؟ هذا كلامٌ كما يقال يكتب بماء الذهب .

يلفت نظر المتأمل على انتهاز فرص الخير :

قال: " قُرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان، والفرصة تمر مرّ السحاب، فانتهزوا فرص الخير "، إنّ في الإنسان صفتين وهما: صفة الحياء، وصفة الخجل، الحياء فضيلة لكن الخجل صفة مذمومة، فسيدنا علي أشار إلى أن الخجل أحياناً ترافقه الخيبة، استحى أن يطالب بحقه، استحى أنْ يتقدم بطلب، واستحى أنْ يتكلم، واستحى أنْ يعرض ما عنده، هذا الحياء أوصله إلى الخيبة، وهذا الخجل نقله إلى الحرمان، والفرص تمرُ سريعاً ولا تتكرر، فانتهزوا فرص

الخير، فالأذكياء دائماً ينتهزون الفرص، قال الشاعر:

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن الريح عادتها السكون

وإن درَّت ناقتك فاحتلبها فما تدري الحليب لمَن يكون؟

هذا كلام طيب، فالخجل يقودك إلى الخيبة، والخجل أيضاً ينقلك إلى الحرمان، والفرص تمرُ مرّ السحاب فانتهزوا فرص الخير، هذا الكلام يؤكد قولَ النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

" أنا مدينة العلم وعليٌ بابها " .

(ورد في الأثر)

يوضح في هذه الحكمة ، ما كفارة الذنب ؟

قال: " إن من كفارات الذنوب العظام إغاثة اللهفان، والتنفيس عن المكروب"، أي إن إغاثة اللهفان مِن كفارات الذنوب العظام، فأنتم تسمعون أن امرأةً بغياً سقت كلباً يأكل الثرى من العطش فغفر الله لها، فاللهفان إذا أغثتَه غفر الله لك، واللهِ أنا سمعت أن أحدهم تمكَّن من الدخول إلى حجرة النبي عليه الصلاة والسلام، وبعض الخواص يتاح لهم أن يدخلوا إلى حجرة النبي عليه الصلاة والسلام، وقد كُتِب في حجرة النبي حديثٌ شريفٌ له، وهو:

"أفضل المعروف إغاثة الملهوف " .

(ورد في الأثر)

حدثني أخ، فقال لي: كنت أركب مركبتي، وقد أتيت من مكان بعيد، فوصلت إلى بلدة دمر الساعة الثانية عشر ليلاً، فرأيت امرأةً وزوجها ومعهما طفلٌ صغير، يبدو أنه مريض، فوقفتُ لهما، وأسعفت الطفل الصغير من المستشفى، إلى الطبيب، إلى الصيدلي، حتى تماثل، وذهب عنه الخطر، وبقيت معهما حتى الساعة الخامسة صباحاً، وهو مرهق، ويقول لي وهو صادق: عشرة أيام، وأنا منغمسٌ في سعادةٍ لا توصف، من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف، والتنفيس عن المكروب .

وعلماء النفس، يقولون: " إن الذي يكذب يكشف نفسه من فلتات لسانه "، وقد قال الإمام عليٌّ كرم الله وجهه: " ما أضمر أحدٌ شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه"، ولحكمةٍ بالغة جعل الله صفحة الوجه مرآة النفس، فإنك ترى في الوجه المودة، وترى التسامح، وترى العفة، وترى الحقد، وترى الكراهية، كل ما يعتلج في النفس يطبع على صفحة الوجه، وكأن الوجه وجه النفس، لذلك ورد في الأثر: " لو كان الوجه الحسن رجلاً كان رجلاً صالحاً " .

نصحه للعابد :

ويقول هذا الإمام الجليل: " أفضل الزهد إخفاء الزهد "، الشيطان له وساوسُ لا تنقطع، فإذا صليت الليل، فلا تقل: صليت قيام الليل، أو تصدقت، فكلما أخفيت أعمالك الصالحة كان هذا عوناً لك على أن تستخدمها في الإقبال على الله .

فإذا سكتّ أخرستَ الشيطان، لذلك افعل بعض العبادات التي لا يستطيع الشيطان أن يقول لك: إنك ترائي بها، أفضل الزهد إخفاء الزهد، إنه كلامٌ رائع .

احذر الاستدراج بك يا مسكين :

قال: " إذا كنت في إدبارٍ، والموت في إقبالٍ، فما أسرع الملتقى "، إذا وجدتَ سيارتين باتجاه واحد، وإحداهما أسرع من الثانية، فإن اللقاء يكون صعبًا، وقد يكون اللقاء مستحيلاً، وقد تزداد المسافة بينهما سعة وبُعْدًا، أما إذا كان ثمّة مركبتان تتحركان باتجاهين متعاكسين، فما أسرع اللقاء ولو أنهما بطيئتان، فماذا يقول هذا الإمام الجليل؟ يقول: " إذا كنت في إدبار" فالإنسان يتقدم به السن، وهو في إدبارٍ عن الدنيا، والموت في إقبال فما أسرع المُلتقى، لذلك أخطر حدث في حياتنا هو نهاية العمُر، وختام العمل، قال تعالى:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر الآية : 24)

ويقول هذا الإمام الجليل: " الحذر الحذر فو الله لقد ستر حتى كأنه قد غفر "، أي أن الله أرخى الحبل، يقول لك: لم يحدث لي شيء، ليس مِن كلمة أغبى من هذه الكلمة، اقترف المعاصي، وكسب المال الحرام، وتعامل بالربا، ونظر إلى ما لا يحل له، ثم يقول: لم يصبْني مكروهٌ، لكنّ الإمام قال: الحذر الحذر فو الله لقد ستر حتى كأنه قد غفر ، أي أن الله يرخي الحبل، لأنه لو عاقبك بعد المعصية، وأكرمك بعد الطاعة لألغي الاختيار، ودخلنا في الجبر والاضطرار .

الخير والشر :

يقول هذا الصحابي الجليل: " فاعل الخير خيرٌ من الخير، وفاعل الشر شرٌ من الشر" هذا الذي ألقى على هيروشيما قنبلة ذرية سواء الذي ألقى، والذي أمر بإلقاء هذه القنبلـة، وها قد مضى عليها خمسون عامًا وأكثر، وآثارها انتهت، والبلدتان الآن قد عُمِرَتا، وتمتلئان بالناس، والقضية أصبحت في طّي النسيان، هل يعفى صاحب الشر من العقاب؟ لا، يبقى الإثم الذي يعذَّب به في النار إلى أبد الآبدين، وأنت أنشأتَ مستشفى، أو أنشأت ميتمًا، أو بنيت مسجدًا، وعملت أعمالاً جليلة، لا أقول لك تنقضي سريعاً، وانتهت هذه الأعمال، فأنت أفضل منها لأنك تسعد بهذه الأعمال إلى أبد الآبدين، نقطة مهمة جداً، فالشر ينتهي بانتهاء العالم، والخير ينتهي بانتهاء العالم، ولكن ما الذي يبقى؟ يبقى فاعل الشر في جهنم وبئس المصير، وفاعل الخير في جناتٍ عرضها السموات والأرض .

حكم متنوعة :

قال: " مَن أطال الأمل أساء العمل "، ضعف اليقين والأمل آفتان خطيرتان تضعف الإنسان، سيدنا علي رضي الله عنه، يقول لابنه الحسن: " يا بني احفظ عني أربعة وأربعة، لا يضرك ما عملتَ معهُن؛ إن أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العجب، وأكرم الحسب حسن الخلق "، أيْ أغنى شيء تمتلكه هو العقل، وأشد الناس فقراً من كان أحمقَ ، وأوحش الناس من أُعجب بنفسه، فانفض الناس مِن حوله، أي إنه متكبر، أكرم الحسب حسن الخلق .

وهذا حكم فقهي جليل، قال: " لا قربة بالنوافل إذا أضرت بالفرائض "، أسمع عن أناسٍ كثيرين قاموا ليصلوا قيام الليل، فضاعت عليهم صلاة الفجر، والفجر فريضة، أحيانًا تسمع عن شخصٍ يذهب ليعتمر، وترك ابنه بلا زواج فانحرف، لا قربة بالنوافل إذا أضرت بالفرائض .

واسمعوا لهذا التعليل، قال: " سيئةٌ تسوؤك خيرٌ عند الله من حسنةٍ تعجبك "، عمل عملا طيبًا ما شاء الله، فقد أصابه الغرور فلا أحد يستطيع أن يكلمه، وأصبح فوق الناس، وأصبح الناس عنده كلهم كفارًا، لا والله، لو قصَّرت تقصيرًا، وهذا التقصير حملك على التواضع، والتذلل، والعبودية لله كان أفضل منه.

من أذل نفسه للئيم فقد أهانها :

قال: " من حذَّرك كمن بشَّرك"، أي إذا حذرك إنسان، وكان مخلصًا، واستجبت له فكأنما أكرمك، وبشرك بالنجاة، قال: " فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها "، أي إذا أنت وقفت موقفاً ذليلاً،

وبذلت ماء وجهك أمام إنسان لئيم، ولو شعرت بكرامتك لآثرت أن تفوتك هذه الحاجة على أن تقف هذا الموقف، ولهذا الإمام الجليل قول مشهور وهو: " والله والله مرتين ، لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين"، لأن فوت الحاجة أهون مِن طلبها إلى غير أهلها،

" ومن جلس إلى غنيٍ فتضعضع له ذهب ثلثا دينه ".

(ورد في الأثر)

من مواعظه أيضاً :

قال: " لا تستحي من إعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه "

قال : " إذا تم العقل قل الكلام"، الإنسان يزين كلامه، يتكلم فيغنم، أو يسكت فيسلم، هذا هو العقل .

قال: " من نصَّب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلِّم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم " .

قال: " نَفَسُ المرء خطاه إلى أجله "، وقال: " كل معدودٍ منقضٍ، وكل متوقعٍ آت "، ما دام الشيء يُعدُّ فسوف ينتهي يومًا مِن الدهر، الواحد يعيش ستين سنة، أو سبعين سنة، ثم ينتهي وينقضي .

مرة قرأت كتابًا مِن أربعة أجزاء اسمه قصص العرب، وهو ممتع جداً كلها قصص واقعية، بعد أن قرأت الكتاب وجدت فيه عبرةً عظيمة، أن هؤلاء الذي قرأت عنهم بعضهم ملوك ، وبعضهم علماء، وبعضهم حكماء، وبعضهم صعاليك، وبعضهم أذكياء، وبعضهم أغبياء، هؤلاء جميعاً من دون استثناء كلُّهم الآن تحت الثرى، قلت: وسيأتي علينا جميعاً يوم لا ترى فوق التراب إنْسِيًّا ولا مخلوقًا، إذًا: كل معدودٍ منقضٍ، وكل متوقعٍ آت، وكل آتٍ قريب .

كلمته عن القضاء والقدر :

ومن أروع ما قال هذا الإمام الجليل في القضاء والقدر عندما سأله أحد السائلين: " أكان مسيرنا إلى الشام بقضاءٍ من الله وقدر؟ وبعد كلامٍ طويل، قال: ويحك لعلك ظننت قضاءً لازماً، وقدراً محتوماً، لو كان كذلك لبطُل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، إن الله تعالى أمر عباده تخيراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولم يُطعْ مكرهاً، ولم

يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتاب للعبادِ عبثاً، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظنُّ الذين كفروا، فويلٌ للذين كفروا من النار ".

هل كان هذا الإمام جبرياً في عقيدته؟ أبداً، إنه يؤمن أن الإنسان مخير، لو كان هناك جبر لبَطَل الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، والجنة والنار، والتكليف والأمانة والتبعة والمسؤولية، وأصبح إرسال الأنبياء لعبًا، وإنزال الكتب عبثًا، وانتهى كل شيء، فما مِن إنسان يعتقد عقيدة الجبر إلا زلَّ وضلَّ .

قيمة المرء ما يحسنه :

قال: " قيمة كل امرئ ما يحسنه، أما في آخر الزمان فقيمة المرء متاعه"، أي ثمن بدلتك، ونوع سيارتك، وموقع بيتك، ومساحته، وأثاثه، والتحف، وقد يكون صاحبُ هذا المتاع أحقرَ إنسان، يقول سيدنا علي: " قيمة المرء ما يحسنه، أما في آخر الزمان قيمة المرء متاعه "، والإنسانُ في زمن التخلف يستمد مكانته من المظاهر الخارجية .

وكان سيدنا علي رضي الله عنه فَطِنًا، فمرة أثنى عليه أحدُهم، وكان منافقًا، فقال له: " أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك " .

نصيحته لأهل العلم :

قال: " مَن ترك قول لا أدري أصيبت مقاتله "، اسمعوا هذا الكلام الدقيق، قل: لا أدري وأنت في أعلى درجات العلم، قال: " من قال لا أدري فقد أفتى "، إذا سألت واحدًا، وقال لك: واللهِ لا أدري، فإن هذا عالم، لأنه من شدة ورعه خاف أن يتكلم بشيء من غير علم، فقال: " من ترك لا أدري فقد أصيبت مقاتله "، أي أنه انتهى، فقد أضاع علمه ومكانته، والإمام مالك جاءه وفد من المغرب العربي، سار إليه ثلاثة أشهر، ومعهم ثلاثون سؤالاً، فأجاب عن سبعة عشر، والباقي قال فيها: لا أدري، معقول وأنت إمام؟، قال لهم: " قولوا لمن في المغرب الإمام مالك لا يدري "، بهذه البساطة .

اسمع أيها القلب :

وقال هذا الإمام الجليل: " عجبت لمن يقنط ومعه الاستغفار!"، لماذا القنوط؟ قل: أستغفر الله .

وقال: " من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله له أمر دنياه، ومن كان له من نفسه واعظٌ كان عليه من الله حافظ "، واللهِ هذا الكلام يكتب بماء الذهب، " من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس "، فإنْ يكون قلبك عامرًا مع الله فالكل

يحبونك، " ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله له أمر دنياه "، أي تأتيه الدنيا وهي راغمة، ومن كان له من نفسه واعظٌ كان عليه من الله حافظ .

وقال هذا الإمام الجليل: " إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم "، أي إن للموجه الراقي الداعي أنْ يمرح ويمزح، فالمرح أحياناً يكون مفيد جداً يلين القلوب ويجدد النشاط، وعلى الإنسان أنْ يكون بسَّامًا ضحَّاكًا، وكان النبي يمزح مع أصحابه، ولا يمزح إلا حقاً .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المرتبة التي حازها علي من علم النبوة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس من سيرة الإمام الكبير سيدنا علي بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه، ولقد تحدَّثنا في الدرس الماضي عن طائفةٍ من أقوال هذا الإمام، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

" أنا مدينة العلم وعليٌ بابها "

(أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس)

وكلما قرأنا من أقوال الإمام قولاً وجدنا في هذا القول مصداق قول النبي عليه الصلاة والسلام، فيقول هذا الإمام الجليل: " من كرُمتْ عليه نفسُه هانت عليه شهواتُه"، أيْ: مَن عَرَف قدرَ نفسِه، ومن عرَف سرَّ وجوده، ومن عرف، لماذا خلقه الله عزّ وجل؟ ومن عرف عظمة الدار الآخرة وما فيها من نعيمٍ مقيم، ومن عرف أنه المخلوق الأول والمكرَّم والمكلَّف يضع شهواته تحت قدمه، وهذه هي البطولة،

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهم عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ"

(أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الصحيح)

بعضهم لخّص الحضارة الغربية بكلمتين، فقال: سيطرة على الطبيعة، وبعضهم لخص الحضارة الإسلامية بكلمتين، فقال: سيطرةٌ على الذات، غير المؤمن كالحيوان الجموح، يتحرَّك بلا ضوابط، بينما المؤمن مقيدٌ بالأمر والنهي، لذلك إذا دعته شهوته إلى معصية الله جعل شهوته تحت قدمه .

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا :

بالمناسبة ما كان الله ليعذب قلباً بشهوةٍ تركَها صاحبُها في سبيل الله، أيُّ إنسان إذا شعر بنزوع نحو شهوةٍ ما، وترك هذه الشهوةَ لله، فما كان الله ليعذب قلبه بهذه الشهوة، بل إنّ الله سبحانه وتعالى يرزقه حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاه، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

" من غض بصره عن محارم الله رزقه الله حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاه ".

(ورد في الأثر)

أيُّ منظرٍ جميلٍ تتوق له النفس، فإذا قلت: إني أخاف الله رب العالمين، أعطاك الله سعادةً تفوق هذه الشهوةَ التي حرمت نفسك منها بملايين المرات، وهذا هو سر الدين، فأنت إنسانٌ لك جسم، ولك نفس، جسمك له طباع، ونفسك لها خصائص، نفسك مفطورةٌ على معرفة الله وعلى طاعته، وجسمك مفطورٌ على الراحة، لذلك كل التكاليف تتناقض مع طبيعة الإنسان، وكل التكاليف تتوافق مع فطرة النفس، فالفطرة متوافقة مع الأمر والنهي، الإنسان لا ترتاح نفسه إلا إذا أطاع الله عزّ وجل، لا ترتاح نفسه إلا بطاعة الله، لكن جسمه قد تتناقض حاجاته مع الأمر والنهي ، الصيام يتناقض مع حاجات الجسد، غض البصر يتناقض مع حاجات الجسد، إنفاق المال يتناقض مع حاجات الجسد، أداء الصلوات يتناقض مع حاجات الجسد، إذًا: هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل الآية : 5-7)

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات الآية : 40-41)

وهذه الشهوة كلما عظّمتها ورأيتها شيئاً مهمًّا كلما ضعفت طاعتك لله عزّ وجل .

الحكمة التي استنبطها الإمام علي من أحاديث الرسول :

ويقول هذا الإمام الكبير: " زهدك في راغبٍ فيك نقصان حظ، ورغبتك في زاهدٍ فيك ذل نفسٍ "، عوِّد نفسك أن الذي يقبل عليك أعطه روحك، أعطه اهتمامك، أعطه حبك، أعطه كل ما تملك، والذي يزْوَرُّ عنك كن أنت أشد ازورارًا عنه، لأن النبي عليه الصلاة والسلام فيما ورد عنه يقول:

" لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له ".

(ورد في الأثر)

فإذا صاحبت من يعرفون قدر إيمانك، وأنت مؤمن، ودخلك محدود فهؤلاء أنت عندهم مكرَّم، إن صاحبت أهل الغنى ممن هم ضعاف الإيمان لا يرون لك قيمة عندهم، أول سؤال يواجهونك به عن دخلك، فإذا كان دخلك قليلاً ازْوَرُّوا عنك، هم زاهدون فيما عندك من إيمان ومن علم ومن حكمة، يقيمونك في ضوء مالك، إذًا: لا تصحب مَن لا يرى لك مِنَ الفضل مثلَ ما ترى له، مِن هنا فلتُصاحِب المؤمن،

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنًا وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيٌّ " .

(أخرجه الترمذي عن أبي سعيد في سننه)

إن صاحبت مؤمناً فإنه يعرف فيك الشيء الكثير، يعرف قيمة إيمانك وقيمة ورعك وقيمة علمك وقيمة حكمتك، تشعر أنك معززٌ مكرمٌ محبوبٌ عنده، أما إذا صاحبت أهل الدنيا ازدروك وازدروا إيمانك .

من علامة توفيق المؤمن :

أحد أسباب التوفيق أن تعرف من تصاحب، وقد ورد في الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري: " لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله ولا يدلُّك على الله مقاله"، أي هو متصل بالله عزّ وجل، هذا الاتصال من علامته أنك إذا جلست إليه امتلأ قلبك سروراً، أنست به، والدليل على ذلك: أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءه سيدنا الصديق مع سيدنا حنظلة، وقد رأى الصديق حنظلة يبكي، فقال له: ما لك يا حنظلة ؟ قال: نافق حنظلة، قال: ولِمَ يا أخي؟ قال: نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين فإذا عافسنا الأهل ننسى، فقال: أنا كذلك يا أخي انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما انطلقا إليه، قال:

" أما أنتم يا أخي فساعة وساعة، أما نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة ولزارتكم في بيوتكم ".

(ورد في الأثر)

وأنا أقول لكم: واللهِ ليس في الدنيا شيءٌ أسعد مِن أنْ تجالس مؤمناً، وإذا جلست مع غير المؤمن تحس بالقهر، أو بَطِر، أو تكبر، أو مسحوق، أو مقهور، أما إذا جلست إلى مؤمن تصبح منه التفاؤل لأن الأمر بيد الله، هؤلاء الذين تظنونهم أقوياء في العالم كلهم بيد الله، وكلهم في قبضة الله، ونحن ما إن نصطلح مع الله عزّ وجل حتى ينصرنا عليهم، إذًا: " إن زهدك في راغبٍ فيك نقصان حظ "، إنسان يحبك ويقدرك، طَلَبَ زيارتك أتقول له: ليس عندي فراغ؟" زهدك في راغبٍ فيك نقصان حظ، ورغبتك في زاهدٍ فيك ذل نفسٍ، وهذا القول تسمعونه مني كثيراً جداً: " الغنى والفقر بعد العرض على الله "، إنّ الحياة أمدُها قصير، وشأنها حقير، فالغني فيها غنيٌ لأمدٍ محدود، والفقير فيها فقيرٌ لأمدٍ محدود، لكنّ العطاءَ الحقيقيَّ هو ما كان أبدياً سرمدياً، فمن ضعف تفكير الناس أنهم يعطون الدنيا حجماً كبيراً، فيقولون لمن كان غنياً فيها: هنيئاً له، وأنصح لكم في هذا الموضوع أنْ تقرؤوا قصة قارون، قال تعالى:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

(سورة القصص الآية : 79-80)

وهذا الكلام لنا جميعاً، لو كنت في الدرجة الاجتماعية الدنيا، ولو كان دخلُك مِن أقلِّ الدخول، ولو كنتَ من أدنى الناس، فلا تبتئس إنْ كنتَ في رحاب الإيمـان، فأنت الفائز والمتفوق، والفالح، والناجح، وأن العاقبة لك، وأنك حققت كل النجاحات .

مرتبة الإيمان كما يبينها الإمام علي بن أبي طالب :

ويقول هذا الإمام الجليل: " الإيمان أنْ تُؤثِر الصدق حيث يضرُّك على الكذب حيث ينفعك، وألا يكون في حديثك فضلٌ على عملك، وأن تتقي الله في حديث غيرك "، طبعاً أحياناً الإنسان تنسجم مصالحه مع الشرع، لا ندري أهذا هو الإيمان، أم هذه مصالحه؟ أي عليه مبلغ من المال دَيْنًا، ومع خصمه سندٌ، وخصمه إنسان مُخيفٌ، فإن لم يدفع هذا المبلغ أقام عليه دعوى، وحَجَزَ على أملاكه، وَشَوَّه سمعته في البلد، فإذا بادر إلى دفع هذا المبلغ نجا وحفظ قدْرَه، وهذا سلوك مدني، أما الأمانة فهي غير هذا، فهذا أمين، لأنه يتعامل مع الله سبحانه .

لقد ألقيتُ درساً في المسجد قبل عام أو عام ونصف عن الأمانة، وذكرت فيه نقطة دقيقة : أن الأمانة لا تكون أمانةً كما أرادها الله عزّ وجل إلا بحالاتٍ دقيقة وخاصة، منها: أن إنسانًا أعطاك مبلغًا ضخمًا من دون أن يأخذ منك إيصالاً، ومن دون أن يُعلِم أحداً من البشر، حتى أهله، ثم مات فجأةً، فذهبتَ إلى الورثة بعد موته، وقلت لهم: إن هذا المبلغ أمانة لكم عندي فخذوه، هذه هي الأمانة، أي أنك لست مُداناً في الأرض، وبعد أقلَّ من عام عرَّجتُ على هذا الموضوع بسرعةٍ في جامع النابلسي، فجاءتني ورقة مِن أحد الحضور، وأنا واللهِ أعتز بها، وهي عندي في البيت، قال فيها صاحبُها: أنا بناءً على درس الاثنين في جامع العثمان دفعتُ عشرين مليونًا لجهةٍ لا تملك وثيقةً، ولا معرفة لأحدٍ بهذا المبلغ، فكانت هناك شراكة لي مع رب هذه الأسرة، والشريكُ لم يُعلِم أحداً بهذا المبلغ، وتوفي فجأةً، فقال لي: بناءً على هذا الدرس دفعت هذا المبلغ لأهل الميت، إذًا: هذه هي الأمانة حقًّا .

العفو، وهو أن يكون هناك إنسان نال منك أشدَّ النيل، ثم أصبح في قبضتك، وبإمكانك أنْ تسحقه، فعفوت عنه، هذا هو العفو، لذلك مكارم الأخلاق شيء ثمين جداً، فالإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك، هذا هو الإيمان، كلما تطابقَ الحديثُ مع العمل كنتَ أقربَ إلى الإيمان، وكلما صار ازدواجية، وجرى الكلام للاستهلاك، وكنتَ في وادٍ آخر، فهذا بعدٌ عن الإيمان .

الغيبة جهد العاجز :

قال هذا الإمام الجليل: " الغيبة جُهد العاجز "، أي أن الناجح في حياته، الموفَّق هذا ليس عنده وقتٌ ليغتاب الناس، لأن الوقت ثمين، كان أحد علماء دمشق الكبار الشيخ بدر الدين رحمه الله تعالى، إذا مرّ بمقهى، يقول: يا سبحان الله، لو أن الوقت يُشترى من هؤلاء لاشتريناه منهم، أي أن الوقت أثمنُ شيء في حياة المؤمن، واللهِ لو شققتَ على صدر مؤمن لتمنى أن يكون اليومُ عنده مئة ساعة، لأن رأس مالك هو الوقت، فأنت بالوقت تعرف الله، بالوقت تزداد علماً، بالوقت تزداد قرباً، بالوقت تزداد عملاً، بالوقت تصطلح مع الله، بالوقت تتوب، فأنت وقت، أو الوقـت غلاف عملك، ودائماً وأبداً ضع في ذهنك أن أتفه أعمارك هو العمر الزمني، أي المسافة الزمنية بين الولادة والموت، لكن العمر لا يقيَّم بهذه المسافة الزمنية، أو هذه المدة الزمنية، بل يقيم بحجم العمل الصالح، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، والدليل قوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

(سورة الأحقاف الآية : 19)

أضرب الآن مثلاً، وهو أن الإنسان إذا جلس في حمام، أو في حوض في الحمام، والماء فاتر، يرتاح جداً، ولكن إذا جلس فيه، أيصبح طبيباً؟ لا يصبح طبيباً فهو مستمتع، ففي الدين أشياء ممتعة، لكن لا ترفعك عند الله، لكن هؤلاء الأشخاص العظام الذين تركوا بصمات واضحة في مجتمعاتهم، هؤلاء الذين جدَّدوا الدين، هؤلاء ما اكتفوا بأحوالِ الرخاء، ولا اكتفوا بسلامة الصدر ، ولا اكتفوا بانسحابٍ من المجتمع، ولا اكتفوا براحة نفسٍ، هؤلاء بذلوا جهداً، وفتحوا بلادًا، ونشروا علمًا، وأسسوا مدارس، وتركوا آثارًا كبيرة جداً .

فاحفظوا هذه الكلمة أيها الأخوة، حجمك عند الله بحجم عملك، وكلما ازداد مقامك عند الله قدَّر اللهُ على يديك العمل الصالح، والأدلة كثيرة أيها الأخوة، هذا الذي يأتيه مَلَكُ الموت، ماذا يقول؟

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة المؤمنون الآية : 99-100)

الإنسان إذا جاءه ملك الموت لا يندم إلا على عملٍ صالحٍ فاته، فلذلك: " الغيبة جهد العاجز "، الإنسان التافه العاجز الذي لا ليس عنده شيء يقدمه للأمة، و ليس عنده شيء يقدِّمه لربنا عزّ وجل، بل شغْلُه الشاغل هو أنْ يقيِّم الناس وينتقدَهم، فضلاً أنّ هناك نهياً قرآنياً واضحاً بألاَّ يغتب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

(سورة الحجرات الآية : 12)

أمَّا التافهون فهم الذين يمضون الوقتَ كلَّه في الحديث عن الناس، مالكَ ولهم؟ اجعلْ شعارَك أنَّ لك مقاماً عند الله بحسب استقامتك وإخلاصك وعملك الصالح، هذا المقام لا يتزعزع لا بمدح المادحين، ولا بذم الذامِّين، قال تعالى:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

(سورة الإسراء الآية : 17)

الدنيا مطية الآخرة عند المؤمن :

قال هذا الإمام: " الدنيا خلقت لغيرها ولم تخلق لنفسها "، ليست هي هدفاً، ليست مقصودةً لذاتها، أيْ إذا أردت الدنيا للدنيا فهي أحقرُ مِن أن تُطلب، لكنك في الدنيا تعرف الله، وفي الدنيا تعمل الصالحات، وفي الدنيا تصطلح معه، لذلك يوم القيامة إذا دخل المؤمنون الجنة:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

(سورة الزمر الآية : 74)

فالجامعة، هل هي مقصودة لذاتها؟ لا، قد يكون الجو في الجامعة غيرَ مريح، الجوُّ أميلُ للبرد، والمقعد غير وثير، لأنه خشب، وليس للمسند انحناء، بل إنه زاوية قائمة، أما المقعد المريح جداً فهو في البيت، وفي القصور، وفي الفنادق، فالجامعة ليست مقصودة لذاتها، يجب أنْ تتخذها مطيةً للعلم والمعرفة، وكذلك الدنيا، فإنّ الإنسان الذي قصدها لذاتها هو أحمق، والحديث:

" إياك عبد الله والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين ".

(ورد في الأثر)

سمعت عن إنسان عمل مشروعًا لا يرضي الله عزَّ وجل، بل يغضب الله عليه، المشروع قائم على الموبقات، ما إن افتتح هذا المشروع ومضى على افتتاحه أسبوعان حتى مات صاحبُه، وترك ألفاً وثمانمئة مليون، إنه أحمق، وأخطر عمل هو الذي يتجدد إثمه بعد موت صاحبه، لأن الإثم مستمر، إذًا: هو غبي، فالذين تركوا صدقاتٍ جارية، تركوا علماً يُنتفع به، تركوا أولاداً أبراراً، تركوا مشروعاً خيرياً، فالخيرات تأتيهم بعد موتهم إلى أبد الآبدين، فالدنيا خلقت لغيرها، ولم تخلق لنفسها، أي لا بد من الحياة الدنيا، ولا تتوهَّمْ وتركنْ، لِمَن يقول: يا ليت سيدنا آدم لم يأكل التفاحة، لبقينا في الجنة، لا، أليس هناك دليل على أنه لا بدّ أنْ نكونَ على الأرض؟ بلى، قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة الآية :30)

في الأرض، حتى لو أنّ سيدنا آدم لم يأكل التفاحة فلا بدَّ أنْ يهبط إلى الأرض، لأن الأرض مزرعة الآخرة، الدنيا مزرعة الآخرة، أي نحن مثل الجامعة تماماً كل الميزات لا تكون لأصحاب الشهادات

العُليا إلا إذا مرّوا في هذا الدرب الإجباري، والمتفوّقون في اختصاصاتهم درسوا في الجامعة، لا بدَّ من الجامعة .

الدنيا عند المؤمن محبَّبة، ولكن لا يحبها لذاتها، بل يحبها لأنها طريقٌ إلى الجنة، يحبُّ الزواج لأنه بالزواج يعمل الصالحات، بالزواج ينجب أولاداً أبراراً، يحب العمل، لأنه بالعمل يكسب المال وبالمال يرقى إلى الله عزّ وجل، دائماً الدنيا مطلوبةٌ لغيرها لا لذاتها، فإذا طلبتها لذاتها فقد حبط العمل .

أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل :

وقال: " قليلٌ مُداوَمٌ عليـه خيرٌ من كثيرٍ مملولٍ منه "، هناك قاعدة لتناول الطعام، وهي : "اجلس للطعام وأنت تشتهيه، وقم عنه وأنت تشتهيه "، هذه قاعدة ذهبية تقاس على كلِّ شيء، أي اجعل أعمالك دائمةً، ولو أنها قليلة، فإن هذا الدوام يعطيك الثقة، ويعطيك تراكمًا، ويعطيك ثباتًا، ويعطيك رقيًّا، أما هذا الذي يفور ثم يهمد، يُقبل على العلم إقبالاً مذهلاً ثم يغيب شهراً، وشخصيات كثيرة من هذا النوع، هذا التذبذب الحاد في علاقة الإنسان مع الله هذا ليس في صالحه ، لأنه حينما يصعد صعوداً مفاجئاً قد لا يستطيع المداومة عليه فيهبط، إذا هبط أصبح معه ردة فعل معاكسة ربما انزلقت قدمه في هذا الهبوط، وربما انتكس، لذلك عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

" سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، وَأَنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ" .

(أخرجه البخاري عن عائشة في الصحيح)

فإنْ درسٌ من الدروس أعجبك فالزمه، وبعد شهر أو شهرين أو ثلاثة تشعر أنك تقدمتَ وتراكمتْ عندك قناعات، هذه القناعات حملتك على عمل معين، أي كما يقول العامة: الثبات نبات ، وأنت في الإيمان تحتاج إلى ثبات، لك دفع ثابت هذا الدفع أثبت عليه حتى ترقى عند الله .

أعدى أعداء الإنسان الجهل :

يقول هذا الإمام الجليل: " الناس أعداءُ ما جهلوا "، الناس العوام أعداء ما جهلوا، وهذا يسمونه مبدأ العطالة، فالجسم المتحرك يرفض الوقوف والسكون، والجسم الساكن يرفض التحرك ، ففي الفضاء لا يوجد قوة احتكاك، فإذا أعطي هذا القمر سرعةً ابتدائية حافظ عليها إلى ما شاء الله، لكن هو له عمر، فالجسم إذا أعطي سرعة ابتدائية يتحرك ويحافظ على حركته، وإن سكن يحافظ على سكونه، فالأجسام الساكنة ترفض الحركة، والأجسام المتحركة ترفض السكون، وأنت إذا كنت في مركبة وتوقفت فجأةً

فأنت ترفض السكون، بل تهجم إلى الأمام، هذا مبدأ فيزيائي، يا ترى، هل الإنسان العاقل مادة؟ فكل إنسان هبط مستواه عن المستوى الإنساني إلى مستوى الجماد يرفض الجديد، يرفض أنْ يصغيَ لدعوةٍ إلى الله عزَّ وجل، فيقول: هكذا نشأنا، هكذا رُبِّينَا، هكذا نحن، هكذا عاداتنا، هذا كلام الجُهَّال، الذي يقول هذا الكلام هبط إلى مستوى الجماد، أي هذا مبدؤه، مبدأ العطالة، إذا كان ساكناً يرفض الحركة، وإنْ كان متحركًا يرفض السكون، أما المؤمن فقد جاءته رسالة من الله عزَّ وجل، يقرؤها، والقرآن رسالة الله للبشر جميعهم .

فهذا الذي يعادي ما يجهل، أحمقُ كبير، مغرورٌ خطير، الناس أعداء ما جهلوا، يا أخي أصغ، ولا تكنْ كالذي يحكم على الأمور مسبقاً من دون فحص، من دون درس، من دون تأمُّل، من دون دراسة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات الآية : 6)

والإنسان لا ينبغي أن يكون إمَّعة، مَن هو الإمعة؟ الذي ينحرف مع الناس، إنْ أحسنوا أحسن، وإن أساؤوا أساء، وطِّن نفسك على أن تكون حراً، على أن تكون استقلالياً في قراراتك، على أن تكون متحركاً وفق قناعاتك، لا وفق ما يُملى عليك .

وأشهر قصة رواها البخاري ومسلم، هؤلاء الذين أرسلهم النبي في مهمةٍ استطلاعية، وأمَّر عليهم أنصارياً، وهذا الأنصاري لحكمةٍ أرادها الله عزَّ وجل، غاضبهم وغاضبوه، فأمر بإضرام نارٍ عظيمة، وقال: اقتحموها، بعض أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال: لا نقتحمها، لأننا آمنا بالله فراراً منها، فكيف نقتحمها؟ بعضهم قال: طاعة الأمير طاعة رسول الله عليه الصلاة والسلام، لما عرضوا الأمر على النبي عليه الصلاة والسلام بعد عودتهم، قال:

" والله لو اقتحمتموها لا زلتم فيها إلى يوم القيامة، إنما الطاعة في معروف " .

(ورد في الأثر)

أين عقلك؟ العاقل لا يخاف، عقله لا بدَّ من أن يتطابق مع الشرع، فتطابق العقل مع الشرع هو تطابقٌ حتمي، ليس معقولاً أن يرى عقلك شيئاً مخالفاً للشرع، ولا أن يكون في الشرع ما يخالف العقل، لأن الشرع أمر الله ونهيه، والعقل مقياس الله أودعه فيك، فإذا فكرتَ، وأعملتَ عقلك فلن تصل إلى نتيجة مخالفة للشرع، لأنَّ صحيح المنقول موافق لصريح المعقول .

ضع الموت نصب عينيك :

ويقول هذا الإمام الجليل: " اذكروا انقطاع اللذات، وبقاء التبعات "، الموت يقطع اللذات ، الطعام انتهى زمنه، هناك ولائم فخمة جداً، شيء لذيذ جداً وطيب، لذة الطعام تنتهي عند الموت ، لذة الزواج تنتهي عند الموت، لذة العلو في الأرض تنتهي عند الموت، كل هذه اللذات تنتهي عند الموت، ما الذي يبقى؟ المسؤوليات .

هذا المال، من أين اكتسبته؟ وفيما أنفقته؟ لماذا فعلت؟ لماذا تركت؟ لماذا وصلت؟ لماذا قطعت؟ لماذا رضيت؟ لماذا غضبت؟ لماذا أعطيت؟ لماذا منعت؟ لماذا جفوتَ؟، إني أرجو الله سبحانه وتعالى أن أوفَّق في توضيح هذه الفكرة، الإنسان المؤمن الصادق لا يتحرك حركة، ولا يتكلم كلمة، ولا يتصرف، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يعمل عملاً قبل أن يجهِّز لله جواباً يوم القيامة .

يقول لي: سيدي أقدر أن آخذ لابنتي بيتًا، وأنا على قيد الحياة، أقول له: هل معك لله جواب؟ يقول لي: كيف ذلك؟ فأقول له: كم بنتًا عندك؟ يقول لي: خمس بنات، فما أوضاع الأربع؟ يقول لي: ممتاز، كلُّ أزواجهنّ تجار، أما هذه فزوجها موظف، وبيتهما بالأجرة، وعلى زوجها دعوى إخلاء، الآن معك جواب لله، فاشترِ لها بيتًا، أنْ تخصّ بنتًا في بيت وحدها إذا توفر لديك ثمنُه فلا باس عليك .

أنت أيها المسلم لديك منهج الله عزَّ وجل، جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، فقبل أن تنفِّذ، قبل أن تتصرف، قبل أن تهجر، قبل أن تقطع، قبل أن تصل، قبل أن تتكلم، قبل أن تذم، قبل أن تهاجم، قبل أن تغتاب، أمعك لله جواب؟ أمتأكد أنت من هذا الكلام؟ أسمعتَ أنت، أمْ سمعتَ الناس يقولون شيئاً فقلته؟.

إذا اقترض إنسان مبلغًا، مثلاً مبلغ مئة ألف، وراتبُه الشهري خمسة آلاف أو ستة في الشهر، ووقَّع سندات موثَّقة، وبيته وُضِعَ في الرهن، ثم سُرِق منه المبلغ، فالمبلغ فوائده انتهت لأنه سرق، فماذا بقي؟ السندات، وهذا مثل ضربتُه تقريباً للفهم، فالموت يُنهي اللذات، ويُبقِي التبعات، الدنيا لذَّات بلا تبعات، لو أنّ شابًا يتحرك، يذهب ويأتي، فماذا يجري؟ يقترف معصية أو اثنتين أو أربعًا، ويقول: لم يصبِنْي شيءٌ من المكروه، فأنت في الدنيا مخيَّر، كمَثَلِ الطالب في أثناء العام الدراسي، خمسون طالباً في الصف، هذا لا ينام الليل، وهذا لا يدرس إطلاقاً، وتقول: مثلي مثله على مقعد الدراسة، ولكن بعد الفحص انظرْ إلى وضعك، أسماؤكم بالجداول، بعد الامتحان هذا مفصول، وذاك راسِبٌ، أمّا هذا فمعزَّز مكرَّم، فكل إنسان يعيش لحظته، أو يعيش الوقت الذي هو فيه، من دون أن ينظر إلى التبعات القادمة، فهو إنسان أحمق .

إلزم باب مولاك :

يقول سيدنا عليٌ كرم الله وجهه: " ما كان الله ليفتح على عبدٍ باب الشكر ويغلق عنه باب الزيادة، وما كان ليفتح على عبدٍ باب الدعاءِ ويغلق عنه باب الإجابة، ولا ليفتح على عبدٍ باب التوبة ويغلق عنه باب المغفرة "، ما أمرك أن تدعوه إلاّ ليجيبك، وما أمرك أن تستغفره إلا ليغفر لك، وما أمرك أن تشكره إلا ليزيدك من فضله .

أحياناً الإنسان، يقول: أمعقول أنْ أدعو الله عزَ وجل، ولي عدو كبير متربص بي، وأنا ضعيف أمامه؟ أمعقول إذا دعوتُ الله أنْ يخلصني الله منه؟ معقول ونصف، لأنه ما أمرك أن تدعوه إلا ليستجيب لك، فالإسلام مصدرُ تفاؤلٍ للإنسان .

وإذا قال لك طفل: كم الساعة؟ قد تكون حاملاً بيدك اليسرى حاجة ثقيلة، والكُمُّ ثابت، وتحته قميص، والساعة تغطيها ملابسُك، تجد نفسك تخجل أن تتجاهله، أليس كذلك؟ تضع الحاجة على الأرض، وتغيِّر وضعَ الساعة، وتزيح الكُمَّ، وتقول له: الساعة السابعة مثلاً، طفل سألك سؤالاً فأجبتَه، وأنت تسأل خالقك، وتقول: يا رب، أنا هذا وضعي، علمك بحالي يغني عن سؤالي ، فستجد إجابةً من الله، لكن واللهِ أفقرُ الناس مَن زَهد في الدعاء .

كلما وقع أخٌ في مشكلة كبيرة، أقول له: عليك بقيام الليل، وعليك بالسجود، والدعاء في صلاتك بالليل، وقد جاء في الحديث القدسي:

" إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربكم إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائلٍ فأعطيه؟ هل من مستغفرٍ فأغفر له؟ هل من طالب حاجةٍ فأقضيها له حتى ينفجر الفجر؟ ".

(حديث قدسي)

إن الله يحب من عبده أن يسأله شسع نعله إذا انقطع،

فعَنْ ثابتٍ الْبُنَانِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ حَتَّى يَسْأَلَهُ الْمِلْحَ وَحَتَّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ " .

(أخرجه الترمذي عن ثابت البناني في سننه)

أيها الأخوة، وطِّن نفسك قبل كل عمل، قبل أنْ تقابل إنسانًا، قبل أنْ تجري عملية أيها الطبيب للمريض، قبل إلقاء الدرس أيها المدرِّس، قبل عقد صفقة أيها التاجر، قبل كل أمرِ ذي بالٍ، قل: يا رب أنا لا أعلم، وأنت تعلم، أنا لا أقدر، وأنت تقدر، وفّقني يا رب، وألهمني الصواب، أنطقني بكلامٍ يرضيك، أعنِّي على طاعتك، احفظني يا رب أنْ تزل قدمي .

هذا هو حال المؤمن، كلما تحرك لأعماله، وقبل أنْ يخرج من بيته فلا بدَّ مِن الدعاء، في بالبيت مشكلة، فلا تقل: أنا أعالجها، بل قل: يا رب ألهمْني الحكمة، أحياناً تطلّق زوجتك في ساعة غضب، ثم

تطرق أبواب المشايخ، فيقولون لك: طلقت، وإنّ الذي أعطاك فتوى فأنت لست مرتاحًا لها، وقد يشدِّد عليك ويخوِّفك، ويغلق دونك البابَ، فالإنسان قبل أن يتورط لو دعا الله عزَّ وجل لمَا وصل إلى هذا المستوى .

تفسير الزهد في رأي الإمام علي بن أبي طالب :

قال هذا الصحابي الجليل الإمام عليٌ كرم الله وجهه: " الزهد كلّه بين كلمتين من القرآن الكريم، قال: لكي لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم "، وعن أَبِي الدَّرْدَاءِ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

" لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَة وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ " .

(أخرجه أحمد عن أبي الدرداء في مسنده)

" لكي لا تأسوا على ما فاتكم "، الأمور تجري بالمقادير، الإيمان بالقدر نظام التوحيد، الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن، كلُّ شيءٍ أراده الله وقع، وكلُّ ما وقع أراده الله، مشيئة الله عزَّ وجل متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته بالخير المطلق، هذه حقائق ثابتة، فلذلك، " لكي لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم " .

الإنسان بين الندم الساحق، وبين الخفة الرعناء التي تأتي بعد العطاء، خفته بعد العطاء دليل جهله، ويأسه دليل جهله، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام في خطبةٍ رائعةٍ جداً ألقيتُها على مسامعكم آلاف المرات، يقول:

" إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عُقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عِوضًا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي ".

(ورد في الأثر)

هذه هي الحقيقة، فمَن عرَفها لم يفرح برخاء، لأنها مؤقتة، ولم يحزن لشقاء، لأنها موقتة ، لذلك يقول هذا الإمام الجليل: " الزهد كلّه بين كلمتين من القرآن الكريم، قال: لكي لا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم " .

لا تغرنك الدنيا يا مسكين فإنك ميت حتماً :

يقول هذا الإمام الجليل: " الرزق رزقان طالبٌ ومطلوب، فمن طلب الدنيا، طلبه الموت حتى يخرجه عنها "، حدثني أخ يسكن بشارع برنية، في بناية مِن اثني عشر طابقًا، قال: جاء إنسان واشترى شقتين، البيتين مكسوَيْن على التمام، قال لي: والله كسَّر البلاط كلّه، وكسّر السراميك، وغيَّر كل شيء في هذين البيتين، وأحدَثَ ترتيباتٍ أخرى، البلاط إيطالي، الألمنيوم مِنَ البرونز، أي أنه عمل ترتيبات جديدة في البيت، قال لي: طيلة سنتين بالتمام والكمال، وهو يكسو هذين البيتين، رغم أنهما مكسوان كسوةً مَن الطراز الأول، يقسم بالله أن هذا الإنسان بعد إن انتهى من كساءِ البيتين بأسبوع انتهى أجله، فهذه هي الدنيا، قال: " الرزق رزقان طالبٌ ومطلوب، فمن طلب الدنيا طلبه الموت " .

أخ آخرُ يبيع مفروشات، قال لي: جاءني شخص غريبٌ أمرُه، يريد غرفة نوم، بدأ مِن الخشب، فأخذنا له خشبَ جوز، وتركناه ينشف سنتين، بعد ذلك طلب الكتلوكات، ستة أشهر حتى انتقى موديلاً، بدأنا في الشغل، وكل يوم يراقب العملَ، قال لي: ذات مرة انبطح تحت التخت ونظر، وقال: هل به عقدة؟ وكان فيه عقدة، القصة طويلة، بقينا سنة ثانية نشتغل بغرفة النوم إلى أن انتهت، وعلِقنا بالمسكات ستة أشهر ثانية، بعد ذلك انتهت الغرفة، ووضعناها في الصالة، وقدِم ناسٌ كثيرون لكي يشتروها، فنقول: هذه الغرفة مباعة، تعبَ منها كثيرًا، عليها طلب، وأخيرًا، قال له: تعال وخذْها، قال له: حتى أدهن الغرفة، لكي يدهنها يحتاج شهرًا أيضاً، أول وجه معجون، الثاني، الثالث، الرابع، الخامس، السادس، بعد ذلك قال له: الخميس سوف آخذها، جرتْ مشادة، قال له: الخميس إذا لم تأخذها سوف أبيعها، اتّصل به يوم الخميس، قال له: دعْها أسبوعًا آخر، وسوف آخذها، فوافقه على ذلك، ثم اتّصل به في الخميس الثاني، فسمع عند اتصالهِ ضجة في البيت، فقال لزوجته: يا أختي غرفة النوم، قالت له: مات صاحبها، هذه هي الدنيا، إنه يريد الدنيا، لكنّ الموت يطلبُه، حتى يخرجه منها، ومن طلب الآخرة، طلبته الدنيا، يأتيه رزقه وهو راغم، ومَن طلب الآخرة طلبته الدنيا، الله ييسر له أموره حتى يستوفي رزقه منها، كلام رائع جداً.

والكلمة الشهيرة التي أقولها لكم دائماً: " من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر أخرته على دنياه ربحهما معاً ".

هذه زفرة الحسرة يوم القيامة :

قال: " إن أعظم الحسرات يوم القيامة، حسرة رجلٍ كسب مالاً في غير طاعة الله، فورثه رجلٌ أنفقه في طاعة الله، فدخل به الجنة، ودخل الأول به النار "، شيء مخيف يعمل خمسًا وخمسين سنة، يجمع

ثروة طائلة، كلها مِن مصادر مشبوهة بالحرام، والكذب، والغش، والخداع ، ويموت ويذهب إلى جهنم، ثم يأتي الوريثُ فيأخذ هذا المال جاهزًا، ينفقه في طاعة الله فيدخل به الجنة، هذا أندم إنسان، وأندمُ الناس رجلاً دخل بعلمه الناس الجنة ودخل هو بعلمه النار .

وذات مرة قرأت ثلاثة أدعية أعجبتني في كتابٍ في التصوف:

الدعاء الأول، يقول: " اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علمتني مني" .

يا ربي أنا أعوذ بك أن أعلم الناس آية قرآنية، أو حديثًا شريفًا، ثم يكون المتعلّم أسعدَ مني، يتعلمها إنسان، ويطبِّقها، ويستفيد منها، ويتألّق، وأنا لم أطبِّقها فأخسر .

والدعاء الثاني: " اللهم إني أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحدٌ سواك "، كلمة حق لكن يلتمس بها رضى الناس .

والدعاء الثالث: **" اللهم إني أعوذ بك أن أتزيَّن للناس بشيءٍ يشينني عندك "** .

(أدعية مأثورة)

لا أرغب أنْ أكون قصة، انظروا فلانً فعل كذا وكذا، فانتهى حاله إلى كذا وكذا، أعوذ بالله أنْ أكونَ قصة، وقالة سوءٍ، فالله سبحانه يقول:

(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

(سورة سبأ الآية : 19)

وهذه كلمة موجزة، أذكرها لكم: هناك كراس، وخشبة مسرح، إذا كنتَ مستقيمًا فلك محل مع المشاهدين، وإذا لم تكن مستقيماً تنشَدُّ إلى الخشبة، فتأخذ عدّةَ لكماتٍ فوق المسرح، وتصبح قصة، وتصبح مُشَاهَـد، هناك من يُشَاهِدك وأنت المُشَاهَد، فإذا أردت أن تبقى مع المشاهدين فاستقم كما أمر الله، وإذا أردت أن تكون قصة وأردت أن تكون حدثاً مثيراً يتحدث الناس به، فلك ألا تستقيم عندئذٍ، الآن انظروا إلى الحوادثِ في البلد، جريمة وقعت، تكون بسبب معصية كبيرة، هذه الجريمة يتناقلها الناس، وتكتبها الصحف، تصبح حديث المجالس إلى سنة، فأبطال الجريمة ومن حولهم أصبحوا خبراً، فأنت إذا كنت مستقيماً فلك مكانٌ مع المشاهِدين، فإن لم تكن كذلك فالأمر خطير .

لا تشكو همك إلا لمؤمن :

يقول هذا الإمام الجليل: " من شكا حاجة إلى مؤمنٍ فكأنما شكاها إلى الله، ومن شكاها إلى كافر فكأنما اشتكى على الله "، هذه نصيحة لأخواننا الكرام، لك قريب دينُه رقيق، اتجاهه غير إسلامي بل هو علماني، تفكيره غير سليم، وقعت في مشكلة، لا تحدِّثه بها إطلاقاً، لأنه سيقول لك: ألم أقل لك؟ قلت لك:

إن هذا الطريق لا تمشي فيه، ويشمت بك، تكون حينئذٍ قد سلّمته رقبتك، سلّمته معلومات ينفث بها سمومه، فإياك أن تشتكي إلى كافر، إذا كنت متضايقًا جداً فاشتكِ إلى مؤمنٍ ولا حرج، شكواك للمؤمن كأنك تشكو إلى الله عزَّ وجل، فيمكن للإنسان أنْ يبوح فيرتاح، لكن اجعل هذا البوح إلى مؤمن، أما أن تبوح بمشكلتك إلى الله فهو الأكمل، قال تعالى:

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف الآية : 86)

هناك أخ أرجو له المغفرة والجنة، أصيب بمرض خبيث، وأعلمه مستقيماً، وأعلمه مؤمناً، تقول زوجته: ثلاث سنوات ما قال كلمة تغضب الله، وهو يتحمّل أشدّ الآلام، هذا هو المؤمن، قال تعالى:

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف الآية : 86)

عبدي أنفق أنفق عليك :

قال: " إن لله تعالى عباداً يختصهم الله بالنِعَم لمنافع العباد فيقرها بأيديهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم ثم حولها إلى غيرهم "، أحيانا تجد شخصًا منعمًا عليه، لكنه مِعطاء، إذا غيَّر سياسته، فَمَالَ لقبض يده، تذهب هذه النعم من بين يديه، قصة أقولها لكم كثيراً: بيت من بيوتات دمشق الكبير فيه شجرة ليمون، تحمل أربعمئة أو خمسمئة ليمونة سنويًّا، شيء عجيب! ما مِن إنسان يطرق هذا الباب، ويقول: عندكم ليمونة؟ فتعطيه ربةُ البيت، ثم توفيت، وهي كبيرة في السن، وبقيتْ زوجةُ ابنها الشابة في الدار، فمَن طرق الباب يطلب ليمونةً تصدُّه خائبًا، وفي السنة الثانية يبست الليمونة .

هذا مثل مادي بسيط، عندك نعمة أقرَّها الله عزَّ وجل في يديك فابذلْها، فإذا منعتَهَا حوَّلَها إلى غيرك، أحياناً يكون أخ رزقته كثيرة لكنه يرعى أخوته كلهم، سر الغنى أنه يعطي أخواته جميعاً، حينما تقول له زوجته: الله ما كلّفك بهم فاتركْهم، فإذا استجاب إلى توجيهات زوجته العزيزة، خفَّ الرزقُ شيئًا فشيئًا حتى لم يكفِه دخلُه، يقول: أين؟ والله كنت في بحبوحةٍ كبيرة، لقد كنتَ تعطي، واللهُ جعل رزقك ورزق من تعطيهم عن طريقك، توقف العطاءُ، يقول لك: ليس لك عندي عطاء .

لا مؤاثرة في الخير :

يقول هذا الإمام الجليل رضي الله عنه: " افعلوا الخير، ولا تحقروا منه شيئاً فإن صغيره كبير، وقليله كثير، ولا يقولن أحدكم: إن أحداً أولى بفعل الخير مني، فيكون والله كذلك "، قال تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين الآية : 26)

وفي الإسلام قاعدة أساسية: " لا مؤاثرة في الخير"، أمٌّ لها عدّةُ أولاد، لو قال أحدهم: أنا سأفسح المجال لأخي لكي يخدمها، هذا كلام خلاف الشرع، أنت آثرتَه في مرضاة الله، هذا لا يجوز إطلاقاً، لا مؤاثرة في الخير، والخير كله في المؤاثرة، فأن تؤثر أخاك على نصيبك مِن الله فهذا شيء غير مقبول إطلاقاً .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا علي بن أبي طالب - الدرس (6-8) : من أقواله وحكمه -2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-11-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

ما معنى الحكمة ؟

أيها الأخوة، مع الدرس السادس من دروس سيدنا علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، ولا زلنا نقف عند حكمه، وقد يسأل سائل: ما معنى الحكمة؟ هي عبارة عن تجارب إنسانية طويلة، كُثّفت في كلمات، في مجال العلوم شيءٌ اسمه البحث العلمي، البحث العلمي قد يكون في صفحتين أو في صفحةٍ واحدة، وقد يكون في معادلةٍ واحدة، وقد يستغرق من الجهد البشري ما يزيد عن خمسين عاماً، أو أربعين عاماً، ملخَّص هذه الدراسات، وتلك التجارب، وهذه الملاحظات وتلك الإحصاءات خلال خمسين عاماً تكتب في صفحةٍ واحدة، أيعقل أن صفحة واحدة استغرقت كل هذه الجهود؟ الحقيقة أن هذه الصفحة مكثفة جداً، وكذلك الحكمة، الحكمة كلامٌ موجز وبليغ، لكن الإنسان خلال حياته كلها يخطئ ويصيب، وفي نهاية المطاف يستنتج حقائق يصبّها في حكمٍ بليغة وموجزة، فإياكم أن تستهينوا بهذه الحِكم، إنها خلاصة معرفةٍ بالله، وخلاصة تطبيقٍ لمنهجه ، وخلاصة تفاعل من معطيات البيئة، ومن أشخاصٍ، ومن ظروفٍ، ومن أشياء كثيرة .

فهذا الصحابي الجليل كان حكيماً، وقد وصفه النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: " أنا مدينة العلم وعليٌ بابها " .

من كمال العقل ورشده :

اسمعوا مني هذه الحقيقة، كلما ارتقى الإنسان يستفيد من تجارب الآخرين، وكلما هبط مستواه لا يستفيد من هذه التجارب، هناك مبدأ يقول: " الإنسان لا يتعلم إلا من تجربته الشخصية " فمهما استمع إلى حقائق أو إلى حِكم أو إلى ملاحظات أو إلى توجيهات فإنه لا يتعلّم تعلماً حقيقياً إلا إذا عانى معاناةً مؤلمة، هذا القول ربما استُنبط من واقع معظم الناس، لكن نخبة الناس، لكن الصفوة من الناس تستطيع أن تستفيد من تجارب الآخرين، أي أن الإنسان أحياناً لا يتعلم إلاّ بعينه، لكن إذا ارتقيت تتعلم بعقلك، فقد تدرك الخطر قبل أنْ يقع، وتأخذ حذرك منه، أما الذي لا يتعلم إلا إذا واجه الخطر فهذا إنسان ضعيف العقل .

إليكم مغزى هذه القصة :

القصة التي أرويها على مسامعكم كثيراً، وهي قصة السمكات الثلاث، الكيسة والأكيس منها والعاجزة، الكيسة هي العاقلة، والأكيس الأعقل، والعاجزة الغبية، فحينما مرّ بهذا الغدير صيادان تواعدا أن يرجعا، ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك، سمعت السمكات قولهما، أما أكيسهن فإنها ارتابت وتخوَّفت، وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، ولم تعرج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فنجت .

فمَن هو العاقل؟ هو الذي يتخيل الخطر قبل أن يواجه الخطر فإنه يتخيله تخيلاً، ومَن هو الطالب الذي ينال الدرجة الأولى على القطر في الشهادة الثانوية؟ هو الذي يتخيل الامتحان قبل سنوات ثلاث، أي من الصف العاشر، وبالمناسبة إن التخيل من خصائص الإنسان، وهي نعمة كبيرةٌ أنعم الله بها علينا، وبإمكان خيالك أن يصل إلى الخطر قبل أن تصل إليه أنت، فالعاقل هو الذي يتخيل المستقبل فيتكيف معه منذ الوقت الحاضر، هذا هو العاقل، وأما الكيِّسة فمكثت في مكانها، دائماً الأقل عقلاً يرجئ ويسوِّف، غداً أتوب، غداً أهيئُ البيت لفصل الشتاء، يقول لك: الدنيا صيف فيأتي البرد فجأةً، وكل شيء في البيت لا يصلح لفصل الشتاء، الأقل عقلاً يرجئ ويرجئ ويسوّف، فبقيت في مكانها حتى عاد الصيادان، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها، فإذا بالمكان قد سُد، فقالت: فرَّطت، وهذه عاقبة التفريط، غير أن العاقلَ لا يقنط من منافع الرأي، وتعلمون النتيجة، ثم إنها تماوتت فطفت على وجه الماء، وأخذها الصياد وأمسكها بيده، فوضعها على الأرض بين النهر والغدير، فوثبت في النهر فنجت، وأما العاجزة فلم تزل في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صيدت .

يمكن أن أقول لكم: العاقل يعيش مستقبله، والأقل عقلاً يعيش واقعه، والغبي يعيش ماضيه، فإذا كنت عاقلاً يجب أن تعيش في مستقبلك، وأخطر حدثٍ في مستقبلنا هو حدث الموت، مغادرة الدنيا إلى أين؟ ماذا في القبر؟ ماذا بعد الموت ؟.

هذا هو الإنسان المستدرج :

يقول هذا الصحابي الجليل سيدنا على بن أبي طالب كرم الله وجهه: " كم من مستدرجٍ بالإحسان إليه، ومغرورٌ بالستر عليه، ومفتونٌ بحسن القول فيه، وما ابتلى الله سبحانه وتعالى أحداً بمثل الإبلاء له "، إنسان أحسن الله إليه أتم عليه الصحة، رزقه رزقاً وفيراً، أعطاه قوةً كبيرةً، رزقه زوجة وأولاداً، يقول هذا الإنسان: لولا أنّ الله يحبني لما أكرمني؟ هذه مقولةٌ خاطئة، لا تستطيع أن تقول هذا الكلام إلا إذا نظرت إلى عملك، فإن كان على منهج الله عزَّ وجل فأنِعْم وأكرمْ بهذا الكلام، بإمكانك أن تعدّ النعمَ التي

تكرّم الله بها عليك نعماً حقيقية، أما مع الصحة أن تكون هناك معاصي، مع الصحة تجاوزات، مع الصحة الدخل المشبوه، وتقول: الصحة مِن نِعَمِ الله علي، لا، فأنت مستدرَج، ليست هذه نعمة، إنما هي استدراج .

بالمناسبة أيها الأخوة، ما من إنسانٍ إلا وهو ممتحنٌ في الحياة الدنيا مرتين، مرةً بما أعطاه الله، ومرةً بما حرمه الله، فالذي أعطيت إياه أنت ممتحنٌ به، والذي سُلب منك فأنت ممتحنٌ به، أعطاك صحةً، أحد مواد امتحانك الصحة، أعطاك مالاً، أحد مواد امتحانك المال، حرمك المال، حرمانك من المال امتحان، ماذا تفعل؟ أتأكل مالاً حراماً؟ أتسخط على قضاء الله وقدره؟، وطّنوا أنفسكم على أنكم ممتحَنون، لهذا قالوا: " الحظوظ توزع في الدنيا توزيع ابتلاء لتوزَّع في الآخرة توزيع جزاء " .

إن كنتَ ثريًّا فأنت لست على الله كريماً، ولست وضيعاً، هذا أمرٌ حيادي، لا تعرف إذا كان هذا إكراماً أم نقمةً إلا بإنفاقك للمال، فالحظوظ كلها حيادية، وهي في الوقت نفسه درجاتٌ ترقى بها، أو دركاتٌ تهوي بها .

والشيء الذيُ يضحِك أنّ أهل الغنى، وأهل القوة، وأهل الوسامة، هؤلاء يتوهمون أن الله يحبهم كثيراً، ولولا أنه يحبهم لما جعلهم بهذا الوضع، وكلمة العوام الشائعة أي أن الله عزَّ وجل إذا أحب عبده أرجاه ملكه، يذهب يسافر إلى بلاد أجنبية، يرتكب كل المحرمات، ينسى ربه، ينغمس في الشهوات المنحطة، وفوق هذا يقول: إذا الله أحب عبده أرجاه ملكه، هذا كلام مضحك، " كم من مستدرج بالإحسان إليه ومغرورٌ بالستر عليه "، الله ستّير، وهو من أسمائه الحسنى، لكن هذا السّتر ليس إلى مالا نهاية، فإذا استخف الإنسانُ بستر الله عزَّ وجل يفضحه في عقر داره، إذا استخف بستر الله عزَّ وجل يفضحه بطريقة غريبة، هذا الذي يُكِنُّه يظهر للملأ، هذا الذي يخفيه يشيع عنه، إذًا: " ما أسر عبدٌ سريرةً إلا ألبسه الله ثوبها " .

لما ربنا عزَّ وجل يعاقب الإنسان، قد يسأل: لماذا عاقبني ربي؟ أما إذا أكرمه وليس بالمستوى المطلوب، فهذا استدراج، وربنا عزَّ وجل قال:

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة القلم الآية : 44-45)

لماذا قال متين؟ متين كلمة يعرفها أخوتنا الفيزيائيون، المتانة صفة في الجسم تقاوم قوى الشد، أما القساوة صفة في الجسم تقاوم قوى الضغط، الإسمنت يتحمل السنتيمتر مكعب فوقه مئتي كيلو ، وإذا كان صب بطريقةٍ صحيحةٍ أصولية يتحمل خمسمئة كيلو، لكن هذا السنتيمتر مكعب للإسمنت لا يتحمل خمسة كيلو على الشد، خمسة كيلو ينقطع، من خمسمئة كيلو إلى خمسة، لذلك الإسمنت لا بد له من تسليح بالحديد، كي يقاوم قوى الشدِّ لا قوى الضغط، أحيانًا تجد دعامة حاملة بناء ثلاثة عشر طابقًا،

أستغرب، حجم الدعامات قليل، وتحمل بناءً ضخمًا، الإسمنت يتحمل قوى الضغط، ولا يتحمل قوة الشد، وربنا قال:

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة القلم الآية: 45)

كأن كيد الله عزّ وجل حبلٌ مرخى، فهذا الحبل المُرخى يظنه الإنسان أنه ليس حبلاً، هو طليق يقول لك: أين الله؟ يأكل المال الحرام، ينهش أعراض الناس، يظلم، يتكبر، ينتقل من مائدة حمراء إلى مائدة حمراء، من ليلة حمراء، إلى ليلة حمراء أخرى، ومن مائدة خضراء إلى مائدة خضراء غيرها، ومن مقصف إلى ملهى، ويقول لك: أين الله؟ إنّ كيدي متين، حينما يأتي أمر الله عزّ وجل إذا هو في قبضة الله لا يلوي على شيء .

أيها الأخوة، " كم من مستدرجٍ بالإحسان إليه مغرورٌ بالستر عليه، ومفتونٍ بحسن القول فيه، وما ابتلى الله سبحانه وتعالى أحداً بمثل الإبلاء له "، فأنا لا أكتمكم أن المصيبة الآن بعد هذا الشرح أقل خطرًا مِن العطاء، لأن الإنسان بالمصيبة يتنبه، ماذا فعلت حتى ساق الله لي هذه المصيبة؟ فإذا كان وضعُ الإنسان وسطًا، وعنده مجموعة متاعب، واللهُ يحاسبه حسابًا عسيرًا، ويتتبعه على أدقّ الخطرات، فهذا من كرامته على الله .

من أبواب الرزق :

قال: " إذا أملقتم فتاجروا بالصدقة "، إذا كان الإنسان يشكو من قلةٍ في دخله، هناك مجموعة وصفات، مجموعة وسائل تنمي هذا الدخل:

1- استقم على أمر الله، لقول الله عزَّ وجل:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً)

(سورة الجن الآية : 16-17)

2- كن أميناً أمانة مطلقة:

فالأمانة لا تتجزَّأ، سكرةٌ صغيرة، وأنت في محل سكاكر، وهناك عشرات، بل مئات، بل ألوف الأوزان والأنواع، هذه السكرة لا تأكلها بغير حق، لأن الأمانة لا تتجزأ، قال عليه الصلاة والسلام:

" الأمانة غنى ".

(ورد في الأثر)

إذا كنت أميناً، ووَثِق الناس بك، أعطوك كل ما تريد، فإذا شعروا أن فيك خيانةً، أثمن وأعظم رأس مال تملكه، ما هو؟ أن يثق الناس بك، ثقة الناس لا تأتي باليسير، الإنسان يمر بتجارب كبيرة جداً، ويمتحن امتحانات كبيرة جداً، إلى أن يستقر في أذهان الناس أنه أمين، وأنه كفؤ موثوق، لذلك إذا أملقتم، يعني إذا افتقر الإنسان، فأول شيء عليه أنْ يستقيم، لقول الله عزَّ وجل:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً)

(سورة الجن الآية : 16-17)

3- أن يصل الرحم:

لأن صلة الرحم تزيد في الرزق .

4- أنْ يتقن عمل:

لأن إتقان العمل جزءٌ من الدين، وهو سببٌ في ترويج حرفتك وصناعتك ودخلك، فماذا بقي؟ الصدقة، استمطر الرزق بالصدقة، كلما ضاقت بك الأمور تصدق على نية أن ترزق بهذه الصدقة، وهذا ما قاله الإمام عليٌ كرم الله وجهه: " إذا أملقتم، فتاجروا بالصدقة " .

علاج الجسد :

يقول هذا الإمام الجليل: " صحة الجسد من قلة الحسد "، الحسود عليه ضغوط نفسية، يسميها العلماء الآن الشدة النفسية، أول سؤال لمريض القلب: هل تعاني مشكلة؟ لأن هذه المشكلة تسبب جلطة، هذه المشكلة تسبب ارتفاعًا في ضغط الدم، هذه المشكلة تسبب ارتفاعًا في السكر، هذه المشكلة تسبب ارتفاعَ آلامٍ في العضلات، الآن الطبُّ الحديث يبحث عن الأسباب النفسية للأمراض العضوية، فهذا الصحابي الجليل، يقول: " صحة الجسد من قلة الحسد "، لكن صحة النفس، ما أساسها؟ التوحيد، فالتوحيد مريح، الدليل القرآني:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء الآية : 213)

إذا أيقنت أن لهذا الكون إلهاً واحداً، وهو سميعٌ، بصيرٌ، عليمٌ، حكيمٌ، غنيٌ، قويٌ، عادلٌ ، رحيمٌ، وأن أمْرَك كلّه عائدٌ إليه ترتاح، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود الآية : 123)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف الآية: 84)

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف الآية : 54)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر الآية : 62)

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود الآية : 56)

(قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف الآية : 26)

إذا أيقنت هذا اليقين فعلاقتك مع الواحد الأحد فقط، كل هؤلاء صور، وكل هؤلاء الأشرار المخيفون عِصِيٌ بيد الله، صدق القائل:

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجب نا فإنا منحنا بالرضى مَن أحبنا

ولذ بحمانا واحتمِ بجنابنـــا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

أيها الأخوة، إنّ المؤمن الصادق المستقيم يتمتّع بنعمةٍ، واللهِ لا تعدلها نعمة، إنها نعمة الأمن، قال تعالى:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام الآية : 81-82)

أربع كلمات أقولها لكم: الطب النفسي أساسه التوحيد، والطب الطبيعي أساسه بذل الجهد ، والطب الوقائي أساسه الاعتدال في كل شيء، والطب العلاجي أساسه استعمال الدواء .

شيئان متناقضان :

يقول هذا الإمام الجليل: " مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وحلاوة الدنيا مرارة الآخرة "، الإنسان في الدنيا إذا كان غارقاً في شهواته، هذه حلاوةٌ ولا شك، و لكن تعقبها مرارةٌ إلى يوم القيامـة وإلى أبد الآبدين، بينما لو أنك تحمَّلت بعض متاعب الإيمان تمتعت وسعدت بجنةٍ عرضها السموات والأرض إلى أبد الآبدين .

هناك أمثلة في الدنيا، لو أنّ إنسانًا درس دراسة عالية جداً، واختص اختصاصًا نادرًا، ودرس ثلاثة وثلاثين سنة، ولا ينام الليل، ودخل امتحانات، وقدَّم فحوصًا، وخضع لتجارب، وخضع لأمزجة مدرسين متنوعة، وكان همُّه الأولُ أن ينجحَ في الامتحان، ليحتل منصبًا رفيعًا، أو مهنة راقية، ليأتيه دخلٌ وفير بجهدٍ قليل، هذا الدخل الوفير مع الجهد القليل ثمنُه الليل الطويل، وإذا التفـت الإنسان إلى أيام دراسته، يأتي عليه وقت يرى أن كل الناس هو أفضل منهم، فقد أضر بآخرته، فلذلك عَن أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

" مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى " .

(أخرجه الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري في مسنده)

عرفت الله بنقض العزائم :

وهذا الإمام العظيم يقول قولاً رائعاً: " عرفت الله سبحانه وتعالى بنقض العزائم " الإنسان قد يخطط، ويدرس الأمر دراسة جيدة، ويغطي كل الاحتمالات، يأخذ بكل الأسباب، يعتمد على قوته، وعلى ذكائه، وعلى أعوانه، وعلى ماله، وعلى رأي من حوله، وينسى الله عزّ وجل، أي أنه يعتمد على هذه الأسباب كلها، فلو أن الله عزّ وجل حقق له مراده، لقال لك: أين الله؟ مثل هذا الإنسان الذي يأخذ بالأسباب ويعتمد عليها، مثل هذا الإنسان يعالج بنقض هذه العزائم كلها، فتجده على الرغم من كل الاحتياطات التي أخذها، ومن كل الأسباب التي فعلها، ومن كل التدابير التي دبَّرها يصابُ بفشلٍ وإخفاقٍ من جهةٍ لم تخطر له على بال .

أنا أعرف رجلاً لا داعي إلى وصف مزاياه الدنيوية، بلغ إنْ صحّ التعبير إلى قمة النجاح في الدنيا، مِن عشرين إلى ثلاثين مؤسسة تجارية وصناعية مِلْكه الشخصي، موظفون يتحركون بإشارةٍ منه، المركبات، الصحة الطيبة، فتشعر أنّ الدم يكاد أن يخرج من جلده من شدة تورده، والطعام الذي يأكله، والقوة التي يتمتع بها، والأنصار مِن حوله، أعرفه جيداً، اعتمد على ذكائه، وعلى أعوانه، وعلى اتصالاته، وعلى أمواله المنقولة وغير المنقولة، دخل الحمامَ فرأى القاطع الكهربائي غير صالح، فجاء

بإنسان يصلحه له، فقال له: سيدي إنه منخفضٌ، هل أرفعه لك ؟ فقال له: ارفعه، في اليوم التالي تعطلت الكهرباء في بيته فجاء ليحرك القاطع الواصل، ولكن القاطع صار أعلى من طوله فطلب كرسيًا من ابنته في البيت، فلما صعد على الكرسي اختل توازنه، ودخلت إحدى أرجل هذا الكرسي في مقعدته، أخذ إلى المستشفى، وبقي فيها عشرين يوماً ، زاره أكثر من عشرين طبيباً، وقد انتهى أجلُه بهذه الحادثة، وأصيب بتسمم في الدم لأتفه سبب، قال سيدنا عليٌّ: " عرفت الله سبحانه وتعالى بنقض العزائم" .

هذا الكلام خطير جداً، فحينما تأخذ بالأسباب وتعتمد عليها فلا بدّ أن يكشف اللهُ لك الحقيقة، أن هذه الأسباب التي اعتمدت عليها والتي عبدتها من دوني لن تنفعك أبداً، وسوف تفاجأ بأن نقضها على الله يسير: " عرفت الله سبحانه وتعالى بنقض العزائم " .

أي الأعمال أفضل ؟

قال: " أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه "، علمونا في الجامعة أن الطرق التربوية الصحيحة تقاومها النفس، الآن في الدراسة أهون شيء هو أن تفتح الكتاب، وتضجع على السرير وتقرأ، يقول لك: أنهيت سبعين صفحة، وهذا شيء جميل، أعد لنا صفحة، لا تتذكر شيئًا، لأنه يقرأ، ويقلب الصفحات، هذه الطريقة سهلة جداً، وتحبها النفس، لكن الطريق الصعبة هي أن تفتح الكتاب، وأن تمسك بالقلم والمسطرة، والدفترُ أمامك، والفكرة الدقيقة تضع تحتها خط، ولها رقم، وهذه الفقرة تلخَّص في الهامش، وهنا أسلوب رائع أن تشير بالقلم الأحمر إلى هذه الجملة الهامة، الدراسة بهذه الطريقة تقاومها النفس، تحتاج إلى جهد كبيرٍ، لكن هذه هي الدراسة المجدية فقط، أما تلك القراءة السريعة فلا غناء فيها، العلماءُ أجروا بعض التجارب، فوجدوا أنَّ ثلاثة وتسعين في المئة مما قرأته قراءةً سريعة تنساه بعد أسبوعٍ واحد .

أخواننا الطلاب، هذه القراءةُ مضيعة للوقت، فالطرق التربوية الصحيحة تقاومها النفس، اجلسْ مثلاً أمام آلة كاتبة بأصبع واحد، لو تضرب ثلاثين سنة فإنك تحتاج لإنجاز الصفحة الواحدة ساعة، أو ساعة ونصف، بينما إذا دخلت مكتب تعليم الضرب على الآلة الكاتبة فممنوع أنْ تكتب بإصبع واحد، بل عليك أنْ تكتبَ بالعشرة، يا أخي ضعت، بل إنَّ الطريقة الصحيحة أنْ تكتب بالعشرة، اذهب إلى ضاربي الآلة الكاتبة المحترفين، ترى شيئًا عجيبًا، ترى أنَّ عينه على الورقة فقط، والصفحة الكبيرة تأخذ من وقته ثماني دقائق فقط، فالطرق التربوية الصحيحة دائماً تقاومها النفس، والنفس تشبه عملَ إنسانٍ وضع الأنبوبَ بالصنبور، وفتح ليسيل الماءُ، لكن في الأنبوب ثقب، فإنَّ الماء يخرج من الثقب، ولا يكمل بل

يستقرب، عندما يصير مع الإنسان ثقب بوتال مفتوح هذا الثقب بين الأذينين إذا كان مفتوحًا يصير معه مرض يسمى الزرق، لأن القلب عندما يضغط ليضخ الدم إلى الرئتين ما دام يوجد فتحة بين الأذينين فينتقل الدم للأذين الآخر دون الذهاب إلى الرئتين، السوائل دائماً تختار الطريق الأقصر، إذا كان عندك حاقنة وبربيش أملأها ماءً، واثقب هذا البربيش في مكان قريب من الحاقنة واضغط، الماء يخرج من الثقب الأقرب لا من الأبعد، والنفس هكذا تميل إلى الطرق السهلة في الدراسة وفي التعامل، وحتى في الدين، يقول لك: يا أخي أنا قمت بثلاث وثلاثين عمرة، واللهِ العمرة جميلة، تركب في الطائرة وتنزل إلى الفندق، وإذا كان لك ابن في جدة، تأكل وتشرب فهي نزهة، وطواف حول الكعبة، هذه هي العمرة ، ولكن تأتي وتغض بصرك عن النساء هذه هي البطولة، فالمسلمون الآن يبحثون عن الأشياء السهلة، فالصلاة لا تكلف شيئًا، والعمرة لا تكلف شيئًا، نريد أن ننظر إليه في الدرهم والدينار أوقَّافٌ هو عند حدود الله، وفي البيع والشراء، وغضّ البصر، والعلاقات الاجتماعية؟ ألديه التزام في كل هذا؟ هذا هو الدين .

ذات مرةٍ قلت لكم: كل إنسانٍ بإمكانه أن يفعل صالحاً، لكن ليس بإمكان كل إنسان أنْ يستقيم، قد تكون له أعمال كثيرة جداً وطيِّبة، ولها عند الله أجر كبير، لكن ليس منضبطاً بأوامر الشرع، إذًا: " أفضل الأعمال ما أكرهــت نفسك عليه "، هناك أعمال طابعها مادي، وهناك أعمال طابعها نفسي، الأعمال النفسية تحتاج إلى مجاهدة، أما المادية فلا تحتاج إلى شيء من هذا.

لا تخيب ظن أخيك فيك :

يقول هذا الإمام الجليل: " من ظن بك خيراً فصدِّق ظنه "، قالوا: إن أبا حنيفة النعمان رضي الله عنه كان يمشي في الطريق، فقال أحدهم للآخر: هذا الرجل الذي لا ينام الليل، لكنه في الحقيقة ينام الليل، فاستحيا من الله عزّ وجل أنْ يظنه الناس بورعٍ أعلى من ورعه الحقيقي، ويروي التاريخ أنه منذ تلك الليلة صار يحيي الليل، وينام في بعض وقت النهار، يحيي الليل بالعلم وبالصلاة وبالذكر، شيء صعب جداً أنْ يظنك الناسُ في مكان، وأنت دون هذا المكان، أن يظنك الناس بهذا الحجم، وأنت لستَ بهذا الحجم .

كنت أقرأ كتاباً فلفت نظري فيه أربعة أدعية، وردتْ في مقدمته، أعجبتني أيَّما إعجاب: " اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحداً أسعد بما علمتني مني، وأعوذ بك أن أكون عبرةً لأحدٍ من خلقك، وأعوذ بك أن أتزين للناس بشيءٍ يشينني عندك، وأعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك " .

قال: " مَن ظنَّ بك خيراً فصدّقْ ظنه "، أحياناً الإنسان يظن فيك ظنًّا طيِّبًا، فأنت لا تخيِّب ظنه .

الظلم رهنه الانتقام من الله ، والشيء المغصوب رهنه الخراب :

يقول هذا الإمام الجليل: " يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم " ، عندما يحين الوقت لينتقم اللهُ من الظالم لصالح المظلوم هذا اليوم أشد على الظالم من يومه على المظلوم، عندما كان يتعالى أو يتجبَّر أو يتشفى منه .

ويقول هذا الإمام الجليل: " الحجر المغصوب في الدار رهنٌ بخرابها "، أي أنّ حجرًا واحدًا مغصوبًا في دار طويلة عريضة ذات طوابق كثيرة، هذا الحجر وحده ربما كان سبب خراب هذه الدار، رأس مال طويل عريض فيه مبلغ قليل من المال الحرام يكون سببًا لِمحق المال كلّه .

مرة قال لي شخص: احترق سوق بأكمله، وآخر دكان احترقت دكانُه، أي أنّ الحريق بدأ في الساعة الثالثة ليلاً، ومحلّه احترق في الساعة الثامنة صباحاً، سوق بأكمله احترق، فقال: والله لو أن أحداً اتصل بي هاتفياً لأعطيته على هذا الخبر مئة ألف ليرة، وكان هذا سنة السبعين، لأن مجموع البضاعة التي احترقت ثلاثة ملايين، وكان في الصندوق ثمانمئة ألف، واحترق الصندوق بما فيه، فالخسارة أربعة ملايين، ثم قال لي: أنا لي في التجارة ثلاثون عام، في هذه الأعوام كنت أحلف يميناً كاذبة، واجمع المال الذي لا يرضي الله عنه، وكانت هذه نتيجته .

فإذا كان لدى الشخص أموالٌ، وجزء منها حرام ربما هذا الجزء الصغير أتلف الكمية الكبيرة، هذا كلام دقيق: " الحجر المغصوب في الدار رهنٌ بخرابها "، المبلغ الصغير في المبلغ الكبير رهنٌ بتلفه .

من هما العاقل والجاهل برأي الإمام علي بن أبي طالب ؟

قيل لهذا الإمام العظيم: " صف لنا العاقل؟ فقال: هو الذي يضع الشيء مواضعه، فقيل له: صف لنا الجاهل؟ قال: قد فعلت "، البلاغة بالإيجاز، لأنه ما دام العاقل يضع الشيء في مواضعه، فالجاهل يضع الشيء في غير مواضعه، فمَن هو الحكيم؟ هو الذي يضع الشيء في المكان الصحيح، أن تضع الشيء المناسب في المكان المناسب، وبالقدر المناسب، وفي الوقت المناسب، هذه هي الحكمة:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

(سورة البقرة الآية : 219)

انظر أيها الأخ، فأنت بالحكمة تجلب المال، وبعدم الحكمة تتلف المال، بالحكمة تتعايش مع الجسم العليل، أنا أعرف شخصًا من خمسة وثلاثين عامًا، معه آفة بقلبه، يقول لك: دارِهِ تستأنس به، حكيم جداً، لا يتعب نفسه، بعيد عن الهزات النفسية، أكلُه معتدل، يعيش مع قلبه بالحكمة، وإنسان آخر أحياناً يتلف نفسه بثلاثة وثلاثين عامًا، فأنت بالحكمة تتعايش مع مرضك، وبالحمق تتلف صحتك، بالحكمة

تجعل المرأة السيئة صالحة، وبالحمق تجعل الصالحة سيئة، لذلك: " صف لنا العاقل؟ قال: هو الذي يضع الشيء مواضعه، فقيل له: صف لنا الجاهل؟ قال : قد فعلت ".

ما معنى الحياة الطيبة كما وردت في الآية برأي الإمام ؟

سئل كرَّم الله وجهه كما ورد في نهج البلاغة عن قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل الآية : 97)

ما معنى الحياة الطيبة؟ قال: " هي القناعة "، لأن الإنسان إذا قنع بما آتاه الله سعد به، لأنه معظم الناس أدركوا الحدَّ الأدنى من الحياة، قال عليه الصلاة والسلام:

" إذا أصبحت آمناً في سربك، معافى في جسمك عندك قوت يومك، فكأنما ملكت الدنيا بحذافيرها " .

(ورد في الأثر)

لك غرفة صغيرة، فيها فراش وثير نظيف، مدفأة دافئة، تأكل الطعام الطيِّب، وتلبس ثيابًا نظيفة، وعندك أولادك وزوجتك، ألم يقل الملك لوزيره: من الملك؟ فاستغرب الوزير، وقال له: أنت الملك، فقال له: لا، الملك رجلٌ له بيتٌ يؤويه، وزوجة ترضيه، ودخلٌ يكفيه، وهو لا يعرفنا ولا نعرفه "، هذا هو الملك .

من جعل همه الدنيا فرق الله عليه أمره :

ويقول هذا الصحابي الجليل: " من أصبح على الدنيا حزيناً فقد أصبح لقضاء الله ساخطاً "، حزين على الدنيا، وقيل عن سيدنا الصديق: انه ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، وربنا قال:

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة يونس الآية : 58)

افرح بالعطاء الإلهي، افرح بالعلم، افرح بالحكمة، افرح بمعرفة الله، افرح بفهم القرآن، افرح بالعمل الصالح، افرح بطلاقة لسانك في ذكر الله عزّ وجل، " من أصبح على الدنيا حزيناً فقد أصبح لقضاء الله ساخطاً، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فقد أصبح يشكو ربه، ومن أتى غنياً فتضعضع لغناه ذهب ثلثا دينه، ومن لهج قلبه بحب الدنيا التاط منها بثلاث، همٍ لا يفارقه وحرصٍ لا يدركه، وأملٍ لا يبلغه "، ومعنى التاط منها بثلاث، أي أصابته الدنيا بثلاث فواقر .

بادرة التعلم :

يقول هذا الإمام الجليل: " إن لم تكن حليماً فتحلَّم فإن من تشبه بقومٍ أوشك أن يكون منهم"، وهذا الموضوع ذكرته مِن قبْل بالتفصيل: " الحلم سيد الأخلاق، وكاد الحليم أن يكون نبياً " فإذا لم يكن الإنسانُ حليمًا فليتحلَّم، يغلي مثل المرجل مِن الداخل، لكنه ضابط لأعصابه، وهذه نعمة، وهذا إنسان عظيم، لأنه يعاكس نفسه، هذا هو التحلُّم، التحلُّم ثمن الحلم، إذا أردت أن تكون حليماً أصالةً فعليك بالتحلم وكالة، تتحلم وكالةً تصبـح حليمًا أصالةً، لأن الحلم خلقٌ يتفضَّل الله به عليك، وكما يقولون: " إن مكارم الأخلاق مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً منحه خُلُقاً حسناً " .

فالحلم الحقيقي من الله، لكن ثمن هذا الحلم الحقيقي أن تتصنع الحلم: " إنما الحلم بالتحلم وإنما الكرم بالتكرم، وإنما العلم بالتعلم ".

نطاق العلم واسع :

قال: " كل وعاءٍ يضيق بما جُعِل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع به "، الذي عنده مستودع للوقود السائل يسع ألف لتر، أخي بحجم المقدارَ، لا يتسع ولا للتر زائد، فهذا الوعاء المادي محدود السعة، لكن الإنسان لو يقرأ ألف كتاب، لو يقرأ مئة ألف كتاب، فعنده سَعة، الحاسوب له سعة، يقول لك: هذا مئتا ميغا، هذا ثلاثمئة ميغا، يوجد له سعة ينتهي عندها، سبحان الله إلا الإنسان مهما طلب العلم فإن هذا الدماغ يتسع من دون حدود، وميزة العلم أنك إذا أنفقته يزداد، فمِنَ الممكن أنْ يكون عندك وعاء فيه شراب لذيذ، تملأ منه كأسًا، وتعطيها للضيف، فهل يزيد الوعاء؟ لا، بل ينقص، قال: " يا بني المال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق "، " مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة " .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

من أسرار المؤمن :

أيها الأخوة، مع الدرس السابع من سيرة سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أظن أن هذا هو الدرس الرابع الذي يتضمن أقوال الإمام علي كرم الله وجهه، وهذا الإمام الجليل له كلمات بمثابة الحكم، والحكم كما قلت في درسٍ سابق: تجارب إنسانية مكثفة في كلمات، فكيف إذا كان هذا الحكيم صحابياً جليلاً وهو رابع الخلفاء الراشدين، وقد التقى النبيَّ عليه الصلاة والسلام منذ نعومة أظفاره؟ .

يقول هذا الإمام الجليل: " من أشرف أعمال الكريم غفلته عما يعلم "، الإنسان الخفيف كلُّ شيءٍ يعلمه يبوح به، قد يوقع بين الناس العداوة والبغضاء، قد يفضح الأسرار، قد يكشف الأستار، لكن الكريم ولو أنه يعلّم الكثير الكثير عن بعض الأشخاص، وعن بعض الجماعاتِ لكن غفلته عما يعلّم أحد دلائل نبلّه وشرفه، لذلك المؤمن يتخلق بأخلاق الله، ومن أخلاق الله أنه ستير ، والستير صيغة مبالغة من الستر، أي يستر ألوف الملايين من عباده، أو يستر ستراً كأن هذا العبد لم يفعل شيئاً، إما أنّ هذا الستر فيه نوعية عالية جداً، أو أن فيه تكراراً كثيراً جداً .

الإنسان حينما يفضح أمرًا، وحينما يبوح بالسر، وحينما يُشيع بعض الأغلاط بين الناس قد يشعر بلذة، لكن لو أنه سكت، وكتم هذا السر، وظهر كأنه لا يعلّم شيئاً عندئذٍ يتصل بالله عزَّ وجل، والسعادة التي تأتيه من اتصاله بربه أبلغ بكثير من تلك المتعة الفارغة التي تأتيه من بوح السر، لأنّ طبع الإنسان يحب أن يكون متميزاً حتى في الحديث، لكن التكليف في ستر الأسرار .

يا أيها الأخوة الكرام، آية واحدة لو فهمناها فهماً كما أراد الله لخزنا ألسنتنا، يقول الله عزَّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النور الآية : 19)

ما ذنبه؟ ما فعل شيئاً، ما تكلم ولا كلمة، لكنه يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، يحب لهؤلاء المؤمنين أن يكونوا ممزقين، يحب لهؤلاء المؤمنين أن يكون شيعاً وأحزاباً وفرقاً وطوائف، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة الأنعام الآية : 159)

إياك أن تتبع عورة أخيك :

قال: " وليس من العدل القضاء على الثقة بالظن "، إنسان ثقة لا يمكن أن أستمع إلى رأيٍ أحادي يطعن فيه، مكانته ملء العيون والأبصار، ملء القلوب، أنْ أسمح لإنسانٍ تافه أن يطعن به، وأصدقه هذه خيانة، لذلك أيها الأخوة هذه الآية قلّما ننتبه إليها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات الآية : 6)

دققوا فيما سأقول: لك أخٌ كريمٌ جداً ملء سمعك وبصرك، تحبه حباً جماً، تثق بأخلاقه واستقامته، وعدالته، وعلمه، وجاءك إنسان يطعن فيه، ماذا تعمل؟ إن كان هذا الطعن لا يحرِّك فيك ساكناً، ولا تأبه له، وعددته كذباً، وتلفيقاً قذراً، ولم تلتفت له، لا شأن لك، ولا عليك إنْ لم تتابع الأمر، أما إذا اهتزت صورته عندك فيجب أن تزيل هذا، فإن بقيت ساكتاً وساكناً، ولم تذهب إليه، ولم تحاول تجلية الحقيقة فأنت قد اغتبته في قلبك وأنت لا تدري، وهذه كما سماها الإمام الغزالي غيبة القلب، هذا المجتمع المسلم الذي عليه أن يحمل هذه الرسالة إلى الآفاق، هذا المجتمع المسلم الذي وصفه النبي كأنه كالبنيان المرصوص، هذا المجتمع المسلم الذي هو كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

هذا المجتمع المسلم لا ينبغي أن يتمزق ولا ينبغي أن يُفتَّ في عضده، ولا ينبغي أن يكون أشلاء ممزقة، إذًا : " وليس من العدل القضاء على الثقة بالظن "، لا بدَّ من الدليل، انطلاقاً من هذه القاعدة نرى في القضاء الشرعي لو أن أحداً أقام دعوى على شخصيةٍ مرموقةٍ دينيةٍ، لا بدَّ من أن يدفع مبلغاً كبيراً جداً يعدُّ تأميناً على أنه تطاول على مقامٍ كبير، فإذا كانت دعواه باطلة حوسب حساباً عسيراً، ليس كل إنسان بإمكانه أن يطعن في أشخاص أعلى منه .

يا أيها الأخوة، هؤلاء الذين يدعون إلى الله عزَّ وجل هؤلاء هم بركة المجتمعات الإسلامية، فإذا تعودنا في مجالسنا أن نطعن بهذا، وهذا، فمن بقي؟ والإنسان إذا شعر أنَّ كلَّ هؤلاء ليسوا كاملين ييئس، ويقع في حالة إحباط شديدة جداً، أنا لا أقول هذا من الهواء، في أي مجلس تقريباً يتندرون بأخطاء الدعاة إلى الله، هذا الداعي فعل كذا، وهذا الداعي فعل كذا، وهذا الداعي فعل كذا، هم غير معصومين، لكن لا ينبغي أن تأخذ هناتهم وأغلاطهم الصغيرة إذا وجدت، وأن تضخِّمها، وأن تجعلها مدار الحديث، لذلك أيها الأخوة الكرام:

" من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه في عقر بيته" .

(ورد في الأثر)

أيها الأخوة، في هذا الأسبوع أحدُ الناس قال لي عن شخصٍ أحترمه، وأقدِّر فيه الإخلاص والاستقامة، قال لي كلاماً لا يليق به أبداً، نهرته، وقلت له: تأكَّد، وبقيت هذه القصة في نفسي أسبوعاً، إلى أن التقيت به مرةً ثانية، فلما ضيَّقت عليه، قال: لست متأكداً أنه هو الذي فعل هذا، إنسان آخر كان بهذا المسجد، قضية كبيرة جداً، قال تعالى:

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

(سورة النور الآية : 15)

عند المحك يعرف الرجال :

ويقول هذا الإمام الجليل: " في تقلُّب الأحوال عُلِم جواهر الرجال "، الحقيقة أنّ الإنسان لا يبدو على حقيقته إلا بتبدُّل الأحوال، حينما ينتقل من الصحة إلى المرض، من الغنى إلى الفقر، ومن الفقر إلى الغنى، من الضعف إلى القوة، ومن القوة إلى الضعف، تبدُّل هذه الأحوال هو الذي يكشف معادن الرجال، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب الآية : 23)

هذا هو الثبات، النبي عليه الصلاة والسلام كان مثلاً أعلى في الثبات على المبدأ، حسبكم قوله صلى الله عليه وسلم:

" والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ".

(ورد في الأثر)

أنت مع من تتعامل؟ أنت تتعامل مع خالق الكون، أنت تعاهد رب العالمين، أنت أعطيت العهد على أن تستقيم على أمره في المنشط والمكره، في السرَّاء والضراء، في الغنى والفقر، قبل الزواج وبعد الزواج، في القوة والضعف، في الصحة والمرض، قال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب الآية : 23)

والله عزَّ وجل لا بدَّ أن يبتلي عبده المؤمن، لقوله تعالى:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون الآية : 30)

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران الآية : 179)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت الآية : 2)

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

(سورة الملك الآية : 2)

يجب أن تعتقد اعتقاداً قاطعاً أنه لا بدَّ أن تبتلى، فإذا كنت فقيراً ابتُلِيت بالفقر، قد تصبح غنياً، وتبتلى بالغنى، إن كنت لا سمح الله مريضاً، فهذا المرض امتحانٌ لك، فإذا شفاك الله عزَّ وجل فامتحانك الجديد هو الصحة، أنت مبتلى وممتحن، بل إن الإنسان في حياته الدنيا ممتحنٌ مرتين: ممتحنٌ مرةً ببعض الحظوظ التي أكرمه الله بها، وممتحنٌ بحرمانه من بعض الحظوظ التي شاءت حكمة الله أن يحرمه منها، استمعوا إلى دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

" اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله عوناً لي فيما تحب، وما زويت عني ما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب " .

(ورد في الأثر)

هل هناك حالةٌ ثالثة؟ إما أن تكون غنياً أو فقيراً، قوياً أو ضعيفاً، صحيحاً أو مريضاً، عندك أفضل زوجةٍ أو عندك أسوأ زوجة، عندك أولادٌ بررة أو أولادٌ عاقون، " فما رزقتني مما أحب "، يا رب اجعلْ هذا المال في طاعتك، اجعل نعمة الأمن في معرفتك، اجعل نعمة الصحة ضماناً لطاعتك، اجعل نعمة المال تقرُّباً إليك .

فلو أن الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان مالاً وفيراً لا شك أنه سينشغل به، يا رب هذا الوقت الذي كنت سأنشغل فيه بمالي، اجعلني أنشغل فيه بطاعتك، وكنت أدعو، وأقول: " اللهم كما أقررت أعينَ أهل الدنيا بدنياهم فأقرر أعيننا من رضوانك ".

إذا كان عند الإنسان بيت اشتراه بعشرين ألفًا، واليوم أصبح بعشرين مليونًا، عنده أرض جرى عليها تنظيم، فتضاعفت مئة ضعف، يقول لك: لا أبيعها ولا بثلاثين مليون، ويشمخ أنفه إلى الأعلى، قرت عينه بهذه الأرض، أو قرت عينه بهذا البيت، أو قرَّت عينه بهذا المحل التجاري، " اللهم كما أقررت أعينَ أهل الدنيا بدنياهم فأقرر أعيننا من رضوانك ".

مفسدة العقل :

وقال: " عُجْب المرء بنفسه أحد حُسَّاد عقله "، كنت أقول لكم دائماً: إن النجاح مطلق النجاح هو قمة الجبل، والطريق لهذه القمة طريقٌ شائك، وفيه عقبات، وفيه أكمات، وفيه وهاد، وفيه أشواك، وفيه وحوش وحشرات، فليست بطولتك أن تصل إلى قمة النجاح، ولكن أن تبقى في القمة، لأنك إذا وصلتَ إلى القمة سوف تجد عشرات الطرق الزَّلقة، التي قد تهوي بالإنسان إلى الحضيض، لذلك قال تعالى:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً)

(سورة الإسراء الآية : 80)

الدخول شيء والخروج شيء، مثلاً: قد أنشئُ مستشفى بنوايا طيبة جداً، خدمة للبشرية المعذبة، خدمةً لهؤلاء الفقراء المحتاجين، سوف أجعل نصف المستشفى للفقراء المساكين، والله الدخول رائع، لكن إذا أنشئت هذه المستشفى، ورأيت الأموال الطائلة تصل إليك، ربما قسا قلبك، وتطلبُ من المرضى ما يوقعهم في أشد الأمراض من ضخامة المبلغ، قال تعالى:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً)

(سورة الإسراء الآية : 80)

" عُجْب المرء بنفسه أحد حُسَّاد عقله "، حسد داخلي، وهناك حسد خارجي، الإنسان إذا أعجب برأيه عمي عن غيره .

كلمة حق أريد بها باطل :

ويقول هذا الإمام الجليل حينما سمع كلمة "لا حكم إلا الله" قال قولته الرائعة التي أصبحت مضرب المثل: " كلمة حقٍ أريد بها باطل "، أحياناً يدرك الإنسان بحاسته السادسة أن قضيته مع فلانٍ لا تحل عن طريق المحاكم، لا تحل إلا عن طريق الشيوخ، لأن القانون مع خصمه، لكن الشرع معه، يتوجه إلى بعض الشيوخ مِمَّن يمون على خصمه، يقول له: يا سيدي أنا أريد حكم الشرع، أنا أريد شيئاً يرضي الله عزَّ وجل، واللهِ هذه كلمة حق، لماذا؟ إذا كانت قضيتك تحل في المحاكم لا تلجأ إلى الشيوخ، الإنسان يتبع مصالحه، فإذا رآها عند القضاة وفي المحاكم توجَّه إليها، وإن رآها عند العلماء توجّه إليهم، فمثل هذا الكلام،" كلمة حقٍ أريد بها باطل "، وينبغي ألاّ تسكت على كلمةٍ حقٍ أريد بها باطل . النبي عليه الصلاة والسلام حكم بين رجلين، فالذي حكم عليه وكان الحق يتلبسه خرج من عند النبي، وقال : حسبي الله ونعم الوكيل، النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

" إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ، فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ " .

(أخرجه أبو داود عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ في سننه)

فهل يمكن لطالب لا يدرس فيرسب؟ ثم يقول: يا أخي هكذا ترتيب ربي، أنا مستسلم لقضاء الله، هذه إرادة الله، هذه مشيئة الله، نقول له: دعك من هذا الكلام، هذه كلمة حقٍ أُريدَ بها باطل، لكن متى تقول: حسبي الله ونعم وكيل، إذا درس الطالبُ بأقصى ما عنده، ثم جاء مرضٌ حَالَ بينه وبين أداء الامتحان، الآن تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، لذلك الناس يستخدمون هذه الأقوال الإسلامية القرآنية النبوية دائماً في غير موضعها، مثلاً: إذا أراد ألاّ يدفع ما عليه، يقول لك: أدفعُها إن شاء الله، إذا أراد ألاّ يحضر هذا الموعد، يقول لك: إن شاء الله سآتي، أنا أقول له: أريد إن شاء الله إسلامية، لأنك إذا كنت مصمماً على أن تأتي في أعلى درجات التصميم، تقول: إن شاء الله، لقوله تعالى:

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً)

(سورة الكهف الآية : 23-24)

أمَّا أن تستخدم هذه الكلمة للتنصل، والتهرب من حضور هذا اللقاء، أو من دفْع هذا المبلغ فهذا مكر وخداع .

الأجانب أحياناً يتعاملون مع أناس سيئين، لا يمثلون هذا الدين، فيسيئون للدين، مع أنّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام، يقول:

" أنت على ثغرةٍ من ثُغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك " .

(ورد في الأثر)

فيأخذون على بعض المسلمين المقصرين ثلاث كلمات، " معلش، وبكرة، وإن شاء الله "، هم يعتقدون أن هذه الكلمات هي سبب تأخُّر المسلمين، التأجيل، وعدم الإعداد الكافي، وعدم المبالاة، أما إن شاء الله الإسلامية، أي أنا سأحضر بأعلى درجات التصميم، قال:

(قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

(سورة الملك الآية : 66)

روحوا القلوب تعى الذكر :

يقول هذا الإمام الجليل: " إن هذه القلوب تمَل كما تملُّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة "، فالأب أحياناً يكون عبوساً قمطريراً، لكنه يمكن أنْ يكون مرحًا، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا دخل بيتَه بساماً ضحاكًا، وكان يُرْكِب الحسنَ والحسينَ على ظهره، ويقول:

" نعم الجملُ جملُكما " .

(ورد في الأثر)

فشخصيته في البيت شخصية محببة جداً، أما أنْ يكونَ دائماً في هيبة وسيطرة، بوجه ليس فيه أيُّ تعبير، فليس هذا هو المسلم .

النبي عليه الصلاة والسلام، كان فكهاً مع أهله ومع أصحابه، كان يداعبهم ويمزح معهم ، ويسأل عنهم ويشجعهم، ويثني عليهم، ويتواضع لهم، فهذه أخلاق النبي، وينبغي أن نتخلق بأخـلاقه، " إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة "، ومن طرائف الحكمة، طرفة أدبية علمية، أحياناً من حين إلى آخر ففيها تجديد النشاط، والمعلم الناجح هو الذي يستطيع أن يلقي فكاهة أدبية تنشط الطلاب، وتجدد فيهم العزيمة، هذا كلام سيدنا علي .

رزقك موصول إليك :

ويقول هذا الإمام الجليل: " يا ابن آدم ما كسبت فوق قوتِك فأنت فيه خازنٌ لغيرك " اسمعوا هذه الكلمة، هل تعلم ما هو رزقك؟ لو تملك أموالاً لا تأكلها النيران كما يقولون، لا تعدُّ ولا تحصى، لو تملك ألوف الملايين من العملات الصعبة، رزقك هو الطعام الذي تأكله، والثياب التي تلبسها، والبيت الذي تسكنه، والزوجة التي قسمها الله لك، وما سوى ذلك سماه القرآن جمعاً، فقال تعالى:

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف الآية : 32)

ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون، ومشكلة الفائض عن حاجاتك تحاسب فيه مرتين، كيف اكتسبته؟ وكيف أنفقته؟ وأنت في الحقيقة لم تنتفع به إطلاقاً، ربما ضيعت من أجل كسبه أثمن أوقاتك، ربما ضيعت من أجل كسبه ثمرة أتعابك، ربما ضيعت من أجل كسبه رأس مالك الحقيقـي وهو الوقت، لذلك هؤلاء الذين ينصبّون على الدنيا، وينسون من أجلها كلَّ شيء هؤلاء مقامرون ومغامرون، فكل مكتسباتهم في نبض القلب، فإذا توقف نبض القلب تحولت كل هذه الأموال إلى غيرهم، لذلك يقول هذا الإمام الجليل: " يابن آدم ما كسبت فوق قوتِك فأنت فيه خازنٌ لغيرك " .

ما أكثر العبر وما أقل المعتبرين، أحياناً تجد إنسانًا توفَّاه الله، ترك ثروة طائلة لعله حصَّلها بالحرام أو بالحلال، لكن تركها لغيره، ولهذا ورد في الحديث الصحيح:

" إن أندم الناس رجلٌ دخل ورثته بماله الجنة ودخل هو بماله النار " .

(ورد في الأثر)

هناك إنسان ترك ثمانمئة مليون جمعها من دور القمار ودور اللهو، وهو على فراش الموت طلب أحد العلماء، قال له: ماذا أفعل؟ قال له: واللهِ لو أنفقتَها كلّها في سبيل الله ما نجوتَ من عذاب الله، وأنا

ناصحٌ لك، يا أيها الأخوة الكرام، المؤمن العاقل يعمل لهذه الساعة التي لا بدَّ منها، ساعة اللقاء، فالعاقل لا يتحرك حركةً، ولا يتكلم كلمةً، ولا يعطي شيئاً ولا يمنع شيئاً، ولا يصل، ولا يقطع قبل أن يتصور أنه بين يدي الله عزَّ وجل، والله جل جلاله، يسأل: لِمَ فعلت؟ ولمَ لمْ تفعل؟ .

ذات مرة كان أحد الأخوة يعمل في وظيفة، وبإمكانه أنْ يوقع أشد الأذى بالناس، لو كتب ضبطًا بحق أحد الناس يُحبَس هذا بسببه شهرين بسجن عدرا، قال لي: انصحني، قلت له: أكتب ما شئت من هذه الضبوط، وأودع ما شئت من الناس في هذه السجون، فقال لي: هذه نصيحتـــك، قلت: انتظر، ولكن إذا كنت بطلاً فهيِّئْ لربك عن كل ضبطٍ جوابًا، إنْ كان لديك الجواب فلا مانع ، لكن إنسانًا يأخذ دابةً ميتةً مدهوسةً في الطريق، ويجعلها طعاماً يبيعه لهؤلاء الناس على طرق السفر، فهذا لا ينبغي أنْ تسكت عنه، وأنْ تجد إنساناً يبيع لحماً أصله من لحم القطط، فهذا لا ينبغي أن تسكت عنه، أنا أعطيك صلاحيَّات، لكن هيِّئْ لكل ضبطٍ تكتبه جواباً لله عزَّ وجل، هذا الكلام أقولــه لنفسي ولكم، افعل ما تشاء، وفي حديث رائع عن أبي مَسْعُودٍ عُقْبَةَ قَالَ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

" إنَّ مِمَّا أدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ إذَا لَمْ تَسْتَحْ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ ".

(أخرجه البخاري في الصحيح)

يفهمه الناس فهماً آخر، له معنى قد لا يخطر على بال الناس، يعني هذا العمل إن لم تستح به أمام الله فافعله ولا تسأل، ولا تبالي بكلام الناس، فأنت هيِّئْ جوابًا، لماذا طلقت؟ لماذا نظرت؟ لماذا غضبت؟ لماذا أعطيت؟ لماذا منعت؟ إذًا: " يا ابن آدم ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازنٌ لغيرك " .

رسالة للدعاة :

هذا حديث خاص بالدعاة، قال: " إن للقلوب شهوةً وإقبالاً وإدباراً، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها "، كيف؟ كل واحد منا شاء أم أبى يوجد عنده مطالب أساسية، كل إنسان يحب وجوده، يحب سلامة وجوده، وألاّ يكون مريضًا، يحب أن يكون غنيًّا، ليس غنًى يكفي بل ليثري، يحب أن يعيش تسعين عاماً، ويُسَرُّ بالأعمار الطويلة، فكل إنسان مفطور على حب وجوده، وكمال وجوده، وسلامة وجوده، واستمرار وجوده، هذه حاجة عند الإنسان، أيّ إنسان .

كل إنسان عنده حاجة للأمن، يكون مطمئنًا، يخاف أن يتعرّض لمقلقات، حاجة الإنسان إلى الصحة، حاجته إلى الكفاية، حاجته إلى زوجة صالحة، هذا الكلام للشباب، حاجته إلى أولادٍ أبرار، حاجته إلى التوفيق في عمله، حاجته إلى حياةٍ هادئةٍ مطمئنة، هذه الحاجات أنت كداعية بيِّن للناس، أنه:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل الآية : 97)

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء الآية : 147)

إذا أنت حاولت أنْ تلبِّيَ حاجات الإنسان الأساسية عن طريق الدين فأنت داعيةٌ ناجح، فهذا المدعو إنسان يخاف، وهو قَلِقٌ على صحته، قلقٌ على ماله، قلقٌ على مستقبله، على أولاده، على زوجته، وهذا شيء طبيعي، لأن القلق والضعف شيءٌ خِلْقي في أصل الإنسان، لقوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(سورة المعارج الآية : 19)

هكذا خلق الإنسان، قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج الآية : 19-23)

المصلي ناجٍ من الهلع والجزع، فإذا أردت أن تدعو إلى الله عزَّ وجل، فاستخدم حاجة الإنسان الأساسية، حاجته إلى الكفاية، حاجته إلى الأمن، حاجته إلى السلامة، حاجته إلى الصحة، حاجته إلى التوفيق، حاجته إلى التيسير، إذا بيَّنت له الآيات التي تؤكد أن كل هذه الحاجات مقضية في ظل الدين فيقبل على هذا الدين، فلذلك معالجة الموضوعات في الدعوة إلى الله أمْرٌ خطير جداً

هناك موضوعات منفرة، فمثلاً معالجة موضوع عتق العبيد في زماننا لا مكان له، أين العبيد؟ لا وجود لعبيد أفراد، ولكن هناك شعوب مستعبَدة، فموضوعات كهذه الموضوعات لا تقدِّم ولا تؤخِّر، حكم الصلاة داخل الكعبة، من يستطيع الوصول إلى الداخل الآن؟ اذهبْ وحجَّ أو اعتمر، أيسمح لك أن تدخل الكعبة؟ فهذه موضوعات بعيدة عن واقعنا، لكن الداعية الصادق هو الذي يبحث عن موضوعات تمس شغاف القلب، يضع يده على جرح الناس، يضع أصابعه على أوتار قلوبهم، فهذا كلامٌ جليل: " إن للقلوب شهوةً وإقبالاً وإدباراً، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها "

الإنسان قد يزور مريضًا، هذا المريض مرهق، ويكاد يهلك، كله آذان صاغية، والإنسان حينما يتعرّض لمشكلة، أو لمصيبة فكلُّه آذان صاغية، فشهوته للشفاء تجعله يصغي، استمعوا إلى هذه الآية:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

(سورة التحريم الآية : 4)

أي علامة إصغاء القلب السلوك، توبتك دليل إصغاء قلبك إلى الله عزَّ وجل .

الحق واحد :

ولبعد نظر هذا الإمام الجليل، يقول: " ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة " مستحيل، لأن الحق طريق مستقيم فلو أحضرنا ألف خط مستقيم لا بدَّ من أن تنطبق هذه المستقيمات كلها على بعضها بعضاً، بين نقطتين لا يمر إلا خطٌ مستقيمٌ واحد، والدليل:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة الأنعام الآية : 153)

ولا تتبعوا السبل، كلمة السبل صيغة جمع، فتفرق بكم عن سبيله، قال تعالى:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة البقرة الآية : 257)

يخرجهم من الظلمات إلى النور، الظلمات صيغة جمع، كلمة النور مفرد، الحق واحد، والدليل :

(فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

(سورة يونس الآية : 32)

الحق واحد في العالم كله، لأن الله هو الحق، فالحق لا يتعدد، ولا يتنوَّع، الحق موحد، الباطل منوَّع، لهذا: " ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة " .

من أقواله أيضاً :

قال: " إذا هِبْتَ أمراً فقع فيه، فإن شدة توقِّيه أعظم مما تخاف منه "، هذا ينطبق على قول بعض الحكماء: " توقع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها "، إذا كان الإنسان خائفًا من شيء، فهذا الخوفُ يدمِّره، فإذا اقتحمه انتهى الأمر، فهذا الخوف الشديد هو حجاب بين العبد وربه، كل شيء تخافه استعن بالله واقتحمه اقتحاماً .

وقال: " من استقبل وجوه الآراء عرف مكان الخطأ "، أنا أقول لكم: أخطر شيء يصيب الإنسان أن يعزل نفسه عن المجتمع، فإذا عزل نفسه عن المجتمع بنى أوهاماً وأوهاماً، فكلما وسَّع الإنسان دائرة اتصالاته كلما عرف حجمه وموقعه، تصور إنسانًا عنده ماكينة تريكو مثلاً، قال لك : هذه أعظم ماكينة في العالم، وهي ماكينة موديل (49) هذا يكفيه أن يدخل إلى معمل أحدث فيعرف حجم آلته، كلما وسع اتصالاته واطلاعه ومعرفته، يعرف حجمه الحقيقي، والإنسان لا يرقى إلا إذا انطلق من حجمه الحقيقي .

كان الإنسان يقدم في الإذاعة برامج أدبية وثقافية، أساس هذه البرامج أن يطلب مقابلة مع شخصية مرموقة أدبية أو علمية، فكان مقدِّم هذه البرامج يعكف أشهراً طويلةً على قراءة إنتاج هذه الأديب، وعلى معرفة المآخذ والمثالب، وكان يقرأ كلَّ ما قيل عنه، ورأي النقَّاد فيه حتى يصبح قريباً من مستوى الناقد، يلتقي به ويسأله أسئلة كثيرة، فإذا بهذا الإنسان الكبير يصغر في هذا اللقاء، فلما عوتب فيما يفعله، قال: إنني أحب أن أعيد بعض الناس إلى حجمهم الحقيقي .

أحياناً بعض الناس يملك قدرة على أن يبدو بحجمٍ أكبر من حجمه الحقيقي، فالإنسان إذا أراد أن يتقدَّم يجب أن يبني تقدمه على معرفة حجمه الحقيقي، والإنسان كلما قرأ سيَر كبارِ العلماء المخلصين العاملين شعر بضآلته، وشعوره بضآلته سبب رقيِّه، يقول سيدنا الشافعي: " كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي " .

الإنسان كلما اطلع على أبطال في هذا الدين، وكلما قرأ سير العلماء المخلصين العاملين عرف حجمه، أما إذا عزل نفسه عن كل من حوله يصيبه داء اسمه: تضخُّم الشخصية، فلذلك كلام الإمام علي رائع جداً: " من استقبل وجوه الآراء عرف مكان الخطأ "، والنبي عليه الصلاة والسلام له موقف لا أشبع من ترداده وتكراره،

" لما الحباب بن المنذر سأله بأدبٍ جم، قال: يا رسول الله، أهذا الموقع الذي نزلنا به موقعٌ جاءك بالوحي، أم بالرأي والمشورة؟ قال له: بالرأي والمشورة، قال له: إذاً ليس بموقع، فسأله النبي عن موقع مناسبٍ فدلَّه عليه، فأمر النبي أن ينتقل الجنود إلى هذا الموقع " .

(ورد في الأثر)

وقف هذا الموقف الكامل ليكون قدوةً لكل من يأتي بعده من العلماء والأمراء .

إذا نصحك شخصٌ بإخلاص، إياك أن تستكبر على نصيحته، بل أصغ إليه، هذا الذي ينصحك هو الذي يرفعك، وهذا الذي يمدحك هو الذي يقعدك، وسيدنا عمر، يقول: " ما أهدى إلي أحدٌ هديةً أثمن مِن أنْ يهديَ إليّ عيوبي "، الإنسان سهل أن يجامل الآخرين، المجاملة سهلة والمديح سهل، والإنسان الذي يمدح يرتاح من العيّ، لكن الإخلاص يقتضي أن تنصح، وأن تغار على هذا الدين .

عاقبة الذنب :

وقال: " ترك الذنب أهون من طلب المعونة "، سبحان الله مرض الإيدز الذي حيَّر العلماء، والذي دمَّر العالَم الحديث، تمنيت أن أقرأ مقالة واحدة في العالم كله عن دعوةٍ إلى العفة، لأنها سبيل الوقاية الوحيدة من هذا المرض، وما أكثر الدعوات إلى البحث عن مصل مضاد لهذا المرض من غير فائدة: " ترك الذنب أهون من طلب المعونة ".

مثلاً مدينة تشرب مياهاً قذرة، فشت فيها الأوجاع، والوباء، والأمراض، فماذا نفعل؟ بدل أنْ نمنع هذه المياه الملوثة استقدمنا الأطباء، والمستشفيات، وأصحاب الاختصاصات، والمخابر، هذا فعْل أهل الجهالة، لكنَّ الأولى أن توقف هذه المياه الملوثة، وينتهي كلُّ شيء، هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

(سورة إبراهيم الآية : 3)

وصفُ ربنا عزَّ وجل جامع مانع، الكفار من شأنهم أنهم يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عِوجا، والأمور دائماً معوجة .

حكم شتى :

وقال: " وكم من أكلةٍ منعت أكلات "، الإنسان الحكيم لا ينهي دعوته بكلمة، هناك كلمات لا تقدم ولا تؤخر تنهي دعوة بأكملها، ليس من الحكمة أن تقول كلمة لا ثانية لها، الحكمة أن تستمر الدعوة إلى الله عزَّ وجل، الحكمة أن تقول قولاً مناسباً في الوقت المناسب، بالقدر المناسب للشخص المناسب هذه حكمة، قال تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

(سورة البقرة الآية : 269)

وهذا كلامٌ طيب: " الإعجاب يمنع الازدياد "، الإنسان حينما تعجبه نفسه لا يزداد لا علماً ولا قرباً، أما إذا اتهم نفسه يزداد علماً وقرباً، وانظرْ إلى هذا التابعي الجليل الذي قال: " التقيت بأربعين صحابياً ما منهم واحدٌ إلا وهو يظن نفسه منافقاً " .

ما خاب من استشار :

وقال: " من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها "، من الذي قيل له : وشاورهم في الأمر؟ قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

(سورة آل عمران الآية : 159)

من هو؟ النبي عليه الصلاة والسلام هو قمة العلم، وقمة الحكمة، وقمة الاتصال بالله عزَّ وجل، علمه من الله لا ينطق عن الهوى، ومع ذلك قال له:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران الآية : 159)

من أنت إذًا؟ إذا كان هذا الأمر موجهاً للنبي عليه الصلاة والسلام، " من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركها في عقولها "، لا تتمكن أن تدخل عند طبيب إلا بمبلغ، لكن بإمكانك تطرق باب أي إنسان تثق بعلمه وإخلاصه وأن تسأله والجواب بدون مقابل، فقط الدين مبذول بلا ثمن، الدين وحده في المساجد، في البيوت، كل الدعاة إلى الله عزَّ وجل تسألهم فيجيبون، فأنت ماذا يمنعك مِن أن تستعير عقول الرجال، وأن تستعير خبرتهم الطويلة، ومعرفتهم بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومعرفتهم بأحكام الفقه؟ .

اقطع الإساءة بالإحسان :

ويقول هذا الإمام الجليل: " عاتب أخاك بالإحسان إليه، واردد شره بالإنعام عليه "، مرة عليه الصلاة والسلام، قال:

من يقطع لسان هذا؟ .

(ورد في الأثر)

إنسان تطاول على النبي، صحابيٌ فهم أن قطع اللسان يحتاج إلى مقص، وصحابيٌ آخر فهم قطع لسانه أن تحسن إليه، وفي أيامنا قد يكون لك جار شرير، هذا الجار الشرير قدِّم له هدية يسكت، تملك قلبه بهذه الهدية، وسائل الإكرام أسرع وأنجع من وسائل العنف والتهديد، كن محسناً، أشد الناس شراً يلين بالإحسان إليه: " عاتب أخاك بالإحسان إليه، واردد شره بالإنعام عليه "، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

(سورة فصلت الآية : 34-35)

اغتنم الفرص فإن العمر قصير :

انظروا إلى هذه الكلمة التي تفيدُ مُضيّ الزمن، وإنْ مضى فلن يعود، قال: " لكل مقبلٍ إدبار، وما أدبر كأن لم يكن "، فأنت أحياناً تستقبل الشتاء، فيأتي الشتاء ويمضي الشتاء، وكأن الشتاء لم يكن، تستقبل رمضان، فيأتي رمضان، ويمضي رمضان، وكأن رمضان لم يكن، تستقبل العيد فيأتي العيد، ويمضي العيد، وكأن العيد لم يكن، تنتظر أن يكبر ابنك، فيكبر ابنك، وتزوجه، وكأن هموم الزواج لم تكن، وهكذا الزمن يمضي سريعاً، فلذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة البقرة الآية : 148)

معنى فاستبقوا: أي أنتم في زمن هدنة، أنتم في زمن محدود، وإن السير بكم لسريع، ولا بد من وقتٍ ينتهي فيه اختياركم، وينتهي تكليفكم، وتنتهي آجالكم وتختم أعمالكم، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة البقرة الآية : 148)

وفي الدرس القادم إن شاء الله هناك وصية جامعة مانعة لهذا الإمام الجليل أرجو الله أن نختم بها دروس الإمام سيدنا عليٍ كرم الله وجهه .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا علي بن أبي طالب - الدرس (8-8) : من أقواله وحكمه -4

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-12-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو النفاق ؟

أيها الأخوة، مع الدرس الثامن من سيرة سيدنا علي بن أبي طالب، وقد وعدناكم أن نقرأ عليكم بعض الشرح من مواعظ هذا الإمام الجليل، وكأنه يضع يده فيها رضي الله عنه على جراح المسلمين في عصور تأخُّرهم .

فقبل أن نقرأ هذه الموعظة لا بد من مقدمةٍ قصيرة، وهي أن الإسلام في أول نشأته ما عرف النفاق، لكن بعد أن جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا واستتب الأمر للمسلمين، وانطلقت الجيوش تفتح مشارق الأرض ومغاربها، وتمكن الإيمان، عندئذٍ ظهر ما يسمى بالنفاق، طبعاً ظهر لأن القوة الكبيرة بيد المسلمين .

والنفاق حالة ليست إيماناً وليست كفراً، ظاهره شيء، وباطنه شيء، أفكاره في وادٍ، وسلوكه في واد، حاجاته يلبِّيها، وآخرته يرجئها، فهذا الإنسان البذيء نشأ في مجتمع إسلامي، وسلك سلوكاً غير إسلامي، هو الذي يصفه هذا الإمام الجليل: " لا تكن مِمَّن يرجو الآخرة بغير عمل ".

هذا هو سبب ضياع المسلمين :

أقول لكم: قد تجد إنسانًا إذا خطط لمستقبله، أو اختار عمله، أو تحرك حركةً في الدنيا يدخل في حساباته الأشياء الأساسية، مثلاً لو أنه أراد يؤسِّس مشروعًا، يفكر أوّلاً فيما لو أن ثمَّة مشروعًا آخر منافسًا، ثم يفكر لو أن هذه المادة الأولية مُنِع استرادها، ويفكر لو أن القوة الشرائية انخفضتْ، فلم يعُد المواطنُ يتمكن من شراء هذه السلعة، فالإنسان إذا أسس مشروعًا يُدخِل الحساباتِ المتوقعة بأكملها .

الشيء العجيب أن الناسَ حينما يتحرَّكون، فالغافل منهم لا يدخل حساب الآخرة في تخطيطه إطلاقاً، لا الموت، ولا الوقفة بين يدي الله عزَّ وجل، ولا أيّ سؤالٍ حولَ هذا المال، كيف أخذته؟ ولمَ أنفقته بهذه الطريقة؟ هذه المرأة لمَ طلقتها؟ هذه السلعة لمَ بعتها، ولم تذكر عيبها؟ فهذا النموذج الذي يدخل في حساباته كل شيء إلا الآخرة، قال فيه الإمام على كرم الله وجهه: " لا تكن مِمَّن يرجو الآخرة بغير عمل " .

لكن هذا الإنسان بالذات الذي لم يدخل في حساباته موضوع الآخرة إطلاقًا، لو كان في عقد قران مثلاً، لو كان في مجلس علم، لو كان في مناسبة دينية، والخطيب أو الداعي دعا اللهم ارزقنا الجنة، يقول آمين، آمين على ماذا؟ هذا الذي يقول آمين بصوتٍ مرتفع، وليس في سلوكه ما ينبئُ أنَّه يسعى للآخرة، هذا الإنسان، وهذا النموذج، وهذا المسلم هو الذي سبَّب ضياع المسلمين .

فبينما أنْ يكون الإسلام منهجًا كاملاً، ينتظم كل حياتنا، ينتظم بيوتنا، أعمالنا، علاقاتنا، أفراحنا، قبض أموالنا وإنفاقها، وكل نشاطاتنا، وبين أن يكون الإسلام قد تقلص، وتقلص، وتقلص ، وانكمش، فصار صوماً وصلاةً وحجاً وزكاةً، هو في واد والحياة في وادٍ آخر، هذا الذي يعنيه الإمام علي كرم الله وجهه: " لا تكن ممَّن يرجو الآخرة بغير عمل، ويرجِّي التوبة بطول الأمل "

احذر مغبة التسويف :

فكل إنسان يقول لك: أنت شاب عندما تكبر وتتزوج وتمل من حياتك تتوب، هذا الذي يرجّي التوبة بطول الأمل، أليس هناك مغادرة للدنيا؟ أليس هناك آلاف الحوادث، فيها شابٌ يموت، إنسان في مقتبل حياته يصاب بمرض عضال؟ أليس هناك من يغادر الدنيا من دون سابق إنذار؟ فاليوم كنا في تشييع جنازة، والله شيء لا يصدق، إنسان يسكن في بيت، يضمُّ السرير والفراش، والغرفُ الدافئة، وغرف الطعام، كل هذا تركه، وحفرتْ له حفرةٌ، ووضع فيها، وأهيلَ الترابُ عليه، هذه حقائق، ليس مِن كلام أشدّ واقعية من هذا الكلام، كلنا مصيرنا إلى هذه الحفرة، ماذا في هذه الحفرة؟ هذا الكلام: " ويرجِّي التوبة بطول الأمل " .

لذلك مَن عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت، إذا قلت: غداً سأفعل كذا وكذا، إذا توهمت أن غداً تملكه، هذا التوهم هو عين الجهل .

شخصية لم يعرفها المسلمون من قبل :

قال: " لا تكن ممّن يرجو الآخرة بغير عمل، ويرجّي التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين "، أخطر شيء هذا الانفصام، هذه المسافة، هذه هذه الازدواجية، وكأن هذا الإنسان معه انفصام شخصية، له شخصيتان إذا تكلم تكلم بقول الزاهدين، وإذا عمل عمل بعمل الراغبين، فهذه الشخصية الثنائية في الإنسان، هذه المسافة الكبيرة بين الفكر وبين السلوك، هذه سمة عصور تخلُّف المسلمين .

لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب :

قال: " يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إنْ أعطي منها لم يشبع، وإن مُنِع منها لم يقنع "، مهما أعطي لا يشبع، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول هذه الحقيقة، فعَن ابْن عَبَّاسٍ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم:

" مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا " .

(أخرجه الدارمي في سننه عن ابن عباس)

فإذا كان هناك نهم فاجعله في طلب العلم، اجعله في طلب الآخرة، إذا كان هناك نهم تسابق مع أهل الإيمان، التنافس مطلوب، الله عزَّ وجل يقول:

(خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين الآية :26)

الإنسان من طبيعته الغيرة، والحقيقة هذه الطبيعة لمصلحته، هذه الطبيعة تدعوه إلى أن يسابق أخوانه، لكنّ المشكلة ما موضوع السباق؟ الله عزَّ وجل ينتظر منا أنْ نتسابق في أمر الآخرة، في معرفته، في طلب العلم، في خدمة الخلق، في العمل الصالح، الآن الناس يتنافسون في الدنيا، في جمع الدرهم والدينار، والله سبحانه وتعالى يقول:

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف الآية : 32)

لم يعُد الإنسان يكتفي بألوف مؤلفة، بل يريد ملايين مملينة، لو ترك ملايين مملينة، وقدِم على الله عزَّ وجل صفر اليدين من العمل الصالح، إنه مِن أخسر الناس .

هذا هو النكران الجميل :

قال: " إن أعطي منها لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي "، الحقيقة أنّ نعمة الشكر مِن أعظم النعم التي يتمتع بها المؤمن، نعمة الشكر أساسها اليقظة، الغفلة تسبب الكفر، فالإنسان أحياناً لو وضع قائمة للنعم التي عنده، فماذا عنده؟ عنده صحة، هذه أثمن شيء، عنده بيتٌ نظيف، وليس عنده أيّة مشكلة في البيت، زوجة مستقيمة مؤمنة، أولاد أبرار، هذه أكبر ثروة، له سمعةٌ طيبة، ثروة جديدة، عنده قوت يومه، كنت أذكر دائماً عن ملِك سأل وزيره: مَن الملك؟ فهذا الوزير أحرِج، السائل هو الملِك نفسه، ويقول هذا الملِك: مَن الملِك؟ فسكت، فقال له: أجب، فقال له:

أنت الملك، فقال هذا الملك: لا، الملك رجلٌ لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيتٌ يؤويه، وزوجةٌ ترضيه، ورزقٌ يكفيه، إن عرفناه جهدنا في إحراجه، وإن عرفنا جهد في استرضائنا .

فحينما يتمتع الإنسان بعقيدة سليمة عن الإيمان بالله، وبفكرة صحيحة عن الكون، فقد جمع لنفسه الخير و الفلاح، ماذا قال طرفة بن العبد:

فإن كنتَ لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ينطلق هذا الشاعر الجاهلي من فلسفة أساسها أن الدنيا من أجل المتعة، وأقوال الناس الآن، يقولون بهذا القول: أنت الآن في عز شبابك فتمتع بحياتك، وخذ منها على قدر استطاعتك، ما هذه الفلسفة؟ هذه فلسفة الشيطان، هذه فلسفة الجهلاء، فإذا كان للإنسان فلسفة صحيحة، عنده رؤية صحيحة لحقيقة الكون والحياة والإنسان، وعنده منظومة قيم تنتظم سلوكه، ومجموعة أوامر ونواهٍ يأتمر بها وينتهي بها، فهو إذًا له هدف واضح، وله طريق سالك لهذا الهدف، وهذا الإنسان عظيم ، فقد ارتقى سلّم السعادة والتألّق.

أيها الأخوة، أن النبي عليه الصلاة والسلام لما سئل: أتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً؟ قال:

" بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره ".

(ورد في الأثر)

يبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما اختار أن يكون نبياً عبداً من أجل أن يعلمنا أن نقص المواد لا قيمة له، لا قيمة له إطلاقاً، لا يسبب عقبة تحول بينك وبين هدفك الكبير .

إذًا: " يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي " .

النبي قدوة لنا في شكر المنعم :

النبي عليه الصلاة والسلام عندما يستيقظ من الليل كان أول دعائه:

" الحمد لله الذي ردَّ إلي روحي " .

(ورد في الأثر)

بعض الناس لا يستيقظون من نومهم، لقد عاجلهم الموت وهم نائمون، النعمة الثانية:

" وعافاني في بدني "

ثم قام يمشي، ولا مكروه به، ولا آلام، الحواس الخمسة صحيحة، مع سلامة القلب والرئتين، والكليتين، والأمعاء والعضلات، والأعصاب، البنكرياس،

" وعافاني في بدني وأذن لي بذكره ".

(ورد في الأثر)

كان إذا دخل بيت الخلاء، يقول:

" الحمد لله الذي أذاقني لذّته، وأبقى فيَّ قوته، وأذهب عني أذاه " .

(ورد في الأثر)

وأقول هذا الكلام كثيراً: المهم أنّ معه مفتاحًا، سواء كان البيت صغيرًا أو كبيرًا، عاليًا أو منخفضًا، مستأجرًا أو ملكًا، كله سيّان، له مأوى، دخل إلى البيت فوجد زوجة قد طبخت، وله أولاد، يملؤون هذا البيت أنساً ومرحاً، هذه هي الحياة .

وحينما يتجاهل الإنسان هذه النعم الأساسية، ويبحث عن نعم مترفة لينافس غيره، وليظهر أمام الناس بمظهر فخم، فهذا الإنسان شقي، وهو بالأساس شقي، شَقِيَ ويشقي، قال: " يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي " .

هذا هو الغبي :

قال: " أندم الناس رجل دخل الناس بعلمه الجنة، ودخل هو بعلمه النار"، والنبي عليه الصلاة والسلام له حديث مخيف، قال:

أهل النار وهم في النار يرون رجلاً كان له تألُّقٌ شديد في الدنيا في مجال الدعوة، تألق شديد، رأوه في النار، وقد اندلقت أمعاؤه، يقال له: أأنت فلان؟ يقول : نعم، يقال له: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ يقول: " كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه "، وهذا الحديث فيما معناه .

(ورد في الأثر)

وكنت أقول لكم دائماً: ما من عملٍ يتذبذب بين التفاهة وبين الخطورة كالدعوة إلى الله، فبينما أن يكون هذا الداعية الذي أخلص لله عزَّ وجل، وطبق أمر الله عزَّ وجل في أعلى أنواع التألق، فلو أنه كان يقول كلاماً لا يطبقه، لهبط في عين الله عزَّ وجل إلى حضيض الأوحال، " ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، يحب الصالحين، ولا يعمل عملهم، ويبغض المذنبين وهو أحدهم " .

فنحن الذي يعنينا من هذا الدرس أنَّ الإسلام ليس فيه حل وسط، والحقيقة عندما الإنسان يقصر يصبح وضعه صعب جداً، لا هو مؤمن يقطف ثمار إيمانه، ولا هو كافر، فالله عزَّ وجل يضعه خارج العناية الإلهية، فيعطيه الدنيا كما يشاء، ثم يقصمه مرة واحدة، لا هو من هؤلاء فيقطف ثمار الإيمان، ولا هو من هؤلاء فيعطى الدنيا كما يريد، والحقيقة هناك أقوال كثيرة مشابهة لحال المنافق منها، أن أخطر شيءٍ في مضمار العلم نصف العالم، لا هو عالم فيفيد من علمه، ولا هو جاهل فيقبل أن يتعلم .

الإيمان ليس فيه وسط، لأنّه إذا وُجد تقصير أدّى ذلك إلى حجاب، فمثلاً: عقيدة جيدة، وطموحات إيمانية، وخوف من النار، ومع كل ذلك لديه تقصير، فهذا التقصير َسَّبَب الحجاب، وهذا الحجاب سبَّبَ مللاً، فليس مِن إنسان يمل مِن طلب العلم إلا بسبب عدم الرغبة في التطبيق .

إذا دعاك شخص إلى طعام، فوضع صحونًا وملاعق وحاجات أخرى، ولكن لم يضع طعامًا، ويقول لك: تفضل، وأنت استحيَيْت أنْ تتكلم معه، دعاك مرة أخرى فلم يضع شيئًا من الطعام، فإنْ دعاك مرة ثالثة لن تحضر، فعندما الإنسان يقوم بعبادة، يصلي ويصوم ويقرأ القرآن ، ولا يكون له اتصال بالله بسبب ذنب من الذنوب فهو في حجاب، هذا الحجاب يفرِّغ هذه العبادة من مضمونها، فعنده الصلاة صارت جوفاء، والصيام أجوف، والحج أجوف، كل هذه العبادات التي كان من الممكن أن ينهض به إلى الله، وأن ترقى به إلى الله، فبتقصيره فرَّغ العبادة من مضمونها .

هذا هو سر الإسلام :

هناك نقطة أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني كي تكون واضحةً بين أيديكم، فكل واحد مسلم يمكنه أنْ يجرب الصلحَ مع الله مئة في المئة، ويستقيم مئة في المئة، ويضبط لسانه مئة في المئة، ويضبط عينه مئة في المئة، ويضبط أذنه مئة في المئة، ويضبط دخله مئة في المئة، ويضبط إنفاقه مئة في المئة، ويصلي، يشعر أنه قريب من الله، وفي أي فرضٍ مِن الصلاة بإمكانه أن يتوجه إلى الله بقلبه ونفسه، ليس شرطًا أن يبكي، لكنْ حقيقةً له توجُّهٌ إلى الله عزَّ وجل ، لأن الطريق سالك بلا عقبات، وجهه أبيض، له دالةٌ على الله .

وقد كنت أضرب مثلاً، إذا لم يعمل أعمالاً صالحة، لكنه إذا استقام فقط، ففي الجيش هناك رتب، يوجد لواء، قائد فرقة، وعميد، وعقيد، ومقدم، ورائد ونقيب، وملازم أول، وملازم ثاني، ومساعد، ورقيب، وعريف، وجندي محترف، وجندي مجند، وجندي غر، أليس كذلك؟ أيقدر مجند غر أنْ يدخل على اللواء من دون استئذان؟ مستحيل، يحتاج إلى طلب، بل إلى طلبات عن طريق التسلسل، وأعتقد أغلب الظن أنه لا يستطيع، لكن هذا اللواء لو كان له ابن، وكان يسبح في مكان عميق، وأشرف على الغرق، فهذا المجند الغر يتقن السباحة تماماً، فألقى بنفسه، وأنقذ هذا الغلام من موتٍ محقَّق، وجاء في اليوم التالي إلى غرفة هذا اللواء، وقال للحاجب قل له: فلان، ماذا يقول له هذا اللواء؟ يقول له: تفضل، أين أصبحت الرتب؟ أين العقبات؟ أين التسلسل؟ التغت كلها، لأن له عملاً صالحًا، هذا العمل بيَّض وجهه، هذا العمل أعطاه قوة اقتحام، أعطاه قوة اندفاع ، هذا مثل بسيط .

فمرة كنت في سهرة، قال لي أخ: دلّنا على طريق الاتصال بالله، قلت له كلمتين: استقم على أمره، واخدم عباده، وقِفْ وصلّ وانظر .

مرة صليت بالحرم النبوي في أول عمرة أكرمني الله بها وراء إمام، أنا أظن به ظناً حسناً، صوته حسن، ويبدو أن له قلباً موصولاً بالله عزَّ وجل، والله أيها الأخوة، قرأ في الركعة الأولى سورة الجن، وفي الركعة الثانية سورة المزمل، والله الذي لا إله إلا هو لو أنه بقي يصلي حتى الظهر لكنت ممتناً له، قلت هذه الكلمة: حقًّا هذه الصلاة التي أمرنا الله بها، أنت الآن تتصل بخالق الكون، فالله عنده تجليات، عنده سكينة يلقيها على قلبك، فتشعر بالطمأنينة، تشعر بالسكينة، تشعر بقيمتك كإنسان، تشعر أن علاقتك مع الله فقط، تشعر أنّ الدنيا تافهة، صارت لك صلة حميمة بالله .

هناك رجل عالم جليل من كبار الدعاة سافر إلى بلد ليجري عملية جراحية كبيرة، فقابله صحفيٌّ وسأله: ما هذه المكانة الكبيرة التي أكرمك الله بها؟ قال له: واللهِ هذه مِن الله، فلما ألح عليه، قال له: لأنني محسوبٌ على الله، أنا لستُ محسوبًا على جهة أرضية، أنا محسوب على الله ، كلمة فيها أدب، أنا لستُ أهلاً، لكن هكذا حُسِبْتُ على الله، فأنت محسوب على الله، أنت محسوب مع المصلين، محسوب مع روَّاد المساجد، محسوب مع المؤمنين، محسوب مع الذين يبتغون وجه الله، فإذا كانت لك أخطاء طفيفة، مخالفات طفيفة بالجوارح الخمس، بالسمع، بالبصر، باللسان، باليد ، بالرجل، بكسب المال، بإنفاق المال، بالبيت، بالعمل، هناك مخالفات اضبطها واتصل بالله، وهذا واللهِ الذي لا إله إلا هو لسرُّ الإسلام، فالإسلام عظمته بهذا القلب الممتلئ بالتجلي الإلهي، بهذا القلب الممتلئ بنور الله، بسكينة الله، بهذا القلب الذي لا يخاف ولا يذل، ولا يشعر بالقهر، ولا يشعر بالندم .

الإنسان أراه أحياناً مثل قطعة القماش البالية متهالكًا، ضعيفَ المعنويات، يائس، مقهور ، خائف، قد ينافق، أيام يتذلل، وقد يبذل ماء وجهه، أحيانا من أجل عرَضٍ طفيف جداً تجده بذل ماء وجهه، حتى هان وسقط من عين الله .

كن عزيز النفس أيها المسلم :

سيدنا عمر جاءه رجل يبدو أنه طلب طلبًا بإلحاح، فما رضي له بهذا الموقف الذليل، قال له: " يا هذا لقد أضعت من نفسك أكثر مما ضاع منك "، أضعت من مكانتك، أضعت من كرامتك، أضعت من إنسانيتك أكثر مما ضاع منك، النبي علمنا:

" ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير "

(ورد في الأثر)

النبي الكريم علمنا، فعَنْ حُذَيْفَة قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

" لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ، قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلاءِ لِمَا لا يُطِيقُ "

(أخرجه الترمذي عن حذيفة في سننه)

أنت تمثل هذا الدين، لماذا للسفير سيارة فخمة، ويرتدي أجمل الثياب؟ لأنه يمثل أمة، هندامه ليس ملكه، هندامه ملك أمته، مكانته طلاقة لسانه، يختارونه مثقفًا ثقافة عالية، يتقن لغتين أو ثلاثًا، يتقن عدة اختصاصات .

ينبغي على المسلم أن يحصن نفسه من المهلكات :

المؤمن لا يتألق إلا بالطاعة التامة لله عزَّ وجل، اضبط لسانك نهائيا، وابتعد عن الغيبة مهما كلّف الأمر، أحد العلماء الأجلاء، وهو الشيخ بدر الدين الحسني، إذا حضر أحدٌ لا يتكلم أمامه كلمة ، فإنْ تكلم أحدٌ، قال فوراً: اسكت يابا، أظلم قلبي، عوِّد نفسك ألاّ تغتاب .

رجل مستقيم مقبل على الله عزَّ وجل، موفق في عمله، له حسَّاد كثيرون، هؤلاء الحساد نهشوا من لحمه، واغتابوه بحق وبغير حق، فلما قال له أحدهم: إني أشفق عليك مما يقوله عنك الناس، فقال: " هل سمعت مني عنهم شيئاً؟ قال لا، قال: إذًا عليهم فأشفق " .

فأنا الذي أرجوه من الله عزَّ وجل، والقضية سهلة، وبمتناول يدك أيها الأخ، غضُّ البصر بحزم، مع الامتناع عن سماع الغناء، والامتناعُ عن الكذب والغيبة والنميمة والسباب والفحش والاستهزاء، وأنت تعرف ذلك بالفطرة، وبعدها تصل، كسب المال الحلال مئة في المئة، لا تكذب مهما كلفك الأمر، قال تعالى:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً)

(سورة الجن الآية : 16-17)

أخواننا الكرام، ثمرات الدين يمكنك أنْ تسمِّيَها معنويات عالية، تسميها سكينة، وأنْ تصف المؤمن أنه شخص متألّق، شخصية فذة، يمكنك أن تسمي المؤمن شخصًا متوازنًا، فالله عزَّ وجل يتجلى عليك بطريقةٍ تشعر معها أنك إنسان متميز، هذا ثمن الاستقامة .

غفلة الإنسان عن سنة الله في خلقه :

قال: " يكره الموت لكثرة ذنوبه، ويقيم على ما يكره الموت من أجله إنْ سَقِمَ ظلَّ نادماً، وإن صحَّ أَمِنَ لاهياً "، يكره الموت لكثرة ذنوبه، اسمعوا هذا المقياس الإلهي:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

(سورة الجمعة الآية : 6-7)

يعني تمنِّي الموت، أو عدم الخوف من الموت محكٌّ أساسي، يكشف لك حقيقة إيمانك .

أعرف رجلاً أصيب بأزمة، أُدخِل العناية المشددة بالمستشفى، بعد أسابيع فرِّج عنه، يعني هذه الجلطة مُيِّعت، عاد إلى نشاطه، وإلى لهوه، وإلى انحرافه، وإلى نواديه الليلية، ثم بعد توفاه الله عزَّ وجل، أيْ أنّ ربنا عزَّ وجل وجَّه له إنذارًا مبكِّرًا، في بعض القرى فيها مولدات كهربائية محدودة، تستمر حتى الثانية عشرة ليلاً، فقبل عشر دقائق يُطفأ التيار على الناس لدقيقة واحدة، هذه إشارة أنه اقترب انقطاع التيار النهائي .

فالله عزَّ وجل جعل لنا في الحياة إنذارات عديدة، مرة الشيب، مرة بضعف البصر، فالله عزَّ وجل قادر على أن يبقيَ الإنسانَ في أعلى درجات نشاطه حتى الموت، فقبل عشر سنوات من أَجَلِه يحتاج إلى وضع نظارات، وأن يضع بدلة لأسنانه، طبعاً هذا الضعف لأعضائه أو لحواسه لَفْتُ نظرٍ لطيف مِنَ الله سبحانه، أنْ يا عبدي قد اقترب اللقاء، فهل أنت مستعد؟ هيئْ نفسك .

من طبع الإنسان اللؤم :

قال: " يعجب بنفسه إذا عُوفي، ويقنط إذا ابتلي، إن أصابه بلاءٌ دعا مضطراً، وإنْ ناله رخاءٌ أعرض مضطراً "، كل إنسان على الضغط يتوب، لكن يا ترى أنت ألاّ تحب أنْ يكون لك مع الله موقف مشرِّف، ودون مرض تدعو: يا رب، وتصلي بخشوع وإقبال، تدعو الله، وأنت لست مضطراً، النبي عليه الصلاة والسلام، يقول:

" أمرني الله بتسع، خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى "

(ورد في الأثر)

أن تقصد الله عزَّ وجل، وأنت فقير، وأنت غني، وأنت مريض، وأنت صحيح، وأنت قوي، وأنت ضعيف، ويستوي لديك المرض مع الصحة، والغنى مع الفقر، والقوة مع الضعف في دعائك واتصالك، وأورادك وتلاوتك، وحضور مجالس العلم .

بعض الناس يشعر بفضل الله إذا تألق عمله وتجارته، ثمّ لم نعد نراه، ويتعلّل بقوله: مشغول يا أستاذ، أعذرني، وعندما تنشأ معه مشكلة كبيرة في عمله يحضر إلى الدروس، كلما شدّد الله عليه يحضر، كلما أرخى الحبل يترك، الإنسان بطولته وهو في الرخاء، " ابن آدم اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة " .

من تبع هوى نفسه فقد ضل :

قال: " تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن "، فالموت يقيني، والأمل الطويل ظني، " تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن "، سيدنا أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى له كلمة ما رأيت كلمة أكثر منطقية منها، يخاطب نفسه يقول لها وهذا كلام لنا جميعاً: " يا نفس لو أن طبيباً منعك من أكلةٍ تحبينها، لا شك أنك تمتنعين عنها، يا نفس أيكون الطبيب أصدق عندك من الله؟ " .

الطبيب بَشَرٌ ضعيف من جنسك، قال لك: هذه الأكلة لا تناسبك، وهذه الأكلة تسبب لك متاعب كثيرة، فأنت من خوفك على صحتك امتنعت عنها بشكلٍ حازم، أيكون الطبيب مصدّقاً، وإلهُ الكون يقول لك؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

(سورة الحجرات الآية : 12)

أيكون الطبيب عندكِ أصدق من الله؟ إذًا: ما أكفركِ ! "، ثم يقول لنفسه: " أيكون وعيد الطبيب أشد عندكِ من وعيد الله؟ إذًا: ما أجهلكِ! "، إنّ الله صادق، لكن المرض عنده أشدُّ إخافة من جهنم، إذًا: ما أجهلك ! .

كل إنسان يعصي الله عزَّ وجل مدموغ إما بالكفر، وإمّا بالجهل، فهذا معنى: " تغلبه الناس على ما يظن ولا يغلبها على ما يستيقن ".

أقوال شتى :

قال: " يخاف على غيره بأدنى من ذنبه، ويرجو لنفسه بأكثر من عمله "، تجده إذا لمح إنسانًا غلط غلطة، يقول له: الله يعينك على آخرتك، وأنت؟ يعني يرى قشة في عين أخيه، ولا يرى جذعاً في عينه، فالقياس بالمقياسين شيء لا يليق بالإنسان .

قال: " إن استغنى بطر وفتر، وإن افتقر قنط ووهن، يقصر إذا عمل، ويبالغ إذا سأل، سؤاله سؤال المضطرين، أما عمله عمل المغتصبين "، الحقيقة أنّ عندك قولًا وعملاً دائماً، هناك شخص قوله على قدرِ عمله، وهناك شخص قوله أكثرُ مِن عمله، هذا ثرثار، وهناك شخص عمله أبلغ من قوله، وهذا إنسان عظيم يعمل بصمت، وهناك شخص يتكلم بقدر ما يعمل، هذه بتلك، وهناك شخص يعمل ولا يتكلم، هذا إنسان عظيم، وهناك شخص عمله على قدر كلامه، هذا بين و بين .

قال: " إذا عرضت له شهوةٌ أسلف المعصية وسوَّف التوبة، وإن عرته محنةٌ انفرج عن شرائط الملة، يصف العبرة ولا يعتبر، ويبالغ في الموعظةِ ولا يتعظ، فهو بالقول مدل، ومن العمل مقل، ينافس فيما

يفنى، ويسامح فيما يبقى، يرى الغنم مغرماً، والغرم مغنماً، يخشى الموت ، ولا يبادر الفوت، يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه، ويستكثر من طاعته ما يحقره من طاعة غيره، فهو على الناس طاعن ولنفسه مداهن، اللهو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء ".

فهذا هو الإنسان المنافق الذي خط لنفسه طريقاً لا يرضي الله، واعتقد اعتقاداتٍ مشابهة للمؤمنين، فهذا النموذج الذي وصفه هذا الإمام الجليل نرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون في حرزٍ حريز من هذه الأوصاف التي لا ترقى بالإنسان .

من هؤلاء الذين يصفهم الإمام بالهمج الرعاع ؟

قال: " إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، فيا كميل احفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة، عالمٌ رباني، ومتعلمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع "، يعني هناك أناس مع الغوغاء، هؤلاء يسمونهم الشريط العريض في المجتمع، هؤلاء يتبعون شهواتهم، ويتبعون صرعات الأزياء، يتحدثون فيما لا يعنيهم، هم مع الناس إنْ أحسن الناس أحسنوا، إنْ أساؤوا أساؤوا مثلهم، هؤلاء يتموجون، هؤلاء هم الهمج الرعاع، وهناك عالمٌ رباني، أي متصلٌ بالله عزَّ وجل، ومتعلمٌ على سبيل نجاة، اللهم اجعلنا من المتعلمين على سبيل النجاة .

قال: " هؤلاء الهمج الرعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق، فاحذر يا كميل أن تكون منهم، يا كميل، العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله "، الحقيقة العلم حارس، والمال يحتاج إلى حراس، العلم نفسه يحرسك .

عاقبة المفرط :

ذات مرة سائق تكسي في دمشق، استوقفته امرأة ترتدي عباءة فلما ركبت، قال: إلى أين يا أختي؟ قالت له: خذني إلى حيث تشاء، وناولته ظرفاً فيه مبلغ كبير من العملات الصعبة، فهذا السائق، بحسب جهله الكبير، قال في نفسه: رأينا ليلة القدر، قضى حاجته، وأخذ هذا المبلغ، وأرجعها إلى المكان الذي أخذها منه، ومع هذا المبلغ رسالة، ففضَّ الرسالة، فإذا فيها كلمة، تقول له: لقد أصبحت عضواً في نادي الإيدز.

وأنا بلغني أنّ النساء اللواتي يصبن بهذا المرض عندهن رغبةٌ جامحةٌ جداً أن يوسِّعن دائرة هذا المرض بشكلٍ مخيف، هذا أسقط في يده، لكن قال هذا المبلغ كبير ينفعنا، فلما ذهب ليصرف المبلغ فإذا

هو مزور، وأخذ إلى السجن، هذه الحادثة وقعت في دمشق قبل سنة تقريباً، وتعليقي على هذه القصة، لو أن هذا السائق كان مؤمنًا لوضع رجله في ظهرها، وركلها خارج السيارة، أليس كذلك؟ ونجا من المرض، ومن السجن، لأن العلم حرسه .

مرة أحد الأشخاص سألني وهو يبكي، قال لي: زوجتي تخونني منذ ثلاث سنين، وقال: الأمس اكتشفت ذلك، هو في عمله طيلة النهار، يأتي مساءً يتناول طعام العشاء، ويشرب كأساً من الشاي، وينام نوماً عميقاً، بعد ثلاث سنوات، خطر في باله أن هذا الكأس ينبغي ألاّ يشربه، وبقي صاحيًا، إذًا: هناك رجل يأتي إلى البيت بعد أن ينام الزوجُ نوماً عميقاً، فسألْته: مَن هذا الرجل؟ قال: جارنا في البناية، كيف تعرفتَ عليه؟ قال لي: ذات ليلة كنت سهران، وطرق بابَنا ليزورنا، وقلت لزوجتي: تعاليْ أمَّ فلان، اجلسي معنا، هذا مثل أخوكِ، وكانت هذه بداية الخيانة، قلت له: لو أنك حضرت مجلس علمٍ، وعرفت أنّ هذا الاختلاط لا يجوز، وأنك كنت السبب لما فعلت هذا ، قال لي: كلامك حقٌّ وصواب .

قيمة العلم الشرعي في ضمان حياة البشر :

أيها الأخوة، ما مِن مشكلةٍ على وجه الأرض، إلا ووراءها معصية لله، وما من معصيةٍ إلا وراءها جهلٌ بشرع الله، فالذي يحضر دروس العلم، فما حصيلة ذلك؟ هذا يحصِّن نفسه، لأن هناك قوانين دقيقة جداً، فعندما يسمح رجلٌ لزوجته أنْ تختلط مع جاره فلا بد أنْ يدفع الثمن غاليًا

ببساطة، أعرابي وهو سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ،

قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام: قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ، قَالَ: " قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ " .

(أخرجه أحمد في مسنده)

يقول لك: أخي لا تتزمت كثيرًا، حلها برمة، فيمكن أنْ يقول لمهندس العمار: أخي لا تشدد علي كثيرًا، بدلَ قياس ثمانية مليمتر اجعل ستة مليمتر، ويكفي كيسان فقط، هذا كلام غير مسموع، هنا علم، هذا بناء مِن ثلاثة طوابق، لو وضعنا كيسين إسمنت تقع البناية، لو كان الحديد أقل ممَّا ينبغي ينهار البناء، ففي الهندسة ليس ثمة مجاملة، فكل إنسان يقول لك: حلها برمة، لا تشدد، لا تتزمت، هذا كلامه غير مسموع .

أحد الطلاب أخبرني مرة، فقال: لي أخ يعمل في معمل ثماني ساعات، وعنده ثلاثة أولاد، ولدٌ منه، وولد مني، وولدٌ من أخي الآخر، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

" الحمو الموت " .

(ورد في الأثر)

هكذا النبي أخبر، فلو أخذت ملفات القضاة، لو أخذت ملفات مخافر الشرطة، ودرست كل قضية، فببساطة وسهولة أنْ تجد كل مشكلة وراءها معصية، فلما يحضر الإنسان مجلس علم، ويعرف الحرام والحلال، وما ينبغي وما لا ينبغي، ما يجوز وما لا يجوز، لا توجد عنه هذه المشكلات، فبشكل دقيق جداً، مشكلاتنا الأسرية والاجتماعية والتجارية والمالية أساسها المعاصي، والمعاصي أساسها الجهل دائمًا .

فالذي يريد الحياةَ هادئة ليس فيها مطبّات، وليس فيها انحرافات، وليس فيها انفجار داخلي، ولا أزمات ساحقة، فعليه أنْ يستقيم على أمر الله عزَّ وجل، قال له: " يا كميل، العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال" .

المشكلة أن الإنسان يتحرك من دون علم، وإذا تحرك من دون علم قطعاً سوف يأخذ ما ليس له، وسيقع في الكذب، والغش، والربا، والغبن، حينما يقع في هذه المعاصي يؤدِّبه الله تعالى ، أما لو تعلَّم، وطبّق المنهج يكرمه الله، والمال ينمو بالصدقات، ويتلف بالربا .

في أحداث لبنان، حدثني أخ في محل بالبرج، أضخم محل أجبان، فيه بضائع بمبالغ خيالية، فأول جولة حرب انتهت، المحل الذي على يمينه محروق ومنهوب، والذي على يساره محروق ومنهوب، والذي فوقه محروق ومنهوب، والغلق محروق، فلما انفرج الأمر، هذا أسرع إلى دكانه وفتح المحل، هذا رجل مسلم، يدفع زكاة ماله، أقسم بالله وجده كما أغلقه قبل أشهر هو هو، فتح الصندوق، هناك مبلغ من المال وجده هو هو، فحينما دفع زكاة ماله ما بقي أحدٌ من جيرانه إلا اتهمه بالغباء، قالوا له: ادفع هذا المبلغ للمصرف وخذ فائدته، لكنه دفعه زكاة ماله، إذًا: تأكَّدْ يا أخي أنه ما تلف مالٌ في برٍ أو بحر إلا بحبس الزكاة .

فأنا أرى أن الإنسان يتميز عن سائر المخلوقات بالقوة الإدراكية، وهي العقل، هذه القوة الإدراكية تحتاج إلى أن تلبي هذه الحاجة، فكل إنسان يطلب العلم، معناها أكَّد إنسانيته، أكد في كيانه إنسانيته، وكل إنسان أهمل العلم هبط إلى مستوى آخر دون المستوى الحقيقي، " فيا كميل، العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق " .

العالم ذكره لا يموت :

إذا سمع أحدُكم تفسيرَ آية، أو تفسيرَ حديث، أو نقطة شرعية دقيقة وحفظها، فليحاولْ في مناسبة ما أنْ ينقلها للأخوان، إن تكلمت بها مرةً واحدة ثبتت، أو مرتين، أو ثلاثًا، بإمكانك أن تنفقها آلاف المرات، وكلما أنفقتها ازداد امتلاكك إياها، وربما تعمَّقت في فهمها، فالعلم يزكو على الإنفاق، " يا كميل هلك

خزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، العلماء باقون أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة " .

الإنسان يموت، لكن واللهِ أيها الأخوة مَن يطلب العلم، ويعلّم بإخلاص لا يموت، يموت جسمه، لكنّ ذِكْرَه على كل لسان، واسمه في كل بيت، وهذا بين أيديكم، العالم الإسلامي من شرقه إلى مغربه، كم مرة يسمع ذكر الإمام الشافعي، وأبو حنيفة، ومالك، وسيدنا الصديق، وسيدنا عمر ، وسيدنا صلاح الدين، وسيدنا عمر بن عبد العزيز، فهؤلاء الذين أعطوا ولم يأخذوا، هؤلاء لم يموتوا، " يا كميل هلك خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة " .

اسمعوا هذه الكلمة :

قال: " لو أصبتُ لهذا العلم لا أصيب إلا حملة، أصبت لقناً غير مأمونٍ عليه، مستعملاً آلة الدين للدنيا "، فأصعب شيء في الحياة أن الإنسان يستخدم الدين للارتزاق، " أو قائدًا لحملة الحق، ولا بصيرة له، ينقدح الشك في قلبه لأول عارضٍ من شبهةٍ لا إلى ذاك ولا إلى ذاك، أو منهوماً باللذة سلس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والادخار، ليسا من رعاة الدين في شيء، أقرب شيءٍ شبهاً بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه، اللهم بلى، لا تَخْلُو الأرض من قائمٍ بحجة الله، إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته، وكم ذا، وأين أولئك؟ أولئك والله الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبيناته، حتى يودعوها نظرائهم، ويزرعونها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استخشنه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه، آه شوقاً إلى رؤيتهم "، وهذه الكلمة لهذا الإمام الجليل، تبين المزالق التي يمكن أن ينزلق بها مَن ينتمون إلى هذا العلم، وتبين حقائق الدعاة إلى الله الصادقين .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعا بما علمنا، وأن يلهمنا تعليم الناس الخير .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس